د. كامل البوهي

دعوة إلى السعادة

15
B

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباظة

القاهرة

إلى الفنان الإنسان، وإلى
الأديب المتمكن، والصحفي
الكبير، الأخ الصديق
الأستاذ ثروت أباظة
مع رجائي الملئ بالتفاؤل
بتلبية هذه الدعوة
د. كامل البوهي
١٩٨٣/٢/٥

د. كامل البوهي

دعوة إلى السعادة

كتب عربية
(إهداء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
رقم التسجيل ٧٤٧٩١
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار وهدان للطباعة والنشر
٦ ميدان بركة الرطلي - عجوزة - القاهرة ت ٩٠٥٠٢٦-٩٢١٤٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون

صدق الله العظيم

دار وهدان للطباعة والنشر
٦ ميدان بركة الرطلي - العجالة - القاهرة ت: ٩٢١٤٤٤-٩٠٥٣٦

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أسعد خلق الله ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، اللهم اجعلنا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد نظرت فى أنحاء العالم الاسلامى ، فهالنى ما رايت من شقاء الأفراد والجماعات ، وأفزعتنى مسحة من الحزن ترتسم على الوجوه ، وتعبر عن هم دفين يملأ القلوب ، وفكر سقيم ينغص الحياة .

ثم التقيت بعدد كبير من الأوربيين ، فاذا هم يلاحظون هذه الملاحظة ، ويضيفون اليها من رواسب التعصب القديم ، ما يزعمونه من أن الاسلام وراء هذه الظاهرة ، وأنه يغذى هذه النزعة الحزينة ، والشقاء الذى يلقى بظلاله الكئيبة على أنحاء العالم الاسلامى .

ولكم أن تتصوروا اثر ذلك فى نفسى ، حينما وجدت بعض ادعياء العلم من المسلمين ، يؤكد أن ما ورد فى قصة قارون **« اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين »**(١) يبرر

---

(١) الآية رقم ٧٦ من سورة القصص .

هذا الاتجاه ، ويدعو الى حيـــاة مكفهرة عابسة ، ملؤها الوجوم والاكتئاب ، وجوهرها الخوف والتردد والارتياب .

ولمـــا كنت واحدا من المسلمين احيا سعيدا باســـلامى ، واستمع الى دقات قلبى تلهج بالحمد ليل نهار ، والى بلابل روحى تصدح بالايمان فى اليقظة والمنام ، واشـــعر بفيض من الرضـــا يغمر حيـــاتى بالســـعادة ، ودافق من السرور يملأ صـــــدرى بالانشراح ، ويطلق لســـانى بالحمد ، فقد عزمت على اصـــدار هذا الكتاب ، لعله يكشف لأبناء هذه الأمة عن جوهر الاســـلام ، ويدعو غير المسلمين الى اعـــادة النظر فيما ورثوه من تعصب ، وما القت به الرواسب التاريخية فى اذهانهم من افكار ضد هذا الدين الانســـانى السمح ، لعلهم ينتفعون بمبادئـــه الأصيلة ، ويرتفعون الى غاياته النبيلة .

ومما لاشك فيه أن ارسال الرسل وانزال الكتب ، لم يكن الا رحمة من الله بعباده ، فسعادة البشر فى الدنيا والآخرة هى الغاية ، والا فلم أرسل الله الرســـل وانزل الكتب ؟ !

وهـــل يمكن ان يظن أحد من المؤمنين ان الله يحتـــاج الى عبادتنـــا ؟

استغفر الله ! سبحانه هو الغنى ، لا ينفعه ايمان من آمن ، ولا يضره كفر من كفر ، من أجل ذلك نؤكد ان ســـعادة البشر كانت الهدف الاساسى للأديان .

وكما نعجب من الذين لا يعرفون ان الدين دعوة للسعادة فى الدنيا والآخرة ، نعجب اكثر واكثر من الذين يزعمون ان الدعوة

للسعادة يمكن أن تكون دون العمل على توفير اسبابها ، فاذا هي سذاجة وغفلة ، واذا هم يقدمون — دون أن يشعروا — تبريرا للذين يزعمون ان الدين أفيون الشعوب .

وان تعجب من أولئك وهؤلاء ، فعجب قول من يفصل بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ان الملحدين الذين ينكرون البعث والحساب ، ويظنون أن سعادة الدنيا وحدها هي الغاية ، انما يغالطون انفسهم ، وكأنهم لا يرون بأعينهم أن متاع الدنيا قليل ، وان اية سعادة فى الدنيا مهما عظمت ، فان زوالها أكيد — بانتهاء عمر الانسان ومفارقته لها ، او بزوال النعمة أو زوال الدنيا نفسها — وان ضرورة زوالها يعتبر نقصا خطيرا فيها ، من أجل ذلك نجد ان الطريق الوحيد للسعادة الحقيقية فى هذه الدنيا ، هو ربطها بسعادة الآخرة .

وأما الذين يظنون انهم لن ينالوا سعادة الآخرة الا بالشقاء الدنيا ، فقد غفلوا عما دعا اليه الاسلام من تنظيم للحياة ، بحيث يسعد فيها الأفراد ، وتسعد الجماعات الصغيرة ، والأمة الكبيرة ، كما غفلوا عن سر الدعاء الذى هدانا اليه القرآن الكريم « **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار** »(٢) وعن سر الدعاء الذى نبهنا اليه الرسول الكريم : (اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، واصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، واصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر) .

ادعية من القرآن والسنة ، جامعة لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، فليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه ، ولكن من أخذ من هذه وتلك .

---

(٢) الآية رقم ٢٠١ من سورة البقرة .

اخى المسلم ، أختى المسلمة :

أن الاســـلام حب للخير يمـــلأ القلوب ســـعادة والحيـــاة بهجة ، وان الاســـلام عبادة تسمو بالنفوس ، وتصلها بالملأ الأعلى ، فتغمرها السكينة وتعمرها الطمأنينة ، وان الاســـلام عدالة تعصـــم حياتنا من العدوان ، وتنظم علاقاتنا بالأحيـــاء والأشياء ، بالأسرة الصغيرة فى البيت والعمل ، وبالمجتمع الكبير فى الشعب والأمة ، وفى المجتمع الأكبر فى الأسرة العالمية ... كما تنظم علاقاتنا بالكون والطبيعة ، بالنبات والحيوان والزمـــان والمـــكان .

فالاســـلام يصقل عقلك بالثقافـــة النظيفة ، وينير بصيرتك بالفكر المستقيم ، ويخرجك من ظلمات الكفر والجهل والاضطراب ، الى نور الايمان والمعرفة والســـلام النفسى ، وهو يحررك من عبادة أهوائك ، ومن عبادة أصنام الحجر وأصنام البشر ، ومن الخضوع الذليل للتقاليد البالية ، ومن الاستسلام المهين لاغراء الذنـــوب .

الاسلام بهذا كله دعوة للسعادة الحقيقية ، دعوة تقوم على أساسين قويين ، حب الخير ونقاء السريرة .

وتستند الى دعامتين عظيمتـــين ، وعى مؤمن وعبـــادة صادقـــة .

وتستظل بغطائين واقيين ، هما العدل والتراحم .

وهو لذلك يحقق السعادة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، فاذا قرأت الباب الأول من هـــذا الكتاب عن سعادة الفرد ، والباب الثانى عن سعادة المجتمع ، ولبيت الدعوة ، فانى على يقين من انك ستكون من السعدان ، والله ولى التوفيق .

د. كامـــل البوهـــى

الباب الاول
سعادة الفرد

سعادة الفرد

هل يستطيع احد ان يهبك السعادة ؟

او يستطيع انسان ان ينزعها منك ؟

اذا كان الامر كذلك ، فقد سلمت مقاليد حياتك لهذا الذى يملك من امرك كل شىء ، يملك ان يهبك السعادة ، او يلقى بك فى اتون الشقاء ، وبذلك تفقد انسانيتك ، وتهدر استقلالك وذاتيتك ، وتصبح ظلا لانسان ، او عبدا ذليلا لمن يتحكم فى امرك ، ويقضى بشقائك او سعدك .. وتكون قد ضللت الطريق الى السعادة ، بل تخليت عن كل اسبابها ، ورفضت نعمة الله الذى خلقك حرا ، وسواك انسانا ، لتختار لنفسك ، اما سعادة الدنيا والآخرة ، واما شقاء الأبد وذل العبودية لغير الله ، والتبعية لشياطين الانس والجن :

جلست اسماء بنت ابى بكر بين صواحبها ذات مرة ، ثم استمعن اليها تلهج بالحمد ، وتعبر عما تحسه من سعادة غامرة ، لا يستطيع احد أن يكدر صفوها ، او ينتزعها منها .

وسألتها احدى صواحبها : ما هذا الذى تقولين يا اسماء ؟

فقالت أم عبد الله(١) : (ان سعادتى فى ايمانى ، وايمانى فى قلبى ، وقلبى لا سلطان لاحد عليه الا الله) .

---

(١) هى اسماء بنت ابى بكر الصديق وام عبد الله بن الزبير ، وكانت تعرف ايضا بذات النطاقين .

وقد احسنت ذات النطاقين تصـــوير احاسيسها ، واجادت التعبير عن شـــعورها بالســـعادة الحقيقيـــة ، ســـعادة المؤمن بايمانه .. ولعلنا نذكر أن الفوز العظيم الذى تؤكده الآيـــات الكريمة للمؤمنين والمؤمنات ، يفسره العلماء فى ايجـــاز ، بأنه سعادة الدنيا والآخرة .

ليست السعادة اذن فى جمع المـــال ، ولا فى امتلاك ما يمكن أن يسرقه اللصـــوص ، او يحرقه الأعداء ، أو ينهبه الحاقدون ، او يسلبه المعتدون .

ليست السعادة فى الثراء العريض .. والجمال الفاتن ، والارستقراطية العريقة ، أو المنصب المهيب .

ان هذه الأمور كلها ان لم يرافقها شعور يقينى بأنها من فضل الله ، وانها ينبغى أن تقابل بالحمد والرضـــا والسعادة ، قد تنقلب الى شرور تطغى الانسان وتقوده الى الهاوية .

انما السعادة الحقيقية فى الرضـــا بما انعم الله به عليك ، السعادة الحقيقية فى معرفة النعمـــة وشكر المنعم ، الســـعادة الحقيقية شعور داخلى بأنك انســـان كريم على نفســـك ، كريم على الله ، تحيا فى كنفه ، وتعمل ابتغاء مرضاته ، فيهتف قلبك قبل أن ينطق لسانك « الحمد لله » .

السعادة الحقيقية أن تدخل جنة الدنيا من أوســـع ابوابها بالرضا ، وجنة الآخرة فى أول افواجهـــا بالحمد ، كما وعدك البشير النذير فى قوله :

(أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الحمادون ، الذين يحمدون الله فى السراء والضراء) .

ولعلك فكرت يوما فى وصفه صلى الله عليه وسلم بالبشير النذير ، وعرفت صلة هذا الوصف بالسعادة والشقاء ، فقد جاء عليه الصلاة والسلام يبشر المؤمنين الصادقين ، اى يخبرهم بما يسرهم ويسعدهم ، وينذر الكافرين والمنافقين ، اى يخبرهم بما يسوءهم ويشقيهم .

من اجل ذلك ناديتكم جميعا ، ناديت كل مسلم بالفعل أو بالاستعداد ، وكل مسلمة بالفعل أو بالاستعداد ، لأدلكم على طريق السعادة الحقة ، وأراكم ترفلون فى حللها ، وتتقلبون فى جنباتها ، ويسعد بكم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ويصور سعادته بهذه الكلمات النورانية : (عجبت للمؤمن ، ان امره كله خير ، وليس ذلك الا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء ، صبر ، فكان خيرا له) .

ومما لاشك فيه أنه صلى الله عليه وسلم ، حينما دعانا لنحيا فى الخير مهما كانت ظروف الحياة ، فى السراء والضراء .. وحين صور المؤمن بأنه سعيد دائما ، سعيد بايمانه ، بفطرته التقية ، فقد رسم لنا طريق السعادة ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم ، الذى يحظى به السعداء **((ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما))(٢)** .

وفيما نقرأ من فصول هذا الباب ، نتعرف على اسباب سعادة الانسان ، سعادة الفرد فى خاصة نفسه ، رجلا كان او امراة ، فى اى قطر من اقطار الأرض يعيش ، من جيلنا هذا أو من أى جيل ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(٢) الآية رقم ٧١ من سورة الأحزاب .

ورغم كل الخـــلاف الذى يسـتـوقه الجدليون حول تعريف السعادة ، ورغم اختـلاف الناس حول اسـبابها ودواعيها ، فالكريم الجواد يسعد اذا راى ضيفه سعيدا ، والبخيل الشحيح يشـــعر بالتعاســـة اذا اضطر أن يضـــع يده فى حيبـــه لينق ، والذين يكنزون الذهب والفضـــة يسعدون لمجرد رؤيتهم لبريقها ، والدعـــاة والمصلحون يســـعدون اذا راوا استجابة الجمـــاهير لدعوتهم ، والقانع يرى سعادته فى أن يسلم من الناس ، ويتمثل دائما بقول الشاعر :

وان امـــرءا يمسى ويصـــبح ســـالـــا
من النـــاس الا مـا جنى لســـعيد

رغم ذلك الاختـــلاف ، فان هناك اجماعا على ان كل عاقل يطلب السعادة لنفسه ولمن يحب ، فاذا كان مع ذلك بعيد النظر ، فلن تغره سعادة الدنيا وحدها ، وانما ســـوف يدعوه طموحه ويهديه ايمانه ، ليجمع سعادة الدنيا وسعادة الآخرة :

دعـــانى طموحى للمعـــالى وعنـــدما
بلغت ذراهـــا طـــال شوقى لغيرها
لمـــا عند ربى مـــن نعـــيم وجنـــة
حنينى اليهـــا ، ظلهـــا وعبيرهـــا

الفصـــل الأول

ولقد كرمنا بنى آدم (١)

هل تعرف ان الخـــالق جل جلاله ، كرمك غاية التكريم بان جعلك انسانا ؟

ان مجرد انتمائك الى آدم عليه الســـلام ، جعل الكون كله مســـخرا لك « **وسخر لكم ما فى الســـموات وما فى الأرض جميعا** »(٢) والقرآن الكريم يلفت انظار كل الناس « **الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، واسبغ عليكم نعمـــه ظاهرة وباطنة ؟** »(٣) .

صحيح ان بعض الناس يأبى هـــذا التكريم ، ويصر على انه ينتهى الى أصـــول حيوانية ، وان القرد ابوه او جده ، وقد يسلك فى حياته سلوك الخيوان فعلا ، والى هؤلاء واضرابهم ممن كرمهم الله فابوا الا الانحطـــاط ، تشير سورة التين ـــ « **والتين والزيتون وطور ســـينين ، وهـــذا البلد الأمين ، لقد خلقنـــا الانســـان فى أحســـن تقويم ، ثـــم رددناه أســـفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحـــات ، فلهم اجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، اليس الله باحكم الحاكمين ؟ ! »** .

ولعلك تبتسم حين تعرفه ان صحفية اوروبية جاءت الى مصر تجرى تحقيقا صحفيا عن أدبائها ، وحدثها بعض ابناء جنسها فى

---

(١) الآية رقم ٧٠ من سورة الاســراء .

(٢) الآية رقم ١٣ من سورة الجاثية .

(٣) الآية رقم ٢٠ من سورة لقمان .

مصر عن الاديب المعروف ابراهيم عبد القادر المـــازنى ، ولم ينس ان يبين لها أن هـــذا الاديب ينتمى الى أسرة عريقة ، وحين التقت الصحفية المثقفة ثقافة عصرية بالاديب المســـلم ، أوقعتها ثقافتها فى فخ من المفخاخ المخجلة ، فقد بادرت بســـؤاله : علمت انك تنتمى الى اسرة عريقة فى المجد ، فهل يمكن أن نعرف شيئا عن مفاخر أجدادك ؟ واستهان الأديب الكبير بما سمع من سطحية فى التفكير ، فوضـــع احدى رجليه على الأخرى ، واسند ظهره الى وسادة على اريكته ، واصطنع لونا من الجد الصـــارم ، ليشعرها بالخطـــأ الجسيم الذى قادها الى هذا السؤال ، واجابها على الفور : نعم ، انى انتمى الى خير جد فى الوجود . وسألته الفتاة فى دهشـــة :

ومن هو هـــذا الجد ؟ ! فقال لها : انه آدم عليه السلام ، اول انبياء الله فى الأرض .

وخجلت الفتاة التى لم تتعود الخجل

هل عرفت يا صديقى أن اول سبب يدعوك الى الســـعادة والانتعاش ، أنك تنتمى الى من سجدت له الملائكة ، الى نبى اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى ..

ان شجرة الأسرة التى تنتمى اليها قد لا تلتقى مع اى من الأنبياء بعد آدم ، ولعلك تعرف أن كثيرا من الناس يهتم اهتماما شديدا بهذه الأشجار ، لا سيما اذا كانت تصله بأحد الأنبيـــاء ، وله أن يعتز بذلك اذا أراد .. اقصـــد اذا سلك منهجا فى الحياة لا يبعده عن الانتماء السلوكى لأجداده الأكرمين .. ولكنك سوف تعجب كل العجب من رجل انقطع عن اصحابه واعتكف فى منزله عشرين سنة ، ولمـــا سألوه عن سبب هـــذه العزلة الطويلة ؛

اجاب بأنه كان يحقق شجرة اسرته ، وقد استطاع أن يصل بها الى آدم عليه السلام !

وكان التعليق اللائق بهذا البحاثة المثابر : كل هذا الجهد لتثبت انك من بنى آدم ؟؟ !

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

ان ابى وأباك حينما عصى ربه لم يتملكه اليأس ، وانما تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ... وهو يعاملك على هذا الأساس ، يسمح لك ان تقف بين يديه ، تخاطبه ، تسأله ، ترجوه .. تلجأ اليه .. تدعوه .. (الله الصمد) .

هل هناك تكريم اعظم من هذا التكريم ؟ !

من اجلك انت ، ارسل الرسل يبذلون كل جهد ليرشدوك الى طريق السعادة ، ومن اجلك انت انزل الكتب فيها هدى ونور ، ومن اجلك خلق هذا الجمال « **حدائق ذات بهجة** »(٤) ويصف القرآن الكريم فصائل النبات أيضا بالبهجة « **وانبتنا فيها من كل زوج بهيج** »(٥) كما يصف الخيل والبغال والحمير بالنفع والزينة « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون** »(٦) ويصف الأنعام أيضا بالجمال « **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** »(٧) .

ولعل أحد المتشائمين يعترض فيقول ، نعم ، خلق لنا الجمال ، خلق لنا الحدائق البهيجة ، والخيل والبغال والحمير ،

---

(٤) من الآية رقم ٦٠ من سورة النمل .
(٥) من الآية رقم ٧ من سورة ق
(٦) من الآية رقم ٨ من سورة النحل .
(٧) من الآية رقم ٦ من سورة النحل .

خلق لنا هـــذا كله ، وخـــلق ابليس ، وخلق الشرور والمصائب والكوارث الطبيعية والامراض والأوبئة .. وأنت تغمض عينيك من هذا كله ، وتتحدث عن تكريم الله للانســـان .. أين هـــذا التكريم وقد سلط علينا الشياطين تغرينا بالشرور ، وتسوقنا الى الشقاء ؟ الم يكن من التكريم أن يخسف الأرض بهذا الابليس حتى لا تكون له ذرية تنشر الشرور ، وأتباع يرتمون فى أحضان الرذيلة ويدعون اليها ؟ الم يكن من التكريم الا يخلق الجراثيم والميكروبات والافاعى والحيات ؟ . الم يكن ...

وينفعل هـــذا المتشائم المعترض غاضبا على ابليس وذريته وجنوده ، ناسيا انه بذلك يصبح من جنوده ، ولكنى الفته فى هدوء الى حكمة الحكيم فى خلق هـــذه التحديات .. انها لاثارة حماسك وتنشيط جهودك ، وايقاظ مواهبك من رقادها ، ومدها بموجات من الحيوية ، يتبع بعضـها بعضـا ، ويتضافر بعضـها مع بعض ، لدفع هـــذه الشرور ، وتذوق السـعادة عند الانتصـــار عليها ، وتحقيق الهدف الاسمى لخلق الانســان فى تعمير الأرض ، وتحويلها الى جنة وارفة الظلال ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ولمثل هـــذا فليعمل العاملون .. فانظر يا أخى الى ما اســـبغ الله عليك من نعمائه ، ومنها هذه النعمة ، نعمة التحديات ، وقد امدك باسلحة التغلب عليها ..

انظر .. واسعد .. وسبح بحمد ربك ، واعرف قـــدر نفسك ، فانك عبد كريم ، وبهذه العبودية وهـــذا التكريم ، أنت سيد هـــذا الكوكب ..

فهل هنـــاك تكريم بعد هذا التكريم ؟

أجل ، هنـــاك تكريم يضاف الى هذا التكريم ، انه سبحانه جعل حملة العرش من ملائكة السـمـاء الابرار ، يستغفرون لك

ليل نهار ((الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون بل ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنـــا وسعت كل شيء رحمة وعلمـــا ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عـــذاب الجحيم ، ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجـــهم وذرياتهم انك انت العزيـــز الحـــكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم))(٨) .

بل انه سبحانه يصلى علينا مع ملائكته الابرار ، والصلاة من الله رحمـــة ، ومن الملائكة دعاء ((**هو الذى يصـــلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور**))(٩) .

يا للسـعادة . . ملائكة السماء ، ور بـالارض والســـماء ، يصلون علينا ، نحن اذن فى رعايته نعيش ، ونتقلب فى السعادة ، نسعى ونسجد ، ونسبح مع الأطيار فى جو السماء ، مع الافلاك نسبح ، تسبيح الكون كله تشعر به حين تسبح انت ايضـــا ، انك بالعبادة والتسبيح تصبح منسجما مع الكون المسبح بحمد الله ، فاذا عرفت ان السبح هو السعى الدءوب ((**ان لك فى النهـــار سبحا طويـــلا**))(١٠) وان كل الكواكب تســـعى ((**وكل فى فلك يسبحون**))(١١) عرفت صلة السبح بالتسبيح ، وصلة العمـــل بالعبـــادة .

---

(٨) الآيات رقم ٧ ، ٨ ، ٩ من سورة غافر .
(٩) الآية رقم ٤٣ من سورة الاحزاب .
(١٠) الآية رقم ٧ من سورة المزمل .
(١١) الآية رقم ٤٠ من سورة يس .

ان الجبال كانت تسبح مع داود عليه السلام ، والطير ايضا تسبح ((**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم**))(١٢) انكم لا تفقهون تسبيحهم ، ولكنكم بالايمان تنسجمون مع النغم الكوني كله ، حينما تسبحون مع كل شيء ، وتسبحون فى بحار السعادة الايمانية .

(١٢) الآية رقم ٤٤ من سورة الاسراء .

الفصل الثانى

الحمد لله

هل تعرف أقصر طريق الى السعادة ؟

انه طريق الحمد ، أن تحمد الله فى السراء والضراء ، ولذلك يقول الامام ابن تيمية :

(ان فى الدنيا جنة ، من لم يتذوقها لن يدخل جنة الآخرة) ولكن العلماء فى عصر ابن تيمية لم يفهموا عنه ، ولم يعرفوا ماذا يقصـــد بهذه الجنة الدنيوية التى يؤكد أن تذوقها شرط الفوز بالجنة فى الآخرة ، ثم عـــادوا الى الهدوء بعد فورة الغضب ، حينما بين لهم أن الرضـــا هو جنة الدنيا ، يسعد به صاحبه ، وهو فى الوقت نفسه شرط اساسى لرضوان الله عنه ، ومن لم يرض بما قسم الله له ، من لم يعرف قدر النعمة ، فليس اهـــلا لسعادة الدنيا ولا لسعادة الآخرة .

ولكن قل لى بربك ، ماذا يستطيع الساخط ان يفعل ؟ انه سوف يشقى بسخطه ، ثم لا يستطيع شيئا ((**فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ**))(١) بينما يسعد الراضى ويسعى منشرح الصـــدر ، مليئا بالأمل والتفاؤل ، فيزيده الله من نعمائه ((**واذ تأذن ربكم لئن شـــكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد**))(٢) .

---

(١) الآية رقم ١٥ من سورة الحج .
(٢) الآية رقم ٧ من سورة ابراهيم .

ثم تعـــال بعد ذلك ننظر فى معنى النعمة ، ولعلك قد لحظت ان النعمة والنعماء والانعام ونعومة العيش والنعيم ، كلمـــات ترجع الى أصـــل واحد ، وقد عرفت فى الفصل الاول ان النعمة الاولى هى ان الله خلقك انسانا ، ولتعرف هنا ان نعم الله كثيرة لا تحصى « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصـــوها** »(٣) وهـــل يمكن احصـــاء النعم نعلا ؟ ان نعم الله لا تحصى . ومـــاذا تحصى ؟ نعمة المـــاء ام الهواء ، نعمة الغذاء النباتى ام الحيوانى ؟ نعمة العقل او الذاكرة ، بل وفى كثير من الاحيان نعمة النسيان .

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وايام انسى

فكم من ذكريات جميلة يحلو لك تذكرها ، وكم من ذكريـــات اليمة من الخير نسيانها ، ولا يمكن اســتقصـــاء النعم المتمثلة فى وجود الاهل والولد ، والزوج والاخ والصديق ، فى وجود العمل والمجال اللانهائى للنشاط الانسانى .

ونعمة الستر ، يا سبحان الله !

كم تخطىء ويسترك ؟ وكم من عيوب فى الانسان مستورة ، ولولا فضـــل الله ونعمته لكانت مفضوحة منشورة .

غير ان الآفة الخطيرة التى تصيب الناس بشأن النعم ، هى ان كثيرا من النـــاس لا ينكر الا فى النعم الخاصـــة به ، فيما اوتى من مـــال وولد ، فيما اوتى من صحة وعلم ، فيما اوتى من منصب أو جاه ، وقد يراه قليلا فلا يرضى .. لا يرضى عن ربه ولا يرضى عن رزقه ، لا يرضى عن قسمه ، عن حظه فى الحياة ، يسخط نفسه .. يشقيها .. يرديهـــا .. يوردها المهـــالك ، وقليل من الناس من يفكر فى النعم العامـــة ، نعمـــة الشمس

---

(٣) الآية رقم ٣٤ من سورة ابراهيم .

والقمر ، نعمة النهـــار والليل ، والنور والظلام ، والســـموات والأرض ، والنجوم والكواكب .. نعمة البحار والأنهار ، اكثر الناس لا يذكر نعمة المـــاء الا اذا انقطع المـــاء ، حينئذ يذكر ان يديه فى حاجـــة الى ما يغسلهما به ، وان جوفه فى حاجـــة الى ما يطفىء ظمـــاه ، وانه لا يستطيع ان يشرب كوبا من الشاى(٤) .

هذه آفة من الآفـــات التى تصيب الناس بشان النعم ، واخرى ان كثيرا منهم يحـــاول دائما ان يذكر المصائب بدلا من ذكر النعم ، وقد فاته أن المصائب ليست الا فقدان بعض النعم ، فالاعمى انسان مصاب بفقد نعمة البصر ، والمقعد مصـــاب بفقد نعمة القدرة على استخدام رجليه ، والمعدم مصاب بفقد نعمة المـــال ، وهكذا كل مصيبة اصلها نعمة مفقودة ، حتى مصيبـــة الكفر هى فقدان لنعمة الايمـــان ، ومصيبة الموت فقدان لنعمـــة الحيـــاة .

وهذه المصائب المتنوعة يختلف وقعها على الناس ، فمنهم من يشقى بهـــا وقد يكفر ، ومنهم من يشعر بانه ادى ضريبـــة بعض ما استمتع به من نعم ، او كفر عن ذنب يعلمه أو لا يعلمه ، ليعيش بعد ذلك مطهرا من الذنوب ، ومن هؤلاء من كان يسعى بنفسه لاقامة الحد عليه ، ليشعر بانه قد تطهر ، ومنهم من يصبر على ما يصيبه ، وكله امل فى الثواب العظيم « **ولنبلونكم بشىء**

---

(٤) كلمة الشاى ليست كلمة عربية الأصل ، وقد استعملها احمد الشعراء المحدثين (وشربت شايا فى الطريق) وسخر منه ناقد من انصار الشعر العمودى ، فقام الشاعر يدفع عن نفسه فى سخرية لا تقل عن سخرية الناقد ، يؤكد انه يريد ان يقول (شاى) ولا يمكن التعبير عن هذا الشراب الا بهذه الكلمة التى يعرفها الجميع ويستخدمها الجميع ، ثم تساءل : هل تريدنى أن اقول (وشربت كاسنا =

من الخوف والجـــوع ونقص من الأمـــوال والا نفس والثمرات ، وبشر الصـــابرين »(٥) .

والسعداء حقيقة لا تزعجهم المصائب ، ولا نقص الأموال والانفس والثمرات ، لأنهم يعرفون أن ما فقدوه ما هـــو الا جزء مما سبق أن منحهم الله .

حاســـب زمـــانك فى حـــالى تصرفـــه
تجده أعطـــاك اضعاف الذى ســـلبا

ان المؤمن الحق يعرف أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطاه لم يكن ليصيبه .

والالم نفســـه ، الالم الذى يحس به الانسان عندما يغزوه المرض .. نعمـــة ، لأنه ينبه صاحبـــه الى وجود المرض ليبادر بالعـــلاج ، والأمـــراض التى تأتى بدون آلام ، بدون انذار ، ولا يحس بها المريض الا بعد أن تستشرى وتتمـــكن ، أمراض خبيثة وقانا الله شرها وأبعدها عنا وعنك .

ولعلنا نظن أن مصيبة الموت فوق كل مصيبة ، انهـــا سلب للحياة نفسها ، ومع ذلك فان الايمان يجعلك تنظر اليها نظرة تختلف تماما عن نظرة الاشقياء والكافرين .

ان الكافر الذى يعتقد أن الموت هو النهايـــة ، ولا يؤمن بحياة أخرى بعد الموت ، يشتد حزنه ، لأن الموت فى نظره مصيبة كبرى ليس بعدها مصيبة ، انها الفناء الأبدى ، انها النهاية التى

= من شـــراب ساخن) ان ذلك وصف للشاى ولغيره من المشروبات الساخنة ، ولكنى أريد مشروبا بعينه ، أريد الشاى بالذات .

(٥) الآية رقم ١٥٥ من سورة البقرة .

لا قيامة بعدها ، بل انه الى جـــانب ذلك يرى انه معرض لهذا الخطر الداهم ، الذى يفجاه دون حكمة معروفة ، او قياس مطرد فى الموعد او العلامات ، ويعبر عن هؤلاء الاشقياء شـــاعر جاهلى فيقول دون تبصر :

رايت المنايا خبط عشـــواء من تصب
تمتـــه ومن تخطىء يعمـــر فيهـــرم

ان المسكين لا يعرف انها آجـــال محددة ، ولا يؤمن بان بعد الموت حياة يمكن ان تكون اسعد واحلى وارغد ، من اجـــل ذلك يرتعد من ذكر الموت ، ويتصور انه يتربص له بكل سبيل ، ليدهمه بخبطة عشوائية ، فاين هـــذا ممن يؤمن بالحكمة الآلهية للموت والحياة ، ويعتقد أن الله تصرفا وتدبيرا حكيما فى كل شىء وان وراء هذا الموت حياة ابدية سرمدية لا نهاية لها .

خـــلق النـــاس للبقـــــاء فضـــلت
امـــــة يحســـــــبونهم للنفـــــاد

من اجل ذلك ، من اجل ايمان المؤمن بقضـــاء الله ، فانه لا يهتز عند المصـــيبة ، وانمـــا يســـمع صـــوت ايمانه يطمئنـــه **« قل ان يصيبنا الا ما كتب الله لنا »**(٦) .

من أجل ذلك يحمد الله فى السراء وهى ما يسر ، ولا ياخذه الغرور لانه يعلم أن ذلك من عند الله ، أن ذلك اختبار له لعله يشكر ... ويحمد الله فى الضراء ، وهى ما يضر ، لانه يعلم انها اختبار من عند الله لعله يصـــبر ، فيجزيه ربه خير الجـــزاء ، **« انما يوفى الصـــابرون اجرهم بغير حساب »**(٧) انه فى الحالتين

---

(٦) الآية رقم ٥١ من سورة التوبة .
(٧) الآية رقم ١٠ من سورة الزمر .

سعيد ، فى السراء سعيد ، لانه يقابلها بالشكر ، وفى الضراء سعيد ، لانه يقابلها بالصبر « **ان اصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان اصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له** » انه استطاع ان يحول المحنة الى منحة ، ان يحول الفشل الى نجاح ، ان يحول الشقاء الى سعادة ، بفضل الايمان ، وقوة الايمان ، وعمق الايمان ، فانه لا يجزع من المصيبة الا من اتهم فى العدالة ربه .

هما اذن فضيلتان : فضيلة الشكر على السراء ، وفضيلة الصبر على الضراء ، وكثير من الناس يريد أن يفصل تماما بين هاتين الفضيلتين ، فضيلة الشكر وفضيلة الصبر ، لكنك لو امعنت النظر لوجدت منبعهما واحدا ، هو النفس المؤمنة الراضية ، هى فى السراء شاكرة ، وهى فى الضراء صابرة ، وهى فى الحالتين تهتف بكل ما اوتيت من ايمان (الحمد لله) .

صحيح أن بعض النماذج الانسانية العليا كانت شهرتها الشكر ، كانت مثلا اعلى فى مقابلة النعمة بالشكر ، وان بعض النماذج الاخرى كانت شهرتها الصبر ، كانت مثلا اعلى فى مقابلة الاختبار بالصبر ، وقد ضرب القرآن الكريم لذلك مثلين ، واوردهما متجاورين ، ضرب مثلا للشكر سليمان عليه السلام حينما اغدق الله عليه النعم ، وعلمه منطق الطير ، وسخر له الريح والشياطين ، وجاءه الهدهد من سبأ بنبأ يقين ، واراد ان يحضر له جنوده عرش بلقيس ، وقبل أن يرتد اليه طرفه ، رآه مستقرا عنده ، فقال « **هذا من فضل ربى ليبلونى ااشكر ام اكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم** »(٨) .

ونقرأ فى سورة الانبياء طرفا من قصة سليمان عليه السلام « **ولسليمان الريح عاصفة تجرى بامره الى الأرض التى باركنا فيها**

---

(٨) الاية رقم ٤٠ من سورة النمل .

وكنا بكل شيء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عمـــلا دون ذلك وكنا لهم حافظين »(٩) ونقرأ بعدها مبـــاشرة « وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين ، فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر وآتينـــاه اهـــله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين »(١٠) .

لمـــاذا كان هـــذان المثلان متجاورين ؟ لمـــاذا كانت قصـــة ايوب عليه السلام تأتى مباشرة وبدون فاصل عقب قصة سليمان عليه السلام ؟ لمـــاذا نرى هـــذا التجاور فى سورة الأنبيـــاء كما نراه فى سورة (ص) ؟ فنقرأ قوله تعـــالى « **ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب ، قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك انت الوهـــاب ، فسخرنا له الريح تجرى بامره رخـــاء حيث اصاب ، والشياطين كل بنـــاء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد ، وهـــذا عطـــاؤنا ، فامنن او امسك بغير حساب ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ، واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه انى مسنى الشـــيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هـــذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له اهـــله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** »(١١) .

ان الأمر واضح غاية الوضـــوح ، ان سليمان عليه السلام آتاه الله من النعم ما لا يمكن للشـــكر العادى ان يوفيـــه ، ولكن سليمان لأنه نبى صالح وعبد صالح ، لم تطغه النعمة ، انه يعرف أنها من عند الله ، اننا حتى الآن وبكل وســـائل العلم الحـــديث لا نستطيع تحقيق شيء واحد مما كان لسليمان ، وقد كان منحـــة

---

(٩) الايتان رقم ٨١ ، ٨٢ من سورة الانبياء .
(١٠) الايتان رقم ٨٣ ، ٨٤ من سورة الانبياء .
(١١) الآيات من ٣٣ الى ٤٣ من سورة ص .

من عند الله ، هل تستطيع حضـــارة الغرب او الشرق أن تفتح معهدا يعلم الناس لغات الطير ؟ ومن أين ستأتى بالمعلمين ؟ ولكن الله علمها لسليمان (هـــذا عطاؤنا فامن او أمسك بغير حساب) وقد كان سليمان أوضح مثل للشكر ، كما كان أيوب عليه السلام أوضح مثل للصبر ، من أجل ذلك نجد المثلين متجاورين فى سورة الأنبيـــاء ، وفى ســـورة (ص) ، وكلا الفضيلتين ـــ الشـــكر والصبر ـــ تجمعهما الكلمة الشاملة الجامعة (الحمد لله) الحمد لله فى السراء والحمد لله فى الضراء ، والناس يفهمون فى ســـهولة ويسر أن يشعر الانسان بالرضـــا ويهتف بالحمد فى السراء ، ولكنهم لا يدركون بسهولة كيف يشعر الانسان بالرضـــا ويهتف قلبه بالحمد فى الضراء ، والايمان الصـــادق يجعل الأمر فى غاية السهولة واليسر ، فان المؤمن اذا اصابته مصيبة فســـوف يمده الايمان بالفكر الذى يعصمه من الشقاء والحزن والغم ، ســـوف يلجأ الى ايمانه مباشرة فيرى أن المصيبة مهما عظمت فانها فى امر دنيوى ، فى الأموال ، فى الأنفس ، فى الثمرات ، فيحمد الله على انها لم تكن فى دينه ، وحتى لو كانت فى دينه فان باب التوبة مفتوح على مصراعيه ، الا مصيبة الانتحار ، فانها لا تترك فرصـــة بعدها للتوبة ولذلك لا يمكن للمؤمن أن ينتحر ، ان الايمـــان ســـعادة والانتحار لا يكون الا نتيجة لشقاء وهمى أو حقيقى ، لشقاء نابع أصلا من بعد صاحبه عن الايمان ، واحمد الله انى عرفت ذلك فى فجر الشباب ، عرفته فى قريتى ، فقد كنت اثناء العطلة الصيفية أعود من القاهرة لأعيش فى القرية ، وأعمل فى القرية ، كنت اعمل مع اخوتى فى الحقل .. وفى يوم من أيام رمضان ، فى طريق عودتى من الحقل كنت اركب حمارا واسحب جاموســـة وبقرة .. وكان بجانبى عامل زراعى يعمل عند جيران لنا ، وكان يركب جاموسة ليعود بهـــا الى المنزل .. وفى الطريق ســـمعنا الأذان ، ولكننا لا نستطيع أن نسرع المسير لارتباطنا بالمـــاشية البطيئة ، واذا

رجـــل يمر بنا سريعا يركب حمارا فارهـــا ولا يسحب شيئا من الماشية ..

وعند مروره بنا ســـألنا : لمـــاذا تأخرتمـــا وقد غـــربت الشمس ؟ هل معكما شيء تفطران به ؟ قلنا : لا ، ليس معنا شيء ، فأخرج من جيبه أربع تمرات أخذت منها اثنتين واعطيت العامل اثنتين ، وأسرع الرجـــل فى طريقه وتركنا ، اما أنا فكنت أمسح التمرين وآكل .. وأما صديقى الصغير ، ذلك العامل الزراعى ، فقد أكل التمرتين سريعا ، ثم نزل الى الترعة النجارية التى تسير ازاعنا ، وشرب ... ثم أشرق وجهـــه ، وانفرجت اساريره ، وركب الجاموســـة من جديد ، ثم أخذ يغنى وأنـــا أنظـــر الى السعادة الغامرة فى وجهه . ان الدنيا كلها لا تسع فرحته ، فقد أكل تمرتين وشرب من ماء الترعة وأحس كأنه يملك الدنيا كلها ، وكنت سعيدا بما يستطيع الايمان أن يفعله فى النفوس الطيبة ، التى لم تفسدها وساوس الشيطان .

وكانما أراد الله أن تكمل الصـــورة ، فقد وصـــلت البيت ولا يزال العطام أمام أبى وأمى واخوتى ، وأدركت ما أتيح لى منه ، وكان أحد اخوتى يعد أدوات الشـــاى ، وجلسنا حوله قبل أن نخرج للصـــلاة .

وفجـــأة دخل حلاق القرية مسرعا ، وقال فى لهجة مثيرة :
الا تعرفون الخبر ؟
ـــ أى خبر ؟
ـــ لقد انتحر ابن الباشـــا .
ـــ انتحـــر ؟

كانت السرعة والاتفاق فى الرد اثرا طبيعيا للدهشـــة التى تملكتنا جميعا ، بدأ الحلاق يحكى :

لقد كانت قضيته تنظر اليوم امام المجلس الحسبى ، وحذر المجلس الوصى من تبديد التركة بحجة الانفـاق على القاصر ، وحدد له مبلغا لا يتجـاوزه فى الشـهر ، ولمـا علم الغلام بأن الوصى لن يعطيه اكثر من مائتى جنيه فى الشهر(١٢) والا تعرض للاتهام بتبديد مـال القاصر ، ثـار الغـلام ثورة من لحقته اهـانه لا يمكن السكوب عليهـا ، ماذا يصنع بهذا المبلغ التافه ؟ ما الذى حدث فى الدنيا ؟ الا يكفى انه فقد اباه ؟ وكيف يمكن ان يتحكم فيه الوصى ، او يتحكم فيه المجلس الحسبى ؟ كيف يمكن ان يطيق بعد ذلك الحيـادة ؟ !

كان الحلاق يحكى مأساة انتحار ابن الباشا وكانت صـورة الفلاح السعيد بالتمرتين اللتين اكلهما وشرب من الترعة لا تفارق ذهنى ، كانت الموازنة بين هـذين الغلامين ولا تزال ماثلة امامى مؤثرة فى حياتى ، بالغـة اكبر الاثر فى احساسى بالرضـا ، وشعورى بالسعادة فى كل الظروف ، والا ما استطعت ان اكتب لك هـذه الدعوة الى السـعادة ، كيف ادعوك الى السـعادة وانا غير سعيد ؟ قد خسرت اذن وضللت طريقى ، قد كذبت اذن وخدعت اخـوانى .

ان المدد الايمانى يجعلك تنظر الى كل مصيبة مهما عظمت على انها كان يمكن ان تكون اعظم واخطر ، فتحمد الله على تخفيفه لها ورحمته بك .

والآن وقد عرفت ان نعم الله كثيرة لا تحصى ، واننا ينبغى ان نتنبه اليها ، والا يكون كل همنا ان نذكر المصائب ، اذا كنت قد عرفت ذلك فاعلم ان كل ما بك من نعمة فهو من عند الله ،

---

(١٢) مائتا جنيه منذ اكثر من اربعين عاما كانت قيمتها الشـرائية تزيد عن الفى جنيه فى هذه الايام وكان القاصر لا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية .

لا من عند نفســـك ، لا من مهـــارتك وذكائك وعلمك ونشاطك ، وهل مهارتك وذكاؤك وعلمك ونشاطك وتوفيقك الا بعض نعم الله عليك ؟ انها أيضا من عند الله .

وهنا تقفز الى الفكر آية كريمـــة تسيطر على الموقف كله **((وما بكم من نعمة فمن الله))**(١٣) .

وثالثة لابد من التنبيـــه اليها : فـــاذا كنت قد عرفت ان نعم الله لا تحصى ، وان كل ما بك من نعمـــة فهو من عند الله فأعـــرف أن أجـــل نعمـــة وأعظـــم نعمـــة أنعمهـــا الله عـــلى الانســـان هى هدايتـــه الى الاســـلام : **((يمنون عليـــك ان أســـلموا ، قـــل لا تمنوا على اســـلامكم بل الله يمن عليـــكم ان هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين))**(١٤) ولذلك قلنا فى أول المقدمة (الحمـــد لله رب العـــالمين ، والصـــلاة والســـلام على أسـعد خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى اله وصحبه والتابعين ، اللهم اجعلنا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين) فلم يكن عليه الصلاة والســـلام أسعد خلق الله الا لانه أعظم خـــلق الله ،سلاما ، لقد كان صاحب النصيب الأوفى من أعظم النعم ، نعمة الاسلام ، ولعلك تعلم ان أحد الكتاب الأمريكيين(١٥) قد اختـــار من عظماء الدنيا فى الشرق والغرب ، فى القديم والحديث مائة من الأنبياء والعلماء والقادة والمصلحين ، ثم فرضت الحقيقـــة المضيئة نفسها فكان محمد صلى الله عليه وســـلم أعظم هؤلاء العظماء ، لانه كان أعظم خلق الله اسلاما ، فشرح الله له صدره ، فكان أسعد خلق الله ، وكان أعظم خلق الله .

---

(١٣) الآية رقم ٥٣ من سورة النحل .

(١٤) الآية رقم ١٧ من سورة الحجرات .

(١٥) هو الكاتب الأمريكى وليم هارت .

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

اننا فى طريق السعادة نمضى ، ومن خير الى خير ننتقل ، فان نعم الله بالنسبة للمؤمن لا مقطوعة ولا ممنوعة ، انها دائمة لا تنقطع ، وهى متاحة لا تمتنع ، بشرط أن تكون مسلما حقا ، فان العلم نفسه ، وهو الذى يتخذه بعض الملحدين المحدثين آلها من دون الله ، لأنه فى زعمهم يحقق لهم ما تصبو اليه النفوس من متاع ، حتى هذا العلم نفسه مرتبط بالاسلام ، اذا فهمنا الاسلام فهما صحيحا ، واذا استخدمنا العلم استخداما انسانيا ، وارجوك أن تفكر معى فى قول سليمان عليه السلام **« وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين »**(١٦) فكر فى ارتباط العلم فى أوسع مجالاته بالاسلام فى أوسع معانيه ، فكر وحينئذ سيهتف قلبك قبل أن ينطق لسانك « الحمد لله » فكر وحينئذ سوف تعرف أن الحمد هو روح العبادة ، لأن العبادة تعبير بلغة الخشوع عن شكر الخلق للخالق .

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا »(١٧) .

والحمد هنا على نعمة القرآن ، ومعروف أن القرآن يبدأ بسورة تسمى « الفاتحة » وتسمى سورة « الحمد لله » « أم الكتاب » « وأم القرآن » وأن هذه السورة تبدأ بالحمد ، بعد البسملة مباشرة تبدأ السورة بالحمد **« الحمد لله رب العالمين »** وهو سر من الأسرار العظيمة التى ينبغى أن تتجه اليها تأملاتك ، أن يبدأ القرآن الكريم كله بسورة الحمد لله ، وأن يقرأ كل مسلم

---

(١٦) الآية رقم ٤٢ من سورة النمل .

(١٧) أول سورة الكهف .

وكل مسلمة هـذه السورة مرات عديدة فى اليوم ، يقرأهـا فى صلواته كل يوم ، فى كل ركعة ، فلا صـلاة الا بأم الكتاب ، واياك أن تظن ان الحمد مجرد لفظ يقال باللسان ، انه شعور داخـلى قبل أن يكون لفظا ، شعور بما أفاض الله من نعم ، شـعور يتمكن من الانسـان فيخفق منه القلب ، وتغمره السـعادة ، وينتعش ايمانه ، لينطلق بعد ذلك لسانه (الحمد لله) .

فالحمد اذن مرتبط بالرضـا ، بل نابع منه ، وقد يوسوس لك شيطانك ، ومن أنا حتى أرضى عن ربى ؟ ! ان المفروض أن أطلب رضاه ، فاذا سمعت هـذا الوسواس فأعلم انه يريد أن يستزلك ، لأن الله لا يرضى عن عبد ساخط على نصيبه ، على قسمه ، على ما أنعم به عليه ، انه سبحانه يريدك أن ترضى ، وهـذا أيضا من التكريم الذى كرم به بنى آدم ، يغدق عليهم من نعمه ، ثم يطلب رضـاهم ، فاذا لم يرضوا ، اذا بدلوا نعمـة الله كفرا ، اذا انقلبت النعم فى أيديهم الى نقم ، فقد جلبوا لأنفسهم الشقاء ، ولقومهم البوار **((ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار))**(١٨) ومن هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا قارون ، لقد ظن السـعادة فى موكبه الفاخر وثرائه العريض **((فخرج على قومه فى زينته))**(١٩)

وأغرى الناس بهذا اللون من السعادة الشكلية حتى أخذوا يرددون **((يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، انه لذو حظ عظيم))**(٢٠) فلما خسف الله به وبداره الأرض ، أفاق هؤلاء الذين تمنوا مكانه بالأمس ، افاقوا من غفلتهم ، وبدأت ألسنتهم تلهج بالحمد ، تعرفه الحمد على أى شىء ؟ على أن الله من عليهم ، فلم يستجب لرغباتهم

---

(١٨) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة ابراهيم .
(١٩ ، (٢٠) الآية رقم ٧٩ من سورة القصص .

الطائشة ، ولم يجعلهم مثل قارون « **لولا ان من الله علينا لخسف بنا** »(٢١) اى لاستجاب لنا وجعلنا مثل قارون ثم خسف بنا « **وى كأنه لا يفلح الكافرون** »(٢٢) .

ان تقديرك للنعمة يملأ قلبك ايمانا ونفسك رضا ، وحياتك سعادة ، فليس هناك طريق أقرب الى رضوان الله من الرضا عن الله .. ثم يرضى الله عنك ، وهل تعرف معنى يرضى الله عنك .. ؟ ان معناها انك وصلت ، الى قمة السعادة وصلت ، لأن الله اذا رضى عن عبد تجاوز عن سيئاته ، بل وصرف عنه السوء ، وضاعف من حسناته . ولأن الله لا يدخل من عباده جنة الدنيا ولا جنة الآخرة الا من رضى عنهم ورضوا عنه ، رضوان الله هو السعادة الكبرى والفوز العظيم ، لأن رضوان الله يفتح لك أبواب الخير جميعا ، فلا يوصد منها فى وجهك باب ، أى باب ..

كيف لا ترضى اذن ؟ كيف وأنت تسمع صوت العناية فى غاية الوضوح يناديك « **ولسوف يعطيك ربك فترضى** »(٢٣) لقد كان هذا النداء لنبيك صلى الله عليه وسلم ، وما دمت قد أتبعته واقتديت به ، فأنت معه ، ومع السعداء « **ولسوف يعطيك ربك فترضى** » .

أيها الذى يمد عينيه الى ما أنعم الله به على غيره ، فانه يجلب الشقاء لنفسه ، مخالفا بذلك الى ما نهى الله عنه « **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** »(٢٤) وذلك هو الشقاء الذى لا ينتهى ، لأن نعم الله على خلقه لا تنتهى .

ولتقرأ معى قصة تلك البدوية التى رآها الاصمعى فى

---

(٢١) ، (٢٢) الآية رقم ٨٢ من سورة القصص .

(٢٣) الآية رقم ٥ من سورة الضحى .

احدى جولاته ، وقد كان شغوفا بدراسة اللغة فى مصادرها النقية ، فكان يلقى البدو ، ويتحدث اليهم ، ويحاول دائما أن يسأل ويناقش ، ثم يروى ما رأى من أحداث ، وما صادف من طرائف ، وما سمع من فكر ، وما جمع من لغة ، وقد بهره فى احدى جولاته جمال امرأة رائعة الحسن ، كانت كما يقول الشاعر .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها
حتى يعود اليها الطرف مشتاقا

وأدهش الاصمعى أن يرى زوجها شديد القبح ، ومع ذلك فانها لا تمد عينيها الى غيره ، فانتهز الاصمعى فرصة لا يسمعه فيها الزوج وسألها : أترضين لنفسك هذا الزوج ؟ !

فأنكرت أن يسأل رجل مثل الاصمعى هذا السؤال ، وقالت له : (لقد اسأت بسؤالك) ولكنها مع ذلك اجابته فى ثقة اخجلت ذكاءه (وما يدريك ؟ لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أفلا أرضى بما رضيه الله تعالى ؟) .

ولم يستطيع الاصمعى أن يجيب ، فقد ردته البدوية الى المعنى الحقيقى للايمان ، فوجد نفسه يقول فى اجلال واكبار « سبحان الله ... هذا هو الاسلام » .

---

(٢٤) الآية رقم ٣٢ من سورة النساء .

الفصل الثالث

قرة العين

العبادات فى جوهرها طاعة لله نابعة من حبه ، وفى غايتها تعبير عن شكره واعتراف بفضله ، وفى حكمتها احياء للقلب وتهذيب للنفس وتطهير للروح . وهى بهذا وسيلة من وسائل الترويح عن النفس واشباع العاطفة ، وباب من ابواب السعادة التى تملأ قلب المؤمن ، حينما يشعر أنه على صلة وثيقة بالله ، وانه يسمو ويسمو ويرتفع حتى يجد سعادته كلها فى رضوان الله .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قدوة لكل مؤمن ، كان يجد قرة عينه فى الصلاة ، وكان يقول (ارحنا بها يا بلال) وواجبك نحو نفسك أن ترتقى بها لتجد سعادتها فى هذه العبادة النبيلة ، وان تحميها من الهبوط الذى يجعلها تتوهم السعادة فيما حرم الله . ومعروف أنه سبحانه لا يحرم على الناس شيئا من الطيبات ، انه لا يحرم الا الخبائث ، لا يحرم الا ما يضر ، لا يحرم الا ما هو رجس من عمل الشيطان ، فاذا رأيت انسانا يرتاح الى الخبائث ، الى احاديث الغيبة والنميمة والدسائس ، ويستمع الى الأكاذيب على انها أحلى نغم ، أو ينضم بنفسه الى قافلة أولئك المفسدين ، فأعلم انه منحرف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، انه يسعد بأمور لا يرتاح اليها الوجدان السوى ، وينفر منها كل من كان له قلب طبيعى .

انك لن تجد انسانا سويا يرتاح الى المآثم ، ويسعد بالتورط فى المحارم ، فاذا كانت الصلاة تطهيرا للنفس والبدن والثوب والمكان ، وترقية للمشاعر ، وصلة بالخالق الرازق الكريم ، فان الزكاة كذلك ، تجعل صاحبها فى غاية السعادة : انه

سعيد .. فقد مكنه الله أن يعطى ، لقد طهره من الشح والبخل واعطاه ما يسعد به الناس . أى فوز يحظى به المزكى ، وأية سعادة يشعر بها المعطى ؟ ولعل هذه المعانى هى بعض ما كان يحسه ذلك الانسان العظيم(١) الذى كان يهش لمن يأخذ منه الصدقة ، ويفرح به ، ويقول له (أهلا بمن يحمل عنى زادى الى الآخرة) .

ولعلك تحس من كلماته ان صدقته اثمرت فى الدنيا قبل الآخرة ، اثمرت تلك الفرحة التى يشعر بها وهو يقدم صدقته ..

أما الصوم فقد تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين صلته بالسعادة ، فى حديث صحيح صريح يؤكد ان عاقبة الصوم فرحتان ، فرحة فى الدنيا وفرحة فى الآخرة ، وفى نص الحديث ما يوضح أن العبادة باب من ابواب السعادة فى الدنيا قبل الآخرة (للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه) وهذا كله فضلا عما يثمره الصوم من قوة فى العزيمة تجعل الصائم أقوى من كل عوامل الشر ، تجعله ينتصر على كل الشياطين ، وهذا ما نفهمه من واقع ما نراه ، ومن حديث رسول الله عن وضع الشياطين فى رمضان : انها أمام الصائم مكبلة مسلسلة مشلولة مغلولة ، بينما نجدها حرة طليقة ، فعولة مؤثرة فى غير الصائم ، تعبث به .. تغريه بالانصراف عن العبادة وتحبب ، اليه الخبائث .

فكيف نرى هذه الشياطين مشلولة مغلولة بالنسبة للصائمين الصادقين فى عبادتهم . بينما هى طليقة مؤثرة فى غير الصائمين ؟ ان ذلك يؤكد أن الصائمين بصيامهم وصلاتهم ، وعبادتهم وقوة ايمانهم ، تغلبوا على هذه الشياطين .

---

(١) الامام على زين العابدين رضى الله عنه .

واما الحج فهو متعة روحية لا يعرفها الا من ذاقها ، ويروى ان رجلا من الصالحين رآى فتـــاة تلبس ملابس الاحرام تمشى مسرعة فى بغداد ، ولم تكن من اهـــل بغداد فســـألها الشيخ : من أين يا جاريـــه ؟ قـــالت من أصفهان .. من بـــلاد الشرق البعيـــدة .... قـــال لها .. والى أين ؟ قالت الى بيت الله الحـــرام ...

قال الشيخ : أتحجين ماشية ؟ قالت نعم .. قال ان الطريق طويل ، انه بعيد ، قالت ..

بعيد على الكســـلان أو ذى ملا لة
ولكن عـــلى المشـــتاق غير بعيـــد

أفئدة الناس تهوى الى تلك البقاع ، أفئدة المؤمنين والمؤمنات من كل فج عميق . الروح تنتعش فى الطـــواف والســـعى ، فى الوقوف بعرفات ، والافاضـــة الى منى ، ورمى الجمـــار ... ثم طواف الوداع والدعاء ... الدعاء الصاعد من القلوب المؤمنة . **« انمـــا يتقبل الله من المتقين »**(٢) .

ثم تصـــور تلك المرأة تتعلق بأســـتار الكعبة ، وتدعو فى صدق واخلاص : (يا رب ، بحق حبك لى تقبل منى) وسمعها رجل لا يدرى معنى الحب ، فقال فى عجب : كيف تدعين حبه لك ؟ من أين عرفت انه يحبك ؟

فقالت له : اليك عنى ، لولا انـــه يحبنى ما دعـــانى الى بيته ، هل تدعو الى بيتك الا من تحب ؟ !

العبادات كلها تفتح أمامك صفحة الكون الفسيح ، لترى من آيات الله ما يملأ القلب نـورا والنفس حبورا والحيـــاة بهجـــة ،

---

(٢) الآية رقم ٢٧ من سورة المائدة .

ان المؤمن يحس انه منسجم مع الكون بالعبـــادة ، الكون كله يسبح بحمد الله ، فلم يشد الانسان ؟ لم لا يكون نغما متسقا مع غيره من الانغام فى أفراح الحياة ليسعد .. وينشر السعادة من حـــوله ...

فالعبادات نعمة ، انها تفتح أبواب السعادة ، ســـعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومن حرم نفسه من هـــذه النعمة عرضها للشقاء الطويل ، ثم للانهيار المروع ...

ولا أســتطيع أن أنسى ما حدث للدكتور العميد ، عميد كلية الآداب فى سراييقو عاصمة البوسنة والهرسك اليوغسلافية .. لقد انضـــم الى الحزب الشـــيوعى ، وكان يقال انه لولا ذلك لمـــا كان عميدا ، ومرضت أمـــه المسلمة .. وكانت وصيتهـــا الوحيدة أن يصلى عليها فى مسجد غازى خسرويك ، ورأيت عددا كبيرا من المسلمين يشيعونها .. ومن بينهم ابنها الدكتور العميد ، وعند باب المسجد رأيته يقف حزينا ، وظننته حزينا لموت امـــه ، ولكن أصدقائى نبهونى الى شىء آخر .. انه حزين لأنه لا يستطيع أن يدخل المسجد ، لا يستطيع أن يشترك فى الصـــلاة على أمـــه ، لا تزال فى نفسه بقية من ايمان ، الايمان كامن فى داخله .. ولكن عضويته فى الحزب الشيوعى تمنعه من دخول المسجد ، ولو دخل لكتب زملاؤه فى الحزب انه غير ملتزم ، ولفقد عضـــويته ... وفقد وظيفته ...

وكاد العميد ينهار .. اعصابه لم تتحمل هـــذا الحرمان .. ماتت أمه فصحا ايمانه ...

وبعد أيام كان العميد المعزول أحد رواد المسجد .

أما هذا فقد نجا بنفسه ، وأما ما حدث للواء حسن فكان عكس ذلك تماما .. لقد انهار .. لم يتمكن من التوبة .. كان

اللواء حسن يسكن فى الشارع الذى يسكن فيه الأستاذ بسيم ، أحد العلماء اليوغسلاف الكبار ، وخرج اللواء ذات صباح .. انه بالنسبة له ذات صباح .. انه لا يعنى شيئا ولذلك فهو يخرج الى عمله كعادته كل يوم .. ولكن هذا الصباح بالنسبة للأستاذ بسيم كان يعنى الكثير ، انه صباح يوم العيد ، عيد الأضحى المبارك .. ولذلك نراه عند باب بيته يذبح الأضحية ليأكل مع أهل بيته منها الثلث ، وليوزع الثلث الآخر على الفقراء ، ويهدى الثلث الأخير لأصدقائه وأحبابه .. ويرى اللواء هذا المنظر فيزور عنه ، وتعبس أساريره ، وينصرف دون ان يلقى تحية الصباح على جاره ، أو يقول كلمة تهنئة له بالعيد ... وكيف يلقى تحية الصباح أو يقول كلمة تهنئة لهذا الأستاذ الذى لا يزال مستمسكا بتقليده القديم ، رغم علمه الغزير وثقافته الواسعة ؟ ؟

لقد أسرع اللواء فى خطواته ، ومر غاضبا غاية الغضب ، كأنه رأى من جاره منكرا لا ينبغى التورط فيه ..

ولكن الزمن عامل أساسى فى حياة الناس .. وارجو أن ترقب معى ما أحدثه الزمن بين بسيم وحسن ، فقد مر هذا اللواء بعد سنة كاملة بجاره الأستاذ بسيم وهو يذبح الأضحية من جديد .. فلم يزور عنه ، ولم ترتسم علامات الغضب على وجهه ، ولكنه مع ذلك لم يلق عليه تحية الصباح ، ولم يقل كلمة تهنئة بالعيد ...

وفى العام الثانى مر اللواء بجاره الأستاذ وهو يذبح الأضحية .. فلم يزور عنه ، ولم ينصرف غاضبا ، وانما ابتسم له ، والقى عليه تحية الصباح ، وقال فى صوت هادىء حزين : (بيرم مبارك أولسن) وهى عبارة تركية الأصل ،

يتبادلها المسلمون اليوغسلاف للتهنئة بالعيد ، ومعناها عيد مبارك ، أو عيد سعيد .

وفى العام الثالث يا صديقى .. انهار السيد اللواء ، ودخل على جاره يحتضنه ويبكى ، وينظر اليه نظرة الجانى الى ملاك الرحمة ، يهنئه بالعيد ، وبالشجاعة ، والحرية ، والسعادة التى تغمر حياته ، انه يعبد الله حرا ، ويستقبل العيد سعيدا ، لأنه ليس عضوا فى الحزب .. لأنه رفض الاغلال ، لأنه لم يقبل أن يكون عبدا الا لله ... ونظر الى جاره الأستاذ بسيم ، بعينين ملؤهما الدمع الغزيرة .. ثم سأله : هل أستطيع أن أفعل مثلك ؟ فاشرق الوجه البسيم وقال لجاره الحزين : ولم لا ؟ وارتفع صوت اللواء بالبكاء من جديد ، ونفث نفثة مهموم ، وقال فى حسرة وندم : لا يا أستاذ .. اننى لا استطيع ، لقد وصلت الى رتبة اللواء .. لا أستطيع .. واستمر فى البكاء ، ثم انهار اللواء ...

العبادات نعمة ، فلا تحرم نفسك منها ... ان الله الذى فرض العبادات لم يفرضها لحاجته اليها .. سبحانه هو الغنى ، وأنما فرضها علينا اصلاحا لأنفسنا ليفتح ، بها أبواب الخير فى الدنيا .. وأبواب النعيم فى الآخرة ((**ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين**))(٣) ومما لاشك فيه ان الجهاد هنا يشمل كل انواع الجهاد ، جهاد النفس والشيطان ، وجهاد الكسل والخذلان ، وجهاد كل أعداء الانسان ، لمقاومة الفساد والانحراف ، وللمحافظة على الفطرة السليمة ، وأداء الفرائض ، وسلوك الطريق الصحيح المؤدى لسعادة الدنيا والآخرة ، ولعل هذا هو السر فى ان كثيرا من الآيات الكريمة التى تتضمن الامر

---

(٣) الآية رقم ٦ من سورة العنكبوت .

بالعبادة ، تختم بقوله تعالى ((.. **لعلكم تفلحون**)) والفلاح هو سعادة الدنيا والآخرة ...

ولا اقصـــد بالعبادات ما فرض منها فحسب ، وانما هناك عبادات أخرى يسميها العلمـــاء بالنوافل ، وهـــذه ليست لها حدود .. فكلما أحسست بالضيق يحاول الاقتراب منـك .. مجرد الاقتراب .. توضـــأ ، فسوف تساقط الهموم فى قطرات المـــاء ، ثم قف بين يدى الله ، الجـــأ اليه ، استغرق فى مناجاته ... تختفى كل الهموم ...

ان الصـــلاة على شدة الزمـــان معينة

وكثير من النـــاس تأتيهم الهموم من باب الفراغ .. انهم لا يجدون ما يفعلونه ، ومن هـــذا الباب يدخل الشـــيطان ، ويجر وراءه كل أسباب الشقاء ....

وفى آذان هؤلاء تهمس كلماتى : هـــل جربت أن تملأ وقت فراغك بالعبادة ؟ بالقراءة النافعة فى كتب مطهرة ؟ هل جربت أن تشغل نفسك بالحـــق قبل أن تشغلك بالباطل ؟ املأ فراغهـــا بعمل الخير ، فالمؤمن الحق يســـعد سعادة لا حد لها حين يفعل الخير ، وهـــذا ما يطلق عليه العلماء كلمة « الأريحية » ومن كانت عنده أريحيـــة ، ارتاحت نفسه لعمل الخير ، انه يشـــعر بالسعادة ، بالنشوة ، بالانتصار ... لأنه تمكن من عمل الخير .

والعبادات كلها مناهج وضعها الحكيم الخبير لتربية النفوس على حب الخير ، وعمل الخير . فمن أدى العبادات اداء صادقا ، صلحت نفسه وصلحت حياته ، واثمرت عباداته حبا للخير وشعورا بالفوز ، وتقلبا دائمـــا فى جوانب النعيم . فاذا نظرت الى كثير من المصلين الذين لا تسعدهم صـــلاتهم ، ولا يجدون فيها قرة

عين ، والى اخـــوانهم الذين يزكون ولا تطهرهم الزكاة ، والى اضرابهم من الصـــائمين الذين ليس لهم من صيامهم الا الجوع والعطش ، والحجاج الذين يعودون من حجهم وقد زادوا غشا فى التجـــارة ، وفسادا فى الاخلاق ، فأعلم انهم لم يصـــاوا فى الحقيقة ولم يزكوا ، لم يصـــوموا ايمانا واحتسابا ولم يحجوا ، لانهم لم يكونوا صادقين فى عبادتهم ولا محسنين فى ادائهم ، وانت تعرف ما هو الاحسان ، أن تحسن العبادة والعمل (ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه ، فانـــه يراك) ويروى عن أحـــد الســـعداء ، انه اراد ان يختبر وعى أبنائـــه ، ومدى انتفاعهم بما تعلموه .. فأعطى كل واحد منهم سكينا واعطـــاه طائـــرا يذبحه ، وقال لهم يا أبنائى ، ليذهب كل منكم الى مكان لا يراه فيه أحد ، وليذبح الطائر هنـــاك ، ثم يعود الى ...

وذهب الأبناء ، ومع كل منهم سكين وطائر ، وتفرقوا .. ليبحث كل منهم عن مكان لا يراه فيه أحد .. ثم عادوا وقد ذبح كل منهم طائره كمـــا أوصـــاه أبوه ، ولكن واحدا منهم عـــاد ولم يذبح ... وسأله أبوه : لمـــاذا لم تذبح الطائر كما فعل اخوتك ؟ فاعتذر الغلام بأنه لم يجد مكانا لا يراه فيه أحد . فقال له أبوه : وكيف استطاع اخوتك أن يفعلوا ؟ فقال الغلام (لا أدرى ، ولكنى كلما اتجهت الى مكان أرى عين الله ترقبنى) ..

وقبله أبوه لأنه الناجح الوحيد بين اخوته ...

واذا كنا قد فهمنا العبادة على انها ليست مقصـــورة على العبادات المفروضـــة التى تجدها موضحة فى كتب الفقه ، بل على انها تشـــمل العمل ، كل العمل الصالح ، فلنتنبه الى عبادة أخرى لا تذكر فى باب العبادات ، ولكن رسول الله صلى الله عليه

وسلم .. يصف صاحبها بأنه أعبد الناس ، فاستمع اليه يقول في وضوح شديد « **اتق المحـــارم تكن أعبد الناس** » وطبيعي أنك ان كنت تعبد الله كأنك تراه ، فسوف يكون اتقاء المحارم عنصرا اساسيا في عبادتك ، وبذلك تتجنب كل أســـباب الشقاء ، وتصل الى قمـــة السعادة ، سعادة الدنيـــا وسعادة الآخرة « **ولمن خـــاف مقام ربه جنتـــان** »(٤) .

والآن أسألك : ما رأيك فيمن فسر الجنتين في هـــذه الآية الكريمة بأنهما جنـــة الدنيا وجنـــة الآخرة ؟ أما أنا فأقبل هـــذا التفســـير .

فالى جنـــة الدنيا نتبوأ من الأرض حيث نشاء ، وننهل من السعادة أصفاها وأحلاها ثم نلتقي بعد ذلك هناك ان شاء الله .

« **في جنـــات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر** »(٥) .

---

(٤) الآية رقم ٤٦ من سورة الرحمن .

(٥) الآيتان الأخيرتان من سورة القمر .

الفصـــل الرابـــع

التيســـــير

اليسر هو السهولة والسماحة والبعد عن التعقيد واثـــارة المشكلات ، والله يريد للناس السعادة ويدعوهم الى انتهاج طريقها والابتعاد عن كل ما يؤدى بهم الى الشقاء او الى تعقيد الأمور فى الحياة « **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر** »(١) واذا كنت من السعداء وقرأت القرآن الكريم ، فانك ستجد هـــذا الأمر واضحا غاية الوضـــوح ، ستجده يدعوك الى السعادة بكل ابعادها ، ويأخـــذ بيدك بعيدا عن التعاســـة والبؤس والشقاء

« **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** »(٢) .

وهو حين يدعونا الى أمر ، انما يدعونا باسم الرحمـــة ، رحمة الله الواسعة ، فلا يكلفنا بما يرهقنا أبدا « **لايكلف الله نفسا الا وسعها** »(٣) وحتى حين يدعونا الى الخير ، الى التقوى ، فانـــه يدعـــونا الى ذلـــك بقـــدر الاســـتطاعه « **فاتقـــوا الله ما استطعتم** »(٤) .

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بنفسه فى حياته العملية ، فما خير بين امرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن

---

(١) الآية رقم ١٨٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية رقم ٧٨ من سورة الحج
(٣) الآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٤) الآية رقم ١٧ من سورة التغابن .

اثما ، فان كان اثما كان ابعد الناس عنه ، وكان يقول لنا وللناس « **خير دينكم ايسره** » ولكل من يحـــاول الغلو فى دينه يقول عليه الصلاة والسلام (ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا ارضا قطع ، ولا ظهرا ابقى) ومن القصص المعروفة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه عائشة رضى الله عنها تلك الواقعة التى ترويها عائشة بنفسها فتقول :

(سمعت اصوات اناس من الحبشـــة وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال رسول الله لى : اتحبين ان ترى لعبهم ؟ فقلت نعم ، فارسل اليهم فجاءوا ، وقام بين عضادتى الباب ، فوضـــع كفه على الباب ، ومد يده ، ووضعت ذقنى على يده ، وجعلوا يلعبون وانا انظر ، واخذ الرسول يقول : حسبك ، فأقـــول : اسكت ، وبعد المرة الثالثة التى قال لى فيها ، حسبك يا عائشة ، قلت نعم ، فأشار اليهم بالانصراف) .

هذا ما قالته عائشة ، اما تعليق رسول الله صلى الله عليه وسلم على هـــذه الواقعة فكان قوله (ليعلم اليهود ان فى ديننـــا فسحة) .

ومن ابرز آيات التيسير فى العبادات قوله صلى الله عليـــه وسلم لمن يؤم الناس فى الصـــلاة :

(اذا ام احدكم الناس فليخفف ، فان فيهم الصغير والكبير والضعيف وذا الحاجة) .

هـــذا هو الاســـلام فى ســـماحته وبســـاطته تيســـير فى كل امـــر ، وتبشـــير بكل خـــير ، واباحـــة لكل الطيبـــات ، وتحـــذير من كل الخبـــائث ، فالاصـــل فى الاشـــياء الاباحـــة

الا ما ورد نص بتحريمـــه ، والتحريم لا يكون الا لمـــا يضر ، وتحريمه لصالحك ، فاذا كانت هنـــاك ضرورة تصـــوى أبيح المحظور ، فالضرورات تبيح المحظورات ، ولكن تقدر الضرورة بقدرها ، أى ان المحظور يباح للضرورة بقدر ما ينقذ الحيـــاة ، ولا تستمر الاباحة وقد انتهت الضرورة ، ومن السهل أن تعرف كل هـــذا انطلاقا من قاعدة واضحة ، هى أن الهدف هو صالح الانسان وسعادة الانسان ، وليس من صالح الانسان التسيب ، وليس من صالح الانسان التزمت والتشدد ، وسوف تجد فى نهاية هذا الباب فصلا خاصا عن التوازن ، تعرف منه ان الاعتدال هو العدل (فلا تميلوا كل الميل) ولمـــا كان الاســـلام دين الفطرة ، فانه لذلك يصور السلوك الخير ، على انه هو السلوك الطبيعى ، هو السلوك الميسر للانسان بطبيعته ، اما السلوك الشرير ، فانه افتعال ، وليس طبيعيا ، ولذلك يسميه اكتسابا ، اى أن الانحراف عن الفطرة يحتـــاج الى جهد ومشقة ، بينما يســـمى فعل الخير كسبا ، لأنه ميسر للانسان بفطرته فيقول سبحانه ((**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**))(٥) ومعروف أن الفعل غير الافتعال الذى يحتاج الى معالجة كما يقول علماء اللغة ، ولمـــا كان الاســـلام دين الفطرة كذلك ، فانه يرفع الحرج عن المخطىء ، لأن المشرع الحكيم ، وهو الذى خـــلق الانســـان ويعلم عنه كل شىء ، يريد بالناس اليسر ، ومن اليسر أن ترفع الحرج عن المخطىء ، لأن الخطـــأ طبيعة البشر (كل بنى آدم خطاء) .

من أجل ذلك ، ومن أجل التيســـ على الناس نقرأ فى القرآن الكريم ((**فليس عليكم جنـــاح فيما اخطـــأتم به ، ولكن ما تعمدت قـــاوبكم**))(٦) .

---

(٥) الآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية رقم ٥ من سورة الأحزاب .

ويقول عليه الصـــلاة والســـلام (رفع عن امتى الخطـــا والنسيان وما استكرهوا عليه) ولذلك علمنا رب العزة ان ندعو **« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا »**(٧) .

تيسير في المعاملات ، وتيسير فى العبادات ، وفوز عظيم ، ورحمـــة من الله لمن كان سمحا اذا باع ، سمحا اذا اشـــترى ، سمحا اذا اقتضى ، كل هـــذا التيسير لسعادة الانسان ، ولابعاد شبح الشقاء بقدر الامكان ، ومما لاشك فيه ، أن اليسر فى الحياة هدف ، وانه رغيبة يحرص الانســـان عليها ويرجوهـــا . وفى القرآن الكريم نقرأ دعـــاء موسى عليه الســـلام **« رب اشرح لى صدرى ويسر لى امرى »**(٨) والمسلم اذا هم بأمر ذى بال مهد له بطلب التيسير من الله (اللهم انى نويت الحج فيسره لى ، وتقبله منى) .

ومن التيسير المرونة وعدم الجمود ، وهل يمكن لدين الفطرة الا أن يعترف بالتطور ، وينأى عن الجمود ؟ ان هذه هى الفطرة ، حركة دائبة وتطور مستمر ، وتواؤم مع الظروف واللابســـات ، واحتفاظ مع ذلك بالاطار العام والقواعد الثابتة ، والنجـــاح كله فى حفظ التوازن حتى لا يجرفك تيار المرونة والتطور ، ولا يشلك عن الحركة الجمود والتحجر ، ولعل فى تنبيه الرســـول الكريم للآباء بأن أولادهم خلقوا لزمان غير زمانهم ، ما يوضـــح هـــذه المرونة ، وذلك الى جانب قوله صلى الله عليه وسلم (النـــاس بأزمانهم اشبه منهم بآبائهم) .

---

(٧) الآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة

(٨) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة طة

ولا اظننى فى حاجة الى الاسهاب فى بيان يسر الاسلام ، فقد اصبحت كلمة (الدين يسر) من اكثر الكلمات انتشارا بين المسلمين وترادادا على السنتهم ، ولكن ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ وما مصدر هذا اليسر ؟

انك لو قرأت القرآن كله ، لخرجت بانطباع يؤكد لك يسر الدين ، انك سوف تلاحظ بلا شك أن الوصول الى سعادة الدنيا والآخرة ليس صعبا ، انه لا يحتاج منك الا الى امرين اثنين لا ثالث لهما ، انك لكى تصل الى اعلى درجات الجنة ، الى الفردوس الاعلى ، الى غاية القرب من الله ، ليس مطلوبا منك الا ان تؤمن بالله ، وتعمل طبقا لهذا الايمان — امران اثنان لا ثالث لهما ، الايمان والعمل الصالح .

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا »(٩) .

ولذلك نرى الامام الشافعى رضى الله عنه يقول (لو تدبر الناس سورة العصر لكفتهم) وسور العصر من اقصر سور القرآن الكريم ، ولكنها تتحدث عن سفينة النجاة ، نجاة الانسان من كل المهالك ، من كل الموبقات ، من كل اسباب الخسر والشقاء ، وعن فوز الانسان بالسعادة فى الدارين ، وتؤكد بكل وسائل التأكيد انه لا نجاة للانسان من كل الشرور ، ولا وسيلة الى الفوز بكل الخيرات ، الا الايمان والعمل الصالح **« والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »** انهما كما

---

(٩) الآيتان رقم ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الكهف .

نرى امران اساسيان ، الايمان والعمل الصـــالح ، اما التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فهو نموذج من الصالحات ، نموذج يلتقى مع الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهل يصلح المجتمع وينمو فيه الخـــير ، ويرضى عنه رب العزة والجـــلال الا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ ولذلك كان التواصى بالحق والتواصى بالصـــبر من اهم النمـــاذج التى وضحتهـــا السَـــورة من بين الصالحات ، من اجل ذلك كنت اكتب كثيرا عن ســـورة العصر ، ومن بين ما كتبت ذلك البيت من الشعر الذى جعلته شـــعارا لجمعية اسلامية مركزية اتشرف برئاستها(١٠) .

وســـورة العصر دســـتور لمجلســـنا
فى ظل آياتهـــا بالحـــق نجتمع(١١)

فاليسر هو الســـمة الواضحة للاســـلام .. واليسر هو الطريق الطبيعى للسعادة ، وليس معنى ذلك انك لا تقدم الا على السهل من الامور واليسير منها وانما انت تقتحم الصعاب فـــاذا هى ميسرة فى يديـــك ، لأن الله ييسر لك « **ان ذلـــك عـــلى الله يســـير** »(١٢) .

ويقول الشاعر المؤمن :

الا بالصـــــبر تبلـــغ مـــا تريـــد
وبالتقـــوى يلـــين لـــك الحـــــديد

---

(١٠) جمعية «كُل مسلم» ، التى تدعو العالم الاسلامى الى التقارب والوحدة .

(١١) أى فى ظل التواصى بالحق والتواصى بالصبر نجتمع .

(١٢) الآية رقم ٧٠ من سورة الحج .

ويقول الحق جل جـــلاله : « **ومن يتق الله يجعـــل له من امره يسرا** »(١٣) .

التيسير اذن هو طابع الاســـلام .. وهو أسلوب المؤمنين الصادقين .. وهو فى الوقت نفسه من أهم وسائل السعادة ، سواء فى المعاملات أو فى العبادة .

من اجل ذلك وجهنا رســـول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوجيه الرشـــيد ، ووضـــع اقدامنا على هذا الطريق السعيد (يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا) .

ربنـــا اننا ســـمعنا توجيـــه نبيك ، فانطلقنـــا ميسرين ما استطعنا ، مبشرين بسعادة الدارين لمن اتبع هداك ، سبحانك انت القـــائل وقولك الحـــق « **فمن اتبـــع هـــداى فلا يضـــل ولا يشـــقى** »(١٤) .

(١٣) الآية رقم ٤ من سورة الطلاق .
(١٤) الآية رقم ١٢٣ من سورة طه .

الفصـــل الخـــامس

النفســـس المطمئنـــة

النفس المطمئنة راضـــية مرضية ، من اجـــل ذلك فهى سعيدة ، والمطمئن من الأرض ما كان مســـتويا لا وعورة فيه ، لا تنتشر فى أنحـــائه العراقيل ، ولا تطل من جوانبـــه المخاوف . وتوصف القرية بانها آمنة مطمئنة حينما يأتيها رزقهـــا رغدا من كل مكان ، ولا تهددها الأخطـــار من اى مكان ، لأن الله يرعاها وترعاه ، فاذا كفرت بأنعم الله اذاقها لباس الجـــوع والخوف ، لانها ألقت بقيادها فى يد عدوها ، فى يد الشيطان **« ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا »**(١) .

والا فكيف يطمئن من أسلم زمام أمره لعدوه ، يقوده الى ما يشـاء من ابواب التعاسة والشقاء ، الى المهالك ؟ !

ولو تصورنا بشاعة هـــذه المسالك ، ونهاية هذه المهالك ، ثم سمعنا اثناء ذلك النداء الحلو الحنون ، نداء الرحمة الى النفوس المطمئنة يبشرها بالنجـــاة ، لعرفنا ضخامة الفرق بين ما يلقاه أولياء الشيطان من هول ، وما تلقاه النفوس المطمئنة من اعزاز وتكريم ، ومن المؤكد انك تتصـــور ذلك حينمـــا تسمع هـــذا الصوت المجلجل **« كلا ، اذا دكت الأرض دكا دكا ، وجـــاء ربك والملك صفا صفا ، وجيىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الانســـان وانى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحيـــاتى ، فيومئذ لا يعذب**

---

(١) الآية رقم ٦ من سورة فاطر .

عذابه احد ، ولا يوثق وثاقه احد »(٢) ووسط هـــذه الاهوال التى يلقاها اولئك الذين لا يكرمون اليتيم ، ولا يحاضون على طعـــام المسكين ويأكلون التراث اكلا لمـــا ، ويحبون المـــال حبا جما .. وسط هـــذه الاهوال المروعة ، يأتى نداء رحيم للنفس المطمئنة « **يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضـــية مرضـــية ، فادخـــلى فى عبادى وادخـــلى جنتى** »(٣) ولكن هـــذه الصورة سوف تكون فى الآخرة ، اما فى الدنيـــا فأرجو الا يطوف بذهنـــك خـــاطر من الخـــواطر المضـــللة . ارجو الا تربط بأى شـــكل بين اطمئنـــان النفس ، وفـــراغ النفس ، بين الطمأنيـــة والكســـل ، ان العكس هـــو الصحيح ، فـــان الاحســـاس بالفراغ ادعى الى اليـــأس والاحبـــاط والقـــاق ، اما اصحـــاب الرسالات الكبيرة والاهداف العظيمـــة ، فلن يكون عندهم وقت للقلق والوساوس وسيطرة الهموم والافكار الخبيثة ، ان الانسان الواثق بالله .. المطمئن الى عدله ، المخلص له ، يتقلب فى السعادة بايمانه . ان اطمئنانه يأتى من ذلك النبع الفيـــاض بالخير ، من الايمان ، من ايمانه بالله خـــالق الكون ومالكه ، والمسيطر عليـــه بقوته ، والمتصرف فيه بحكمته ، انه واثق من عدل الله ، راض بقضائه ، وسعيد بهذا الرضـــا . ولهذا الايمان ثماره الحلوة التى تؤكد الاطمئنان وتهدىء الروع .

واول هـــذه الثمار التوكل :

ان ايمـــانك بأن الـــرزق من عند الله يجعـــلك تتوكـــل عليـــه حق التوكل ، تســـعى وتعمـــل مطمئنا الى النتيجـــة ، انهـــا ســـتكون فى النهـــاية كمـــا يريدهـــا الله ، وســـوف

---

(٢) الآيات من ٢١ الى ٢٦ من سورة الفجر .

(٣) الآيات من ٢٧ الى اخر سورة الفجر .

يرزقك بلا شك ، ولكن (كما يرزق الطير تغدو خماصـــا وتروح شباعا) ولا تقضى ليلها ونهارها فى العش نائمة ، وانما تسعى وتسعى ، تغدو وتروح ، وانت تسعى وتسعد ، تغدو وتروح ولكنك مطمئن ، لانك تعلم ان ما كان لك ســـوف يأتيك ، فلا تحزن حتى يقتلك الحزن على شىء فاتك ، ولا تفرح حتى يطفيك الفرح برزق اتاك ، وانما انت فى الحالين واثق فى ربك .. سعيد بجدك وسعيك ، فالتوكل فى حقيقتـــه هو اطمئنان القلب بوعد الله ، بعدل الله .

وثانيها : الرزق الحـــلال :

ان المؤمن لا يسعى الى الرزق من اى طريق ، ولا يقبل منه الا ما كان حـــلالا ، ومما لاشك فيه أن ذلك من اهم عوامـــل الاطمئنان ، وحق لمن ياكل حلالا ويشرب حلالا ويبتعد كل البعد عن الحرام ، ان يطمئن ، وحق لمن ياكل حراما ويشرب حراما او يخلط بين الحـــلال والحرام ، أن يعيش مفزعا لا يهدأ ، قلقا لا يطمئن ، ولنضرب هنا مثلا بالقط يحوم حول المـــائدة ، فان القيت اليه بشىء من طعامك تناوله مطمئنا لا يفزع ولا يهرب ، وانما ياكل فى هدوء ،ويموء فى امتنان . وان خطف شـــيئا دون رضـــاك اسرع بالهرب واكله بعيدا عنك ، خائفا منك ..

ولا تعجب ان ترانا نتحدث عن الانســـان ونضرب مثـــلا بالقط ، ولا تكن كأولئك الذين استنكروا ان يضرب الله مثلا للذين اتخذوا أولياء من دونه ((**كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**))(٤) كما استنكروا ضرب المثل بالذباب فى قوله تعـــالى ((**يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا**

---

(٤) الآية رقم ٤٠ من سورة العنكبوت .

له .. ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا لله ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »(٥) ولم يكونوا صادقين فى استنكارهم لضرب المثل بالعنكبوت والذباب ولذلك جاءتهم الاجابة المفحمة « **ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ، واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين** »(٦) انك تعرف بلاشك ان الغرض من ضرب هذه الأمثال هو التوضيح ، هو أعطاء صورة محسوسة لأمور معنوية غير محسوسة ، وليس مهما بعد ذلك أن يضرب المثل بالعنكبوت او الذباب او الكلب أو الحمار ، ولعلك تعرف ان الله قد ضرب مثلا للذى أعرض عن آياته وانسلخ منها ، واخلد الى الأرض ، واصبح ميئوسا من استجابته للدعوة ، ضرب مثلا له بالكلب « **ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث** »(٧) وضرب مثلا للذين حملوا التوراة ثم لم يعملوا بما فيها من هدى ونور بالحمار يحمل الكتب ولا يدرك قيمتها « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين** »(٨) .

وثالثها : قوة الشخصية :

فالمؤمن الحق لا يتزعزع ايمانه ولا يهتز يقينه مهما تألب عليه الباطل واهل الباطل ، ان ثقته فى الله لا حد لها ،

---

(٥) الآية رقم ٧٢ من سورة الحج .

(٦) الآية رقم ٢٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف .

(٨) الآية رقم ٤ من سورة الجمعة .

ومما لاشـــك فيه اننا نتحدث عن الايمان الصـــادق الذى لا تزيده الأحداث الا قوة ، اما ضعيف الايمـــان ومن يعبد الله على حرف « **فان اصابه خيرا اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيـــا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين** »(٩) فواضح ان هـــذا لا ينتفع بايمانه المزعزع ، ولا يطمئن الا فى الرخـــاء ، انه اطمئنان مؤقت ، اطمئنان يستند الى الظروف المطمئنـــة ، ولا يستند الى الايمـــان الثابت ، ولذلك فهو اطمئنان قـــلق ؛ اما المؤمن الحق فيعرف انه قد يلقى المنت بعد لحظة ، وقد يتنكر له اقرب الناس اليه ، ولكنه مع ذلك مطمئن ، مطمئن بالله ...

وقد يغضب عليه بعض الناس ، ولكنه واثق الخطا فى طريقه الصحيح ، يدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، وما عليـــه بعد ذلك الا يرضى عنه المنحرفون ..

وما ضر الـــورود ومـــا عليهـــا
اذا المزكـــوم لم يطعـــم شـــذاها

وهو يعلم انه معرض للموت فى اية لحظة .. انه فى الليل غير واثق من ان يطلع عليه النهار ، وهو فى النهار غير متاكد ان الليل سوف يجده على قيد الحياة ، ولكن لا بأس ، ان ثقته ليست فى الزمان او المكان ، ان ثقته فى خالق الزمان والمكان ، انه مطمئن بالله ، واثق ان الموت ســـوف يأتى لا محالة ، ان عاجلا او آجلا ، وليس المهم عنده كم عـــاش من السنين ، ولكن المهم كيف عاش ما عاش ، ان يقينه بالله يقيه من الاضطراب والخـــوف والقلق ، وأظنك رايت كثيرا من العاملين فى مكاتبهم يضع الواحد منهم أمامه لوحة كتب عليها بخط جميل (يقينى بالله يقينى) انه يقصـــد ان

---

(٩) الآية رقم ١٠ من سورة الحج .

ثقته بالله تقيه من كل الشرور ، من الاضطراب والخوف والقلق والانحراف ، ومنك ان كنت تريد ان تخدعه او تحتال عليه ، انه يريد ان يقول انه قوى بالله ((**ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم**))(١٠) هل تظن ان يوسف عليه السلام كان مضطربا فى السجن ؟ انه كان مطمئنا فى سجنه ، لأن السجن كما قال هو نفسه ، كان احب اليه مما يدعونه اليه ، ولو كان قلقا مضطربا لأسرع الى مغادرة السجن حينما دعاه الملك ، ولكنه لم يكن فى عجلة من أمره .. وانما تريث وقال للذى حمل اليه دعوة الملك ((**ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ان ربى بكيدهن عليم**))(١١) انه لا يريد ان يخرج من السجن بأى وجه من الوجوه ، لابد من اثبات براءته أولا ..

وهل تظن ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان مذعورا فى غار ثور ؟ او فى طريق هجرته من مكة الى المدينة ؟ او فى أيه غزوة من الغزوات ؟ مستحيل . لقد كان مطمئنا بالله ، بل ان اصحابه ايضا كانوا مطمئنين ، انهم يؤدون واجبهم ، وسواء اكانت النتيجة النصر او كانت الشهادة ، فانها احدى الحسنيين على أى حال ، بل انى لا اخفى عليك امرا تعجب له ..

لقد ذكرت لك فى مقدمة الكتاب انى احيا سعيدا باسلامى ، واستمع الى دقات قلبى تلهج بالحمد ليل نهار ، والى بلابل روحى تصدح بالايمان فى اليقظة والمنام ، وانى اشعر بفيض من الرضا يغمر حياتى بالسعادة ، ودافق من السرور يملأ صدرى بالانشراح ، ويطلق لسانى بالحمد ..

---

(١٠) الآية رقم ١٠١ من سورة ال عمران .

(١١) الآية رقم ٥٠ من سورة يوسف .

وحدثت بعد ذلك احداث جسام .. منها ما يتصل بشخصى ، ومنها ما يتصل بأمور العالم الاسلامى ، فهل تظن ان شيئا من ذلك غير قليلا أو كثيرا من تلك المعانى ؟ ابدا .. لقد كانت سعادتى التى احكمت ضدى ... لا تقل خردلة عن سعادتى فى أثناء المؤامرة حفل يقام تكريما لى ، كنت واثقا من نفسى ، مطمئنا الى عدل الله ، مؤمنا بأن هذه الأحداث تكفير للذنوب ، أو رفع للدرجة ، او صهر للتجارب ... انها خير على كل حال ..

وكنت كلما هم الشيطان ان يغزو نفسى عن طريق التفكير فى اولادى وما يمكن ان يلقوه بسببى ، اتجهت الى الله اسأله الا يجعلنى سببا فى ايذاء احد .. وكانت دعواتى مركزة فى هذا الدعاء (اللهم اجعلنى مفتاحا للخير مغلاقا للشر) .

وارجو ان تكون من المؤمنين بالدعاء ، واهمية الدعاء ...

واذا قرأت قوله تعالى ((**ان الانسان خلق هلوعا .. ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ..**))(١٢) عرفت ان العبادة اقوى سبب فى ابعاد الهلع والجزع عن العابدين . فهل تعرف كيف كانت نظرتى الى كل هذه الأحداث ؟ كنت انظر اليها على انها تحديات تريدنى أن اتراجع عن تلك العقيدة الثابتة فى نفسى ، وهى ان السعادة تنبع من القلب المؤمن لا من الظروف المحيطة ، ولم تستطع تلك التحديات أن تزعزع ايمانى بالفكرة ، وكان يحلو لبعض الأصدقاء أن يسخر .. وقد يسأل فى عجب .. عن اية سعادة تكتب ؟ اين هى السعادة فيما حولك ؟ انظر حولك فلن تجد الا ما يدعو الى الألم ، ويثير الاحزان والمخاوف ، وفى قوله

---

(١٢) الآيات من ١٩ الى ٢٢ من سورة المعارج

صدق ، وفى وصفه للأحداث تصـــوير حقيقى ، ولكنى مع ذلك اقول له : انك اذا امتلأت رعبا فقد يشل الرعب حركتك ، ولعلك تعرف قول الرســـول صلى الله عليه وسلم (ونصرت بالرعب) اى ان الكفار كانوا يصابون بالرعب ، فتحل بهم الهزيمـــة ، وهو امر تؤكده الآيـــة الكريمة ((**اذ يوحى ربك الى الملائـــكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب**))(١٣)

وقد كان الايمان هو العـــامل الرئيسى فى ثبات المؤمنين ، كما كان الكفر هو العامل الرئيسى فى رعب الكافرين .

انى اريد للمؤمن أن يواجـــه المشـــكلات رابط الجـــأش ، مطمئن النفس ، ثابت الايمان قوى الشخصية ، وبذلك يتغلب على كل المشكلات .

ويأتى سؤال فى غاية الاهمية : هل يمكن أن يكون المؤمن ضعيف الشخصية ؟ ان ايمانه ينهاه ، يحذره ، يمنعه من ضعف الشخصية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشـــدد النكير ، ويؤكد التحذير (لا يكن احدكم امعه ، يقول انا مع الناس ، ان احسن الناس احسنت وان اساءوا اسأت ، ولكن ليوطن كل منكم نفسه ، ان احسن النـــاس ان يحسن ، وان اساءوا أن يتجنب اســـاءتهم) .

ان قوة الشخصية تتناسب تناسبا طرديا مع زيادة الايمان ، والمؤمنون والمؤمنات فى ذلك درجـــات ، حسب نصيب كل منهم من قوة الايمان .

---

(١٣) الآية رقم ١٢ من سورة الانفال .

ورابعها القوة بالله : ان اطمئنان القلب مطلب قديم نبهنا اليه القرآن الكريم فيما حكاه عن ابى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ((**واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى**))(١٤) لقد لجأ ابراهيم الى ربه يطلب الاطمئنان ، وقد اطمأن قلبه فعلا لعلم الله وقدرة الله .. ولعلنا لا ننسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لصحابى جاء يسأله (جئت تسأل عن البر والاثم ، البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى القلب ، ولم تطمئن اليه النفس) .

ولعلك فى نهاية هذا الفصل تريد أن تعرف كيف تطمئن القلوب بذكر الله ؟

انك ما دمت مع الله ، تذكره ولا تنساه ، فانك لابد ان تذكر قدرته ، وهى قدرة رحيمة ترعاك ولا تنساك .. وحينئذ لا تحس بالضعف ، لانك مع الله ، وهو اقوى الأقوياء .. ان لك ناصرا قويا قادرا فاطمئن ، انه سبحانك وليك ((**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور الى الظلمات**))(١٥) ولابد ان تذكر عدله ، وحينئذ لا تخشى الظلم ، لا تخشى ان يظلمك الله ، حاشا لله ، ولا تخشى ان يدعك نهبة للظالمين ، انك مطمئن الى عدله ، والى نصره للمؤمنين ((**ولا يظلم ربك احدا**)) وكيف يظلم سبحانه ، وقد تكرم فحرم الظلم على نفسه وجعله بيننا حراما ، واوصانا الا نتظالم ، وكيف تخشى ان يدعك للظالمين وهو القائل وقوله الحق ((**انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم**

---

(١٤) الآية رقم ٢٦٠ من سورة البقرة .

(١٥) الآية رقم ٢٥٧ من سورة البقرة .

الاستشـــهاد »(١٦) وكل مسلم يحفظ قوله تعالى « ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز »(١٧) .

اخى المســلم :

انك قوى بالله ، معتصـــم بالله ، ذاكر لله ، فانت منهم ، من « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكـــر الله ، الا بذكـــر الله تطمئن القـــلوب »(١٨) .

---

(١٦) الآية رقم ٥١ من سورة غافر .

(١٧) الآية رقم ٤٠ من سورة الحج .

(١٨) الآية رقم ٢٨ من سورة الرعد .

الفصـــل الســـادس

يفـــرح المؤمنـــون

ومن أحق بالفرح والسعادة من المؤمنين ؟

لقد فازوا بأعظم نعمة ، واختاروا أحسن طريق ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولو اننا احصينا الآيات التى تنهى المؤمنين عن الحزن ، وتنهى عنه اول المسلمين محمدا صلى الله عليه وسلم ، لوجدنا منها عددا كبيرا(١) ثم وجدنا عددا آخر من الآيات ، تنفى الحزن عن المؤمنين والمؤمنات فى الدنيا والآخرة(٢) وتؤكد أن غير المؤمنين احق بالحزن والهم والغم والحسرات ، ولكن الشـــيطان يريد للذين آمنوا ان يحزنوا ، فهل نمكنه من اغراضـــه الخبيثة ؟

اننا نقرأ ذلك صريحا فى ســـورة المجادلة ((**انمـــا النجوى من الشـــيطان ليحزن الذين آمنوا**))(٣) ذلك هو الهدف الخبيث لهذا العدو المبين .

ولكن القرآن الكريم يتنزل على قلب محمد صلى الله عليـــه وســـلم ويحذره من الحزن ، ويبين له لمـــاذا لا ينبغى ان يحزن ((**يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، من الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن من قلوبهم ، ومن الذين هادوا**

---

(١) ورد النهى عن الحزن خمس عشـــرة مرة فى القرآن الكريم .

(٢) ورد نفى الحزن عن المؤمنين والمؤمنات فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة .

(٣) الآية رقم ١٠ من سورة المجادلة .

سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون ان اوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(٤) .

ارايت ؟ ارايت من احق بالحزن والغم والهم والحسرات فى الدنيا والآخرة « **اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الاخرة عذاب عظيم** » .

ولماذا يحزن عليه الصلاة والسلام لمسارعتهم فى الكفر ، بينما لا يحزنون على انفسهم ؟ ! هل يمكن لكفرهم أن يضر الله شيئا ؟ « **ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم** »(٥) .

ولماذا يحزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم انه لا يملك لهم من الله شيئا ، كما يعلم انهم لن يضروا الله شيئا ؟ .

نعم ، ولكنهم يتحدثون عنه ويتقولون عليه ، يتحدثون عن الاسلام بمفتريات غريبة ، ويكيدون له ، ويدعون ادعاءات باطلة ، ولكن هذا أيضا ليس مبررا للحزن ، فما دمت على الحق ، ما دمت مع الله فأنت اقوى واعز ، وانت اولى بالسعادة والسرور ،

---

(٤) الآية رقم ٤١ من سورة المائدة .

(٥) الآية رقم ١٧٦ من سورة ال عمران .

لا بالحزن والاكتئاب ((**ولا يحزنك قولهم ، ان العزة لله جميعا ، هو السميع العليم**))(٦) .

ثم ان الصبر يتنافى مع الحزن ، ولذلك نقرا فى نهاية سورة النحل ((**واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**))(٧) .

وكما نهى الله نبيه عن الحزن ، نرى النبى صلى الله عليه وسلم بدوره ينهى صاحبه فى الغار عن الحزن ، و برر ذلك تبريرا منطقيا تماما ((**اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا**))(٨) ومن كان الله معه فمن عليه ؟ !

ولما كان الاسلام حريصا على ابعاد الاحزان واسبابها عن المؤمنين والمؤمنات ، ولما كان اول من ينبغى تطبيق هذه النظرية عليه هو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، على اعتبار انه القدوة ، فقد ارشد الله نبيه الى الطريقة المثلى لمعاملة أزواجه ، لادخال السرور عليهن ، وابعاد شبح الحزن عنهن ((**ذلك ادنى ان تقر اعينهن ولا يحزن ، ويرضين بما آتيتهن كلهن ، والله يعلم ما فى قلوبكم ، وكان الله عليما حليما**))(٩) .

سنة الله فى خلقه ان يسعد المؤمنون والمؤمنات ، وان يشقى الكافرون والكافرات .. منذ اول الخليقة كانت هذه السنة ، وكان ذلك النداء الآلهى ((**قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما ياتينكم منى**

---

(٦) الآية رقم ٦٥ من سورة يونس .

(٧) الآيتان رقم ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .

(٨) الآية رقم ٤٠ من سورة التوبة .

(٩) الآية رقم ٥١ من سورة الاحزاب .

هـــدى ، فمن اتبع هداى فلا خـــوف عليهم ولا هم يحـــزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنـــا اولئك اصحاب النار هم فيهـــا خـــالدون »(١٠) .

واذا اردت ان تستمع الى هـــذا النداء الآلهى فى آيـــات أخرى لتعرف ان سعادة المؤمنين ليست فى الآخرة وحدها ، وان شقاء الكافرين كذلك ، فاقرأ ما قاله سبحانـــه فى ســـورة طه **« قـــال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينـــكم منى هدى فمن اتبع هـــداى فلا يضـــل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك اياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجـــزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »(١١) .**

ولا يتسع هـــذا الكتاب ليجوس بك خـــلال هـــذا التاريخ الطويل منذ آدم حتى الآن ، ليتاكد لديك انها سنة ثابتة ، ولكنه يكتفى بأن يذكرك بما قالته الملائكة فى سدوم ، وما حدث لأم موسى فى مصر ، وام عيسى فى بيت لحم ، انه ليس كتابا فى تاريخ الأديان ليستوعب التـــاريخ الايمـــانى كله ، ويتتبع مســـيرة الايمـــان والسعادة ، ومسيرة الكفر والشقاء منذ فجر التاريخ الى يومنـــا هذا ، ولذلك نكتفى بهذه الامثلة :

اما فى سدوم فنقرأ معا قول الحق جل جلاله **« ولمـــا ان جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضـــاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك واهلك الا امرأتك كانت من الغـــابرين**

---

(١٠) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة البقرة .

(١١) الآيات من ١٢٣ الى ١٢٧ من سورة طه .

انا منزلون على اهل هـــذه القرية رجزا من الســـماء بما كانوا يفسقون »(١٢) .

واما فى مصر فقد رجـــع الرضيع الى امه « كى تقر عينها **ولا تحزن** »(١٣) الارادة الآلهية بســـعادة المؤمنين والمؤمنـــات لا تتخلف ، سنه ازلية ابدية ان تقر عيونهم وان يبتعد شبح الاحزان عنهم ، فهذا موسى طفلاً رضيعا فى مصر ، ويأتى الى امه امر من الســـماء ان تلقيه فى اليم ، تلقى بفلذة كبدها فى اليم بنفســـها ، ويشترط عليهـــا مع ذلك الا تخـــاف ولا تحزن « **فألقيه فى اليم ولا تخـــافى ولا تحزنى** »(١٤) وبعد أن التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، تطرد الســـنة الآلهية « **فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم ان وعد الله حـــق ، ولكن اكثرهم لا يعلمون** »(١٥) .

وتحت النخلة فى بيت لحم ، يتحدث عيسى فى المهد ، وكانت اول كلماته نداء لأمه الا تحزن وان تقر عينها « **فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا** »(١٦) .

ثم يأتى هـــذا النهى الحـــازم الحاسم للمؤمنين فى مشارق الارض ومغاربها « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعـــلون ان كنتم مؤمنين** »(١٧) .

---

(١٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة العنكبوت .

(١٣) الآية رقم ٤٠ من سورة طه .

(١٤) الآية رقم ٧ من سورة القصص .

(١٥) الآية رقم ١٣ من سورة القصص .

(١٦) الآيات من ٢٤ الى ٢٦ من سورة مريم .

(١٧) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

وتضيف آيات اخرى الى النهى عن الخوف والحزن تبشيرا باجنة فى الآخرة ، وهـــذا النهى والتبشير ، تتنزل بهما الملائكة ، تتنزل على الناس ، الملائكة تتنزل عليهم بالطمأنينة والسعادة والبشريات « **ان الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة الا تخـــافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ، ومن احسن قـولا ممن دعـــا الى الله وعمـــل صـــالحا ، وقـــال اننى من المســلمين** »(١٨) .

ومما لاشك فيه ان ابعاد شبح الحزن عن المؤمنين والمؤمنات فى الدنيا هو الخطوة الأولى للسعادة ، فانك لكى تبذر السعادة فى قلب انسان لابد أن تبدأ بتطهير الأرض ، واعداد المكان ، لابد من التخلية قبل التحلية ، ولعل هـــذا هو السر فى انك اذا قرأت القرآن تبدأ اولا بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، تبدأ بالتطهير قبل التعمير ، تطهر قلبك من الشـــيطان قبل أن تعمره بالقرآن ، ولذلك فقد بدأنا هـــذا الفصل المخصص للفرح ، بابعاد المخاوف والأحزان ، بطرد الهمم والغم والنكد والحسرات ، فهذه الطائفـــة من الأمراض النفسية ، من امضى الأسلحة لقتل الناس ، او على الاقل لتعاستهم وتقويض حياتهم المعنوية ، وفى الاســـلام قاعدة اصولية تقول (دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة) وان كانت السعادة فى الحقيقة لا تخضـــع لهذا التقسيم بين دفع الأحزان وجلب المسرات ، فان دفـــع الأحـــزان فى ذاتـــه جاب للمسرة « **فمن زحزح عن النار وادخل الجنـــة فقد فاز** »(١٩) ان مجرد

---

(١٨) الآيات من ٣٠ الى ٣٣ من سورة فصلت .

(١٩) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

نجاتك من العذاب فوز عظيم ، ولكن الله اكرم بعباده السعداء ، انه ينجيهم من العذاب ويدخلهم جنة النعيم ، هذا فى الآخرة ، اما فى الدنيا فانهم يسمعون هذه الكلمات ، ويسعدون بهذه الآيات : « **الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم** »(٢٠) .

ان الانسان يكون جديرا بالحزن اذا كان مقصرا او مخالفا ، وهؤلاء لم يقصروا ولم يخالفوا ، من اجل ذلك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بل أن الفرح يملأ قلوبهم فى الدنيا بعد تطهيرها من الاحزان واسبابها ، كما يملأ قلوبهم فى الآخرة بما وجدوا من ثواب عظيم ونعيم مقيم .

ولكن بماذا يفرح المؤمنون فى الدنيا ؟ بالعرض الزائل ؟ بالمظاهر المضللة ؟ كلا ، لقد انحرفوا عن الايمان اذن ، انما يفرح المؤمنون بالجوهر لا بالعرض « **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** »(٢١) ان هذه الآية الكريمة تحدد الاسباب الجوهرية للفرح الحقيقى ، الفرح الذى ينبغى للمؤمن .. ولكنى مع ذلك ارى فيها (لام الامر) هذه فى غاية الاهمية ، ان الله يامر المؤمنين بالفرح ، على عكس ما يحاول اصحاب المناظير السوداء أن يصوروا الاسلام .. كما ان آية اخرى فى سورة الروم تذكر سببا آخر للفرح ، هو النصر « **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** »(٢٢).

---

(٢٠) الايات من ٦٢ الى ٦٤ من سورة يونس .

(٢١) الآية ٥٨ من سورة يونس .

(٢٢) الآية رقم ٤ من سورة الروم .

ومن هاتين الآيتين ، ومن قوله صلى الله عليه وسلم (للصائم فرحتان) تظهر لنا مشروعية الفرح ، كما تتضح الأمور التى يفرح بها المؤمنون ، فى سورة يونس يفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته ، وفضل الله على المؤمنين عظيم ، ورحمته بهم لا حد لها ، وان كان القرآن الكريم هو ينبوع الفضل ومعين الرحمة **((يايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون))**(٢٣) .

وفى سورة الروم يفرحون بنصر الله ، بتحقيق آمالهم الانسانية .

وفى الحديث الشريف (للصائم فرحتان ..) يفرحون بتوفيق الله لهم ، وتمكينهم من عبادته والتقرب اليه ، واداء ما فرضه عليهم .

فاذا عرفنا هذه النماذج من اسباب الفرح عند المؤمنين ، فلابد أن نسعى لتحصيلها وتوفيرها ، وان نسعد بها .

ان المنحرفين يفرحون بما يصور لهم الشيطان من اسباب خادعة ، ويجتهدون فى اغراء الناس بها ، كما فعل جندى من جنود الشيطان(٢٤) ، يعاقر الخمر ، ويتغنى بالسعادة التى تسببها له ، ويرد على من يلومه :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء
وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سراء

---

(٢٣) الايتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة يونس ■

(٢٤) الشاعر المعروف ابو نواس يصف اثر الخمر فى نفسه .

انه يحـــاول اغراء الناس بالخمر ، ويزعم ان الحجر نفســه او مسته الخمر ترنح من فرط النشوة والسرور والسعادة .. ولكن المؤمن لا يحب أن يترنح مهما كان سعيدا ؛ ان الذى اباح له الفرح وبين اســبابه ، امره بالاعتـــدال فى كل شىء ((**ان الله لا يحب المسرفين**)) .

وهنا يقفز الى الذهن ســـؤال فى غاية الاهمية .

كيف يفرح المؤمن ؟ وكيف تفرح المؤمنـــة ؟ وهل يمكن ان يفرح أحدهما أو كلاهما من فرط النشوة ، او يملأ الجو بالضحك الصاخب والقهقهة العالية ؟ هل يمكن ان يتجاوز كل حد فيمشى مختالا فرحا فخورا ، يظن انه اعظم الناس ، وانه جاء بما لم تات به الأوائل وما يعجز عنه الاواخر ؟ انه لا يفعل ذلك الا اذا ركبه الشيطان وعشش فى راســـه ، ثم باض وافرخ فى هـــذه الراس فابعدها عن الجادة .

ان اسلوب المؤمن فى التعبير عن الفرح والسرور لابد ان يكون اسلوبا مهذبا ، ومع ذلك فاننا نرد الامر الى الله والرسول ، لنستطيع الاجابة عن هـــذا السؤال ، اما القرآن الكريم فيؤكد ((**ان الله يامر بالعدل ...**))(٢٥) والاعتدال مشتق من العدل ، وكما يأمر الله بالعدل فى كل شىء ، فانه ينهى عن الاسراف فى اى شىء ((**ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين**))(٢٦) .

واما السنة النبوية العملية فى ذلك ، فتصورها امى وامك وام المؤمنين جميعا عائشة رضى الله عنها حين تقول (ما رايت

---

(٢٥) الاية رقم ٩٠ من سورة النحل .
(٢٦) الاية رقم ١٤١ من سورة الانعام .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا مستلقيا قط ، حتى تبدو لهاته ، انما كان يبتسم) .

لقد كان عليه الصلاة والسلام اسعد خلق الله ، وكان يمزح ولا يقول الا حقا ، وكان يحب ان يدخل السرور على الناس ، ويحثنا على ذلك . واستمع اليه وقد سئل عن افضل الأعمال فقال (افضل الأعمال ان تدخل السرور على الناس) ولكنه مع ذلك وضع لاسلوب التعبير عن الفرح والسرور ضوابط حتى لا يصل الى حد الاسراف ، وهذا هو المنهى عنه فى الفرح وفى غيره من الشئون ، واظن ان الوقت قد حان لمناقشة المسألة التى اشرنا اليها فى المقدمة ، وهى ما ورد فى قصة قارون **« اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين »** ، فهذا بالضبط ما نتحدث فيه الآن **« ان الله لا يحب الفرحين »** الا ترى ان صيغة الفرحين هى من صيغ المبالغة ؟ فالفرح بكسر الراء هو المسرف فى الفرح والمسرف فى التعبير عن فرحه بأسلوب يتنافى مع الاعتدال والعدل ، ان الله لا يحب الفرحين لانه لا يحب المسرفين ، اما ان تكون منشرح الصدر مسرورا ، ان تكون سعيدا بايمانك ، وان تعبر عن هذا السرور باعتدال ، فذلك ما يدعو اليه الاسلام ، ولا يتنافى ابدا مع قوله تعالى **« ان الله لا يحب الفرحين »** فالروح المرحة تسهم فى تفريج الأزمات وانعاش العواطف ، وطرد اليأس والفشل .. وانت تعرف ان موسى عليه السلام طلب الى ربه ، فى الوادى المقدس طوى ، ان يشرح له صدره ، ولا يمكن لنبى الله موسى ان يطلب الى الله شيئا غير مباح ، كما تعرف ان رب العزة سبحانه يمن على نبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بانه شرح له صدره ، وعاتبه ان عبس مرة فى وجه من جاءه يطلب الهدى ، ولم يعاتبه ابدا على الابتسام ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام دائم الابتسام ، وكان يدعو الصحابة ويدعونا الى

الابتسـام فى وجوه الناس فيقول (ابتسـامك فى وجه اخيـك صدقة) .. وحينما تحدث عليه الصلاة والسـلام عن المراة الصالحة جعل اول شرط من شروطها (اذا نظر اليها زوجهـا سرته) وهو الذى يوصينا بالترويح عن القلوب فان القلوب اذا كلت عميت ... ويتحدث الرواة عن نعيمان بن عمرو الانصارى فيقولون انه كان ضحوكا بساما ، وان النبى صلى الله عليه وسلم قال عنه (يدخل نعيمان الجنة ضاحكا) .

ولعلك تعرف ان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم كان يقول : (ان الله يحب أن يرى اثر نعمته على عبده) فقل لى بربك كيف يرى اثر النعمـة عليه ؟ بالهم والغم والحزن ؟ ام بالبهجـة والسعادة والسرور ؟ ثم انك تعرف انه يدعونا للعمل الصالح وينهانا عن عمل السيئات ، ثم يضع مقياسا للايمان يتصـل بالحسنات والسيئات وبما ينتج عنهما كرد فعل فى نفس المؤمن من سـعادة او شقاء ، من سرور أو استياء ، فيقول عليه الصـلاة والسلام (اذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن) .

ومما لاشك فيه انه يدعوك للاكثار من الحسنات اى للاكثار مما يسر قلبك ويسعد حياتك لتنشر السعادة على ما حولك من الاشياء ومن حولك من الاحياء ، وينهاك عن عمل السيئات اى عن عمل ما يسوءك ويحزنك ويشقيك ويفسد الحياة .

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

انكما مدعوان الى السعادة حتى اذا كانت السـماء ملبدة بالغيوم :

قـال السـماء كئيبـة وتجهمـا
قلت ابتسـم ، يكفى التهجـم فى السما

فابتسم يا اخى للحياة ، واستمع الى الكون كله يسبح بحمد الله ، استمع الى الجبال تؤوب معك ، والى الطير تغرد من حولك ، واستمع قبل ذلك كله الى دقات قلبك تصدح بالسعادة ، واجعل قسمات وجهك تتلألاء بالنور مشرقة ، ولا تسمح لأعداء الحياة ان يحولوا بينك وبين اشراقة الوجه وحلاوة الايمان .

الفصل السابع

العلم نور

هل تعرف صلة النور بالسعادة ، وصلة الظلام بالشقاء ؟ وهل فكرت فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الظلم ظلمات يوم القيامة) ولحظت هذا التقارب اللفظى بين الظلم والظلمات ، وصلة ذلك بالتعاسة والشقاء ، كما عرفت صلة الجهل بالظلم ، ظلم الانسان لنفسه على الأقل ؟

انك بالطبع تعرف أن كل رسالات السماء كان هدفها اخراج الناس من الظلمات الى النور ، ولكن من اين جاءتهم هذه الظلمات ؟ من الجهل ؟ من الغفلة ؟ من النسيان ؟

ان اردت أن تعرف دور النسيان فى هذه الظلمات فاقرأ قول الله سبحانه ((**ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**))(١) النسيان اذن هو أصل البلاء ولذلك سمى القرآن الكريم ذكرا ، وانزله رب العزة سبحانه على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس (لعلهم يتذكرون) (لعلهم يتفكرون) يتذكرون ماذا ؟ يتذكرون عهد الله وميثاقه الذى واثقهم به ((**واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا**))(٢) ويتفكرون فى ماذا ؟ يتفكرون فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وغير ذلك من آيات الله الكونية . يتفكرون فى خلق انفسهم واولادهم وازواجهم واختلاف السنتهم والوانهم ، وغير ذلك من الاسرار النفسية التى

---

(١) الآية رقم ١١٥ من سورة طه .

(٢) الآية رقم ١٧٢ من سورة الاعراف .

تدعو الى الايمان باوضح بيان وافصح لسان ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، ولكن اكثر الناس اصابه النسيان ، ورانت على قلبه الغفلة ، وكما يغطى ظلام الليل ضوء النهار حينما يسلخ منه النهار ، تغطى الغشاوة بصائر الناس حينما يجرفهم تيار الغفلة والنسيان ، فيفسد فطرتهم ، ويحجب نور الله عن قلوبهم ، الا من رحم ربى ، فاهتدى بفطرته السليمة ، وقليل ما هم .

من اجل ذلك جاءت رسالات السماء تكشف هذه الغشاوة عن القلوب والبصائر ، لتعيد الناس الى الفطرة السليمة ، وتريهم آيات الله فى الآفاق وفى انفسهم ، فمن اهتدى فقد خرج من الظلمات الى النور ، ومن ابى فقد ظل يتخبط فى ظلمات الجهل والكفر والضلال ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

العودة الى دين الفطرة اذن هى العودة الى النور ، هى انتصار النور على الظلمات المتراكمة من النسيان والغفلة والتخبط .

العودة الى دين الفطرة اذن هى المنقذ من الضلال والشقاء .

والعودة الى دين الفطرة نور « **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** » والعقل السليم الذى يهتدى الى معرفة الله هو اصل النور ، ثم يأتى بعد ذلك نور العلم ، نور الشريعة ليصقل هذا العقل .

ولعل من الطريف ما تصوره احد الشعراء من خلاف يقع بين العقل والعلم ثم ينتهى الامر بالصلح بينهما ، واظهر تصوره لهذا الخلاف بنظم هذه الابيات :

عـــلم العليم وعقـــل العاقـــل اختلفـــا
من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفـــا
فالعـــلم قـــال انـــا أحرزت غايتـــه
والعقل قـــال انـــا الرحمن بى عرفـــا
فأفصح العـــلم افصـــاحا وقـــال لـــه
بأينـــا الله فى فرقـــانه اتصفـــا ؟
فبـــان للعقـــل أن العـــلم ســـيده
وقبل العقـــل راس العـــلم وانصرفا

العلم ، العلم يصقل العقل ويسمو به ، ويسمو صاحبه حسب مبلغه من العلم ، يسمو ويسمو حتى ينـــال من التكريم ما نقرا عنه فى الآية الكريمـــة ((**شـــهد الله أنه لا آله الا هو والملائكـــة واولوا العلم قائمـــا بالقسط**))(٣) .

هل عرفت الآن لمـــاذا ينظر الاســـلام الى العلم على أنه (نور على نور) ؟

انهما نوران مجتمعان ، نور العقل الذى يهدى صاحبه الى الاسلام ، ونور العلم الذى يدعو اليه الاســـلام ، وبشر العلماء من المؤمنين ، انهم الهداة ، ان مثلهم فى الارض كمثل النجوم فى السماء(٤) انهم كما وصفهم الصـــادق الأمين (ورثة الأنبياء) وماذا ورثوا عن الأنبياء ؟ ورثوا اقدس رســـالة ((**ومن احسن**

---

(٣) الآية رقم ١٨ من سورة آل عمران .

(٤) وقد افسدت بعض وسائل الاعلام هذا المعنى حين قصـــرته على المطربين والمطربات وأضرابهم من اهل الفن ، ولم تتكرم باطلاق هذا اللقب (نجم) على احـــد من العلمـــاء .

قـــولا ممن دعـــا الى الله وعمـــل صالحـــا وقـــال انني مـــن المسلمين »(٥) .

انه يدعو الناس الى حسن استخدام عقولهم ، الى حسن استخدام المواهب والنعم ، ليسعدوا فى دنيـــاهم ويسعدوا فى اخراهم ، وهل يشقى الكفار فى دنياهم واخراهم الا بســـوء استخدام عقولهم ومواهبهم « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالأنعـــام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون** »(٦) أولئك فى ظلمات لانهم عطلوا ادوات النور ، عطلوا عقولهم وسمعهم وابصـــارهم ، عطلوا وسائل العلم ، فلا هم احتفظوا بالفطرة السليمة ، ولا هم استجابوا لمن يدعوهم لمـــا يحييهم ، حرموا انفســـهم من النور الداخـــلى الفطرى اذ خنقوه ، ومن النور الذى جـــاء به رســـل الله اذ هجـــروه وانكروه !

ولو انك وضعت هـــذه الصورة القبيحة ، صـــورة اولئك الذين غفلوا حتى انكبوا فى النار على وجوههم فى النهاية « **وقالوا لو كنا نســـمع او نعقل ما كنا فى اصحاب الســـعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحـــاب الســـعير** »(٧) لو انك وضعت هـــذه الصورة القبيحة بجانب الصـــورة المشرقة المضيئة ، صـــورة الذين يهديهم ايمانهم الى حسن استخدام العقل والسمع والبصر ، الى حسن استخدام المواهب والنعم ، فكان ايمانهم نورا ، وكانت

---

(٥) الآية رقم ٣٣ من سورة فصلت .

(٦) الآية رقم ١٧٩ من سورة الاعراف .

(٧) الآيتان رقم ١٠ ، ١١ من سورة الملك .

معرفتهم نورا ، وابتعدوا عن الظلم والظلمات ، عن ظلم انفسهم وظلم غيرهم ، وعن ظلمـــات الكفر والجهل والضـــلال ، فكانت حياتهم نورا على نور ، وكانت آخرتهم الفوز والنجاه « **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يســعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهـــار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقـــات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمســوا نورا ، فضرب بينهم بســور له باب ، باطنـــه فيه الرحمـــة وظاهره من قبله العـــذاب ، ينادونهم الم نكن معكم ؟ قـــالوا بلى ، ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمـــانى حتى جـــاء امر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فديـــة ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير** »(٨) .

لو انك وضعت هاتين الصـــورتين أمامك ، كما يضعهما القرآن الكريم أمام الناس ، وقد مر بك ما عرضـــه فى ســـورة الفجر من اهوال يلقاها من عاشـــوا فى الظلمات ، ومن تكريم تلقاه النفس المطمئنة الراضـــية المرضية ، ومر بك فى ســـوره العصر ما يخلع القلوب ، حين ترى الانسان فى خسر يحيط به من كل جانب ، يطوقه ، يدمر حياته ومستقبله ، ولكنك تتنفس الصعداء حين ترى ذلك الاستثناء ، استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وهنا فى سورة الحديد ترى الصورتين معا ، ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم فتفرح وتسعد ، وتسأل الله أن تكون منهم ، وترى المنافقين والمنافقـــات الذين

---

(٨) الآيات من رقم ١٢ الى ١٥ من سورة الحديد .

عاشوا فى مجتمع المؤمنين وقلوبهم مع الكفار ، تراهم فى حالة استجداء ذليل يقولون للمؤمنين والمؤمنات « **انظرونا نقتبس من نوركم** » ويأتيهم الجواب الساخر « **ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا** » اى ان النور الذى يسعى بين ايدى المؤمنين والمؤمنات وبايمانهم جاء معهم من الدنيا ، كانوا على نور فى الدنيا فجاء معهم نورهم الى الآخرة (نور على نور) اما انتم ايها المنافقون والمنافقات فان استطعتم ان ترجعوا الى الدنيا لتلتمسوا النور من هناك فارجعوا ، وما هم بخارجين من النار ، ولكنها اجابة تؤكد ان النور فى الآخرة لا يلتمس الا من نور الايمان فى الدنيا ، وان سعادة الآخرة بالنعيم المقيم امتداد لسعادة الدنيا بالايمان والعمل الصالح .

وفى هاتين الصورتين ترى المنافقين والمنافقات يزعمون انهم كانوا مع المؤمنين (الم نكن معكم ؟) لانهم عاشوا بينهم يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ، فانكشفت حقيقتهم المظلمة هناك ، ووجدوا انفسهم فى معسكر الكفار كما كانت حقيقتهم فى الدنيا « **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، ماواكم النار هى مولاكم وبئس المصير** » لو انك وقفت امام هاتين الصورتين واعطيتهما حقهما من التأمل والتفكر والاهتمام ، لو انك امعنت النظر حتى ارتسمت الصورتان فى ذهنك ، لفررت من الظلم والظلمات ، واسرعت تلتمس النور ، وتلتزم النور ، وتسبح فى بحار النور .

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

هل عرفت لماذا يهتم الاسلام بالعلم ، بالنور ، بصقل المواهب ، وحسن استخدام النعم ؟

ان الاسلام يحتفل بالعلم لأنه يحتفل بكل طاقات الحياة ، لانه دين الحياة ، دين السعادة .

يحتفل الاسلام بالعلم لانه يقاوم الثلوث الفكرى ، وينقذ الانسان من مخالب الحيرة والاضطراب والتخبط ، يحتفل الاسلام بالعلم لأنه يتخذه وسيلة لاصـــلاح النفوس وتهذيب الاخـــلاق وتحقيق السعادة ، ولذلك فانه ينعى على اولئك الذين اتخذوا القرآن مهجورا ، ويدعوهم ألا يقطعوا علاقتهم بالقرآن ولا يجمدوها ، ولعله من الطريف المفيد أن نعرف مناقشـــة السلف الصالح لهذه القضية ، ومحاولتهم تحديد مدة الهجر ، وتحديد القدر الذى تقراه فى اليوم حتى لا تكون هاجرا للقرآن ، فمنهم من ينصحك بان تقرا عشرة اجزاء فى اليوم ، لتكمل القرآن كل ثلاثة ايام ، ومنهم من يخفف عنك فيكتفى بقراءة جزء فى اليوم لتكمـــل القرآن مرة فى الشهر ، وبين هذين القولين اقوال عديدة تختلف تشددا وتخفيفا ، ولكنها تجتمع كلها فى ان الانسان يخسر كثيرا اذا هجر القرآن يوما كامـــلا .

ومما لاشك فيه أن المسلم اذا حافظ على الصلاة لا يكون هاجرا للقرآن ، لانه لا صـــلاة بدون القرآن ، ولأن الصـــلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، يؤدونها كل يوم خمس مرات ، فضلا عن السنن والنوافل ، ومما لاشـــك فيه ايضا أن اليسر الذى يتخذه الاســـلام منهجا يلفتنا الى قوله تعالى ((**فاقرءوا ما تيسر من القرآن**))(٩) كل يقرأ ما يتيسر له . المهم الا تكون كالبيت الخرب ، ألا يخلو جوفك من القرآن ، المهم أن تقرأ وتستمع وتنتفع ولا تهجر القرآن ، وتعرف ان هـــذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيدينا ، فاذا تمسكنا به لن نضـــل ابدا .

---

(٩) الآية رقم ٢٠ من سورة المزمل .

وارجو الا يتطرق الى ذهنك فى لحظـــة من اللحظات اننا نريد ان نقصر العلم الذى يدعو الاسلام اليه على علوم القرآن والدراسات الدينية ، اننا نريد ان ندعو كل علمـــاء المسلمين مهما يكن تخصصهم ، فى الطب ، فى الهندسة ، فى الكيمياء ، فى النبات ، فى الحيوان ، فى اى مجـــال من مجالات العلم الكثيرة المتنوعة ، ان يكونوا على صلة بالقرآن ، والا يهجروا القرآن ، بل انهـــا دعوة الى كل مسلم وكل مسلمة فوق هـــذا الكوكب وفى اى جيل من الاجيـــال .

ان الاسلام يدعو الى العلم فى كل مجالاته ، ويقدره فى كل تخصصاته ، ان الاسلام لا يرفض من العلوم الا علما ينكر الدين أو يضر بالعقيدة ، اننا لا نقبل مثل هـــذا العلم لانه فى الحقيقة ليس علما ، انه ينكر الواقـــع ، ويتنكر لاعظم حقيقة علميـــة صادقة ، ولن تعجب من تشـــددنا فى هـــذا الموقف ، موقف رفضنا لأى علم ينكر الدين ، لن تعجب من ذلك حينما تعرف اننـــا بالدرجة نفسها نرفض أى دين يرفض العلم ، ان الارتبـــاط بين الدين والعلم فى الاســـلام ارتباط عضوى لا ينفصم ، ان الاسلام يسمو بمداد العلماء وهو كما تعرف مداد كأى مداد ، ولكنه فى أيدى العلماء يستمد قدســـية تساويه بدماء الشهداء ، وهى اغلى الدماء ، واعظم الدماء ، ان مداد العلماء يسيل من اجل اكرم رسالة ، دفع الجهل وتبديد الظلمات ، ودماء الشهداء تسال من اجل اشرف غاية ، دفع الظلم وتدمير العدوان !

من اجل ذلك يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدم الشهداء ، فاذا كان العقل السليم الذى اهتدى الى الاســـلام قد حقق النور الاساسى ، فان العلم يضيف اليه نورا جديدا « **يرفـــع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجـــات** »(١٠) .

---

(١٠) الآية رقم ١١ من سورة المجادلة .

صحيح ان الايمان هو النور الأساسى ، بل هو احياء النفس كما تصوره الآية الكريمة ((**أو من كان ميتا فاحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟**))(١١) فمن ظل على كفره وضلاله فهو فى ظلمات لم يخرج منها ، اما من اهتدى الى الاسلام فقد احياه الله وجعل له نورا يمشى به فى الناس ، لأن الاسلام حى فى اول درجاته يقدم للمسلم قدرا من العلم الأساسى ((**فاعلم انه لا آله الا الله**))(١٢) ولكن المسلم الذى يضيف الى اعتناق الاسلام سعيا الى العلم والمعرفة يزداد نورا على نور ((**هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ !**))(١٣) وحتى الذين يعلمون ليسوا سواء ، انهم درجات ((**وفوق كل ذى علم عليم**))(١٤) ان العلم بحر لا ساحل له ، وكلما ازداد الانسان علما كلما عرف انه لا يزال فى حاجة الى العلم ، **كلما ارتوى من العلم احبه وتعشقه** ، واكتشف انه لا يزال بعيدا عن الغاية (لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن انه علم فقد جهل) وهل هناك أجهل ممن يظن انه بلغ من العلم اقصاه ؟ ان المخلص فى طلب العلم لا يشبع ، كلما فرح بمعرفة جديدة ، تطلع الى السماء فى شوق وحب ((**رب زدنى علما**))(١٥) فالعلم فى الاسلام رغبة تعشق (من اراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن اراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن **ارادهما معا فعلية بالعلم**) ولو اردت ان ترى البلاغة والاعجاز ، وان تتذوق البيان الجميل والتصوير المؤثر ،

---

(١١) الآية رقم ١٢٢ من سورة الانعام .

(١٢) الآية رقم ١٩ من سورة محمد .

(١٣) الآية رقم ٩ من سورة الزمر .

(١٤) الآية رقم ٧٦ من سورة يوسف .

(١٥) الآية رقم ١١٤ من سورة طه .

فانظر الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم) يا لاروعة ! الملائكة الاطهار تضع اجنحتها ، تخفضها احتراما لطالب العلم ، فماذا تفعل اذن لمعلم العلم ... ؟ لك أن تتصور ، وتسبح فى بحار التصور .

ان طالب العلم يلقى احترام الملائكة لانه فى طريقه الى الجنة ، وهل يسلك الانسان طريقا الى العلم دون ان يسلك بذلك طريقا الى الجنة ؟ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله ربه رحمة للعالمين يبشرنا (ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيه علما الا سهل الله له به طريقا الى الجنة) ، بل ان النعمة التى تحس بها أثناء اكتشافك لشىء جديد او قراءك لفكر جديد ، تغمرك بالسعادة ، وتملأ نفسك بالمرح والسرور والدهشة والعجب ، لأن شيئا بهذه الدرجة من الجمال والروعة قد ظهر لك ؛ او لأن فكرا بهذه الدرجة من الذكاء والعمق والاثارة قد وصل اليه علم الانسان .

ومن هنا ايضا كان طلب العلم فى الاسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ، اى انه ليس واجبا ضروريا فحسب ، ولكنه واجب دينى كذلك ، لأن اختيار كلمة (فريضة) يؤكد ان الاسلام ينظر الى العلم على أنه عبادة من العبادات ، بل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فضل مجلس العلم على مجلس العبادة ، واختار مجلس العلم لينضم اليه ، وقال كلماته الخالدة فى سمع الزمان (مجلس علم خير من عبادة سبعين سنة) خير من ؟ اى انه لا يعادل عبادة سبعين سنة فحسب ، وانما هو خير منها ، خير منها كم ضعفا ؟ كم مرة ؟ لك ان تتصور ما تشاء ؛ لأنه ليس من طبيعة الاسلام تحديد هذه الأمور ، والله يضاعف لمن يشاء ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

(يا ابا ذر ، لان تغدو فتعلم آية من كتـــاب الله خير لك من ان تصلى مائة ركعة ، ولان تغدو فتعلم بابا من العلم ، عمل به او لم يعمل ، خير من ان تصلى الف ركعة) فاذا سمعت بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أفضـــل الصـــدقة ان يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخـــاه المسلم) فانك لابد مبادر الى افضل الصـــدقة .

اية سعادة يمكن للانسان ان يحققها لنفسه وللناس عن طريق العلم ؟ بل اية متعة روحيـــة يرتقى اليها المسلم اذا احسن استخدام مواهبه فى تحصيل العلم ، واكتشاف الجديد فى عـــالم النفس او فى عالم الاكوان .

ولمـــا كان العقـــل هـــو اداة العـــلم ، فقـــد احتفـــل الاســـلام بالعقـــل احتفـــالا شـــديدا ، وجعـــله اســـاس التكليف ، وفضـــل به الانسان على سائر المخلوقات ، ولعلك تعرف ان الاســـلام لهذا حرم الخمر ، وحرم كل ما يجور على العقل او ينقص منه ان تحريم الخمر فى الاسلام يؤكد احترام الاسلام العقل واعتزازه به ، وتأثيم كل ما يمسه بسوء ، واقرا هذا البيت الذى يندم فيه صاحبه على ما شرب من خمر ، بل انه لا يصرح باســـمها اشمئزازا منه ، وانمـــا يسميهـــا (الاثم)

شربت الاثم حتى ضل عقلى كذاك الاثم تذهب بالعقول

فليكن اهتمامك بعقلك فوق كل اهتمـــام ، انى اعرف كثـــيرا من الناس يعنون كل العناية بنظافة احذيتهم وهـــذا جميل ، انه امر نغبطهم عليه ، ولكنهم لا يوجهون معشـــار هـــذه العنايـــة لتنظيف عقولهم ، بل انهم يضيقون بها ويعرضونها للمهالك . واياك ان يغرك بيت ابى الطيب ، انه بيت خادع ، قاله تحت ظروف معينة ، فلا تصـــدقه ابدا فى قوله :

ذو العقـــل يشـــقى فى النعيم بعقـــله
واخـــو الجهـــالة فى الشـــقاوة ينعم

فالشعر كما تعلم ليس علما ، انه فن ، اى انه يعبر عن وجدان الشاعر فى لحظة من اللحظـــات ، ولا يرقى لمستوى الحقـــائق العلميـــة .

لا تصدق ان العاقل يشقى بعقله ، ان أبا الطيب معروف بمبالغاته المتطرفة ، انه يجعل العاقل شقيا وهو فى النعيم ، تصور ! ويجعل الجـــاهل سعيدا بجهله وهو فى الشقاء .

تأمل هـــذه المعانى وتعجب ، هل يشقى العاقل فى النعيم ؟ فأن عقله اذن ؟ وهم ينعم الجـــاهل وهو محاط بالشقاء ، فأين جهـــله اذن ؟

لا ، لا تستمتع الى هـــذا البيت الخادع ، ولا تظلم العقل فتظلم نفسك وتظلم الحقيقة ، ان العقل حبيبك وصديقك ، انه عونك فى الحيـــاة ، اياك ان تفرط فيه او تغفل عن رعايتـــه ، التمس له العلم النافع ، وتطلع به الى الســـماء ، الى الافـــق الاعلى ، الى حيث السعادة الحقيقية ، ولا تكف ابدا عن الدعاء الصـــادق النبيل .

« رب زدنى علمـــا »

الفصـــل الثامـــن

العمـــــل

هل سمعت ما يتردد فى الأوساط العلمية فى اوربا وامريكا ؟ انهم ينتظرون يوما تتقدم فيه المخترعات وتكثر الآلات لتقوم بالعمل بدلا من الانسان ، ويظنون ان الانسان سيبقى حينئذ بلا عمل ، وانه سيكون سعيدا بذلك .. وحتى « برتراند راسل » الذى تحظى افكاره بثقة الكثيرين ، يدعو الناس الى تهيئة انفسهم لهذا الوضـــع منذ الآن .

هذا ما يتردد هنـــاك ، أما الذى تردده الأوساط هنا ، فهو ان العمل لعنة حلت بالانسان منذ ان طرد آدم من الجنة .. بل ان شيخا كبيرا تحظى افكاره بثقة الكثيرين ايضـــا ، ظهر على شاشة التلفزيون ، وهو حين يظهر على الشاشة تكون الجماهير فى انتظاره لعلمه وفضـــله وبلاغته ، وكان فى هذه المرة يتحدث عن آدم عليه السلام ، وبالرغم من انه كان يفسر سورة البقرة الا انه تعرض لتفسير الآية الكريمة ((**فقلنا يا آدم ان هـــذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**))(١) من سورة طه، وهو اسلوب فى التفسير معروف ، فان آيات القرآن يفسر بعضها بعضا ، ولكن المدهش ان فضيلته فسر الشقاء بالعمل ، ثم اتجه الى الناحيـــة اللغوية .. فقـــال ان الخروج واقع على المثنى (فلا يخرجنكما) يا آدم انت وحواء ، ولكن الشقاء مسند الى

---

(١) الآية رقم ١١٧ من سورة طه .

المفرد (فتشقى) اى يا آدم ، وبهذا يكون آدم وحده هو الذى يعمل ويشقى(٢) .

يا سبحان الله ! كان المراة فى بيتها لا تعمل ، وكان تفسير الشقاء بالعمل امر مسلم به .. ان الانسان يحب العمل بفطرته ، ويسعد به سعادة لا حد لها .. هـذا هو الأصـل ، اما كره العمل او احتقاره او الفرار منه او الشقاء به ، فتلك امور طارئة ثانوى من فساد التربية او انحراف الاعـلام او اضطراب البيئة او الممارسة الخاطئة للعمل .

ولسائل ان يسأل فى عجب ، هل يكون الانسان سعيدا حقا بلا عمـل .

فكر فى هذا السؤال ، انى ارى السعادة تغمرنى مرتين بسبب العمل ، مرة اثناء العمل نفسه ، ومرة عند نهايته والوصول الى ثمرتـه .

ولا ازال اذكر قـولا قرأته منذ عشرات السـنين للكاتب الفرنسى فولتير ، يقول فيه (ان العمـل ينقذنا من ثلاثة امور خطيرة ، ينقذنا من الملل ، ومن الحاجـة ، ومن التفرغ للرذيلة) اى ان العمل فى نظر فولتير يغلق كثيرا من ابواب الشقاء ، ويفتح العديد من ابواب السعادة .

---

(٢) هو فضيلة الشيخ محمد متولى الشـعراوى الذى نحبه ونحترمه لعلمه وزكائه وفضله ، ولكن العـلم البشـرى مهمـا بلغ عـلم قاصـر ، ويقول الشاعر : (كفى المرء نبلا ان تعد معايبه) .

اما علماء النفس فيقدمون لك نصيحة غالية لكى تسعد بالعمل وتنجح فيه (اذا لم تعمل ما تحب ، فعليك ان تحب ما تعمل) اى أن الحب شرط اساسى .

ولعل ما ذكره « منتيجيو » يكشف لنا بعض اسباب الشكوى التى نسمعها عن العمل (يبدو أن هذا الحب الصادق للعمل يشبه غيره من انواع الحب فى ضرورة كتمانه والتفنن فى هذا الكتمان ، فلابد ان هناك شيئا يمنع المحامى من التصريح **بانه سيظل محبا لمهنته لما تحرك فى نفسه من اثارة وسعادة** ، حتى لو تهرب موكله من الوفاء بما التزم به .. وفى كل ناحية من النواحى نجد العامل المجهد السعيد يضم شفتيه على حبه لعمله ، خوفا من النتائج التى يتوقعها اذا اظهر شدة فرحه بالعمل او كثرة ثنائه على مهنته)(٣) .

واكاد اصدق هذا الرجل ، فانى لا اظن ان هناك انسانا فى الارض لم يجرب — ولو مرة فى حياته — ان قام بعمل ينفعه او ينفع غيره من الناس ، واحس بالسعادة تملأ كيانه كله ، حينما انجز هذا العمل ، او حينما راى ثمرته ، اما من يعملون الصالحات ، اما من يعملون ويحسنون ، فانهم يعرفون هذه السعادة مرات عديدة فى اليوم الواحد .

من اجل ذلك نجد الاسلام لا يدعونا الى العمل فحسب ، لا يدعو الى العمل كما يدعو فولتير لينقذنا من الملل والحاجة والرذيلة فحسب ، وانما يدعو الى العمل الذى يحقق لك السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، يدعو الى العمل الصالح الذى

---

(٣) « عندما يكشف الكاتب اسرار مهنته » ص ٢٤٠ ترجمة الدكتور كامل البوهى .

تشعر اثناء القيام به بسعادة غامرة ، وتشعر بعد الانتهاء منه بالفوز العظيم ... هل تظن انى ابذل الجهد فى طلب العلم ثم اكتب لك واسهر ، وادفع بما كتبته الى المطبعة واجرى .. الا لأنى اشعر بالسعادة فى هذا العمل ؟

بل هل تقرأ انت هذا الكتاب ، وتبذل جهدا فى القراءة بغير شك ، **الا لانك** تشعر بلون من الوان السعادة فى قراءته .

ان الاسلام حينما يدعو الى التسابق فى الخير ((**فاستبقوا الخيرات**))(٤) ، لا يعفى احدا من العمل بحجة انه غير محتاج الى ان يعمل . ان العمل فى نظر الاسلام ليس لسد الحاجة المادية فحسب (يا فاطمة بنت محمد ، اعملى ، فلن أغنى عنك من الله شيئا) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى أهل بيته (لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم) ثم ينادى كل انسان فى هذه الأرض مؤكدا على اهمية العمل (من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

انتم فى الشرق والغرب لا تزالون يناقشون هذه القضية ويختلفون فيها ، هل يسعد الانسان بالعمل ام يشقى ؟ وقد حسمها الاسلام منذ مئات السنين .. ان كلمة العمل من اكثر الكلمات دورانا فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، ولكن هذه النصوص الاسلامية لا تتحدث عن مجرد العمل ، وانما تتحدث عن هدفه وعن اسلوبه ، وتقرر دائما ان العمل الصالح يسعد صاحبه ، وان العمل السيء يشقى به صاحبه

---

(٤) الآية رقم ١٤٨ من سورة البقرة .

((**من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون**))(٥) ولعل هذا الوضوح لا يترك مجالا للخلافات والمناقشات حول نوع العمل المطلوب ، انه واضح انه العمل الصالح ، اما عن الهدف فان اشهر الاحاديث النبوية قول النبى صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى)(٦) .

واظنك لا تشك لحظة فى ان المؤمن الصادق يسعد كل السعادة وهو يعمل ويحسن عمله ، ويذكر اثناء العمل ان الله يراه ويرضى عنه ، وان رسول الله يراه ، وان المؤمنين جميعا سيرون عمله ، وان نتيجته الطيبة سوف تعرض على الله فى النهاية ، فينبئه بما عمل ، ويشكره ، ويكافئه ، ((**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون**))(٧) ولا تنطبق هذه القاعدة على عمل دون آخر ، انها شاملة ، وسواء اكان العمل كبيرا ام صغيرا فانه يعرض ، ان الرسام الذى تعرض لوحاته ، ويقبل الجمهور على رؤيتها ، يسعد كثيرا بهذا العرض لاعماله ، لا سيما اذا تكرم السيد وزير الثقافة او مندوبه ، فشرف المعرض ، واعتقد انك معى فى ان هذا ليس شيئا بجانب ما نتحدث عنه ، انه لا يقاس بشعور المؤمن وهو على يقين من ان عمله سيعرض على رب الملك والملكوت ، وان رسول الله سيفرح به ويهنئه ، وان المؤمنين كذلك سيرونه ويغبطونه ، وليس ادل على الاهتمام بالعمل ايا كان مجاله وايا كان قدره ، من قول الله سبحانه

---

(٥) الآية رقم ٤٦ من سورة فصلت .

(٦) البخارى .

(٧) الآية رقم ١٠٥ من سورة التوبة .

« فمن يعمـــل مثقال ذرة خـــيرا يره ، ومن يعمل مثقـــال ذرة شرا يره »(٨) .

وقد كان رســـول الله صلى الله عليه وسلم ينبه النـــاس بكل وسيلة الى عدم الاستهانة بأى عمل ، فقد اخرج البيهقى عن انس رضى الله عنه أن سائلا اتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله ، فأعطـــاه النبى تمرة ، فقال السائل : سبحان الله ! نبى يتصـــدق بتمرة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (او ما علمت ان فيها مثاقيل ذر كثيرة) وهو عليه الصـــلاة والسلام يشير بهذا الى الآيتين السابقتين من سورة الزلزلة .

ونريد هنا أن نؤكد امرا نظنه فى حاجة الى زيادة بيان ، وهو أن العمل فى الاسلام يشمل العطاء ، ويشمل القول ، ويشمل كل نشاط للجوارح ، بل ويشمل الاشـــارة ، ولذلك كان الغمز والمز محسوبا على صاحبه ، والحساب فى الدنيا والآخرة يكون على كل ذلك ، فحينما نقرأ قول الله سبحانه **« الذى خـــلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عمـــلا »**(٩) فاننا نفهم منه ان الحياة كلها بالنسبة للمسلم مباراة فى حسن العمل ، كل عمل ، وكل قول ، وكل اشارة ، وكل نية .

اما العمل بالمعنى الخاص الذى تحدث عنه « برتراند راسل » « وفوايتر » « ومنسبيو » وغيرهم ، العمل فى الانتـــاج المـــادى ، فاننا نعلم علم اليقين ان الدين ليس بمعزل عنه ، لانه ليس بمعزل عن الحياة ، بل انه هو الحياة ، ولذلك يدفع ابناءه الى العمـــل

---

(٨) الايتان الاخيرتان من سورة الزلزلة .

(٩) الاية رقم ٢ من سورة الملك .

المنتج ويرغبهم فيه بكل سبيل ، حتى يقبلوا عليه محبين له سعداء به ، لا متبرمين منه ولا اشقياء بمزاولته ، ومن بين ذلك ما نقرأه عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه كان يأبى الا أن يشارك اصحابه فى العمل ، سواء فى البناء او فى الجهاد ، او فى الحراسة او فى غيرها ، كما كان يقول لهم (ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا العمل فى طلب المعيشة) ويؤكد لهم بقوله وعمله انهم القوة الفعالة فى الوجود ، لأنهم يستمدون قوتهم من الله ، ولذلك فقد ترك عليه الصلاة والسلام للانسانية كما ترى أعظم نهر يجرى فى عروق الحياة .. فاذا كان احد الناس غنيا عن العمل فى طلب المعيشة ؛ فان امامه مجالات واسعة للعمل ، فالساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن غرس غرسا فأكل منه حيوان او انسان او طائر كان له بذلك اجر ؛ وهكذا نجد ان ربط الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، كان من اعظم الدوافع الى العمل وحب العمل ، فانت حين تقرأ ان اطيب الكسب عمل المرء بيده ، وان من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له ، تقبل على العمل بحب ينسيك التاعب ، بل انه فى كثير من الاحيان يقلب التاعب الى سعادة ، ما دمت راضيا عما تعمل ، راجيا من الله القبول ، لقد كان دعاء ابراهيم وولده اسماعيل عند رفع القواعد من البيت الحرام فى مكة ((**ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم**))(١٠) ولعل حبات العرق كانت تتحدر على وجه كل منهما ، وهو يعمل سعيدا بما يعمل .

واخرى اريد ان اشير اليها قبل نهاية هذا الفصل ؛ وهى ان العمل الذى تقوم به ايا كان مجاله ليعرض على الله ، لابد انك سوف تتقنه ، ومن هنا كانت كلمة الاحسان ،

---

(١٠) الآية رقم ١٢٧ من سورة البقرة .

فليس المطلوب منك لكى تسعد بالعمل فى دنياك واخراك هو مجرد العمل ، اى عمل ؟ وانما الذى يحقق لك السعادة الحقيقية هو أن تحسن العمل ... ان حسن النية ، وحسن الدافع ، وحسن الأداء ، هو الأسلوب الذى يمتاز بل عامل عن عامل .

والاخيرة فى هـذا الفصل ، يوضحها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة(١١) فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ، فله بذلك أجر) اى ان فلسفة العمل فى الاسلام قائمة على أساس قدسى ، هو أن العمل عبادة (فله بذلك أجر) وقد ذكرنا فى الفصل الثالث كيف أن العبادة ، قرة عين وسعادة ، فهل يمكن بعد ذلك ان نصدق ان الشقاء هو العمل ، او ان العمل هو اللعنة التى حلت بالانسان عند خروجه من الجنة ؟ !

لقد كان اسلافنا يؤكدون أن الله اذا غضب على قوم منعهم العمل ، ورزقهم الجدل ، واذا رضى عن قوم رزقهم العمل وجنبهم الجدل ، ولذلك فانى أؤكد لك ان اللعنة هى عدم العمل ، او سوء العمل ، وان السعادة كلها فى حسن العمل وحبه ، والاستمرار فيه حتى النهاية ، (خيركم من طال عمره وحسن عمله) .

---

(١١) شتلة النخل الصغيرة .

الفصـــل التاســـع

التركـــيز

لا تحسبن التركيز الذى اعنيه خاصا بالعمل ، والا كان امتدادا للفصل السابق ، وان كان التركيز فى العمل طريقـــا للنجاح ، والنجاح بدوره عنصر من عناصر السعادة .

ولا تحسبنه خاصا بالعلم ، وان كان تركيز الانســـان على فرع من فروع التخصص العلمى من اهم خصـــائص العصر ، وابرز عوامل التقدم .

ولكن التركيز الذى استحق أن يفرد له فصـــل خاص فى كتاب السعادة هو التركيز على تحقيق الهدف .

عليك اذن ان تحدد الهدف اولا ، عليك ان تسأل نفسك من سر وجودك فى هـــذه الحياة ، وعن الغاية التى تتغياها ، والهدف الذى من أجله تعيش .

واياك ان تنزلق فى احد المزالق القديمة ، فقد روى ان احد الملوك فى بلاد الشرق القديم ، اراد ان يعرف سر الحياة وحكمة الوجود ، فارسل الى اكبر علماء العصر ، وكلفه ان يكتب له بحثا فى ذلك ، وغرق العالم فى ابحاثه ، وجاء بعد سبع سنوات الى قصر الملك ومعه قافلة من الابل تحمل بحوثه المستفيضة ، ولكن الملك اطل من شرفة قصره وراى ما تحمل الابل ، فصـــاح بالرجل : ارجع ... اختصر ، فلن استطيع قراءة ذلك كله .

واسفرت جهود العالم فى الاختصـــار عن حمل بعير واحد من المجلدات التى خطها بيده ، ولم يستغرق فى كتابتها أكثر من سنة ، ولكن الملك يصيح فيه من جديد ، ارجع ... اختصر .

وبعد ستة أشهر جاء العـــالم الى قصر الملك ومعه مجلد واحد يحمله فى يده ، وكان الملك فى حالة احتضار ، فقال للعالم فى صوت خافت : اختصر .. فلم تعد فى العمر بقية لاقرأ هذا الكتـــاب .

وعاد العالم فى اليوم التالى ومعه لوحة كتب عليها جملة واحدة فيها ما تمخضت عنه بحوثه فى سر الحيـــاة .. وكانت خاتمة كل هذا الجهد وذلك البحث ، تلك الجملة المليئة بالتعاسة والتشاؤم ، والشقاء .

(يولد الانســـان .. ويقاسى .. ويموت) .

أحذر هذا المنزلق ، فانه عكس ما تؤمن به تماما ، انهـــا نظرية المتشائمين ....

ومنزلق آخر أحذرك منه ، انه منزلق خطير ، يرونه جديدا واراه قديمـــا باليا ، انهم لا يزالون يرددونـــه ويتغنون به ، ويسخرون له اجمل الالحان واعذب الأصـــوات ، ولكن الهدف خبيث ، والحيرة بادية تفصح عن نفسها ، فى كلمات نسمعها ، وكأنها مفروضـــة على النـــاس .. تنشر القـــلق والاضطراب وضياع الهدف والطريق .

جئت لا اعلم من اين ولكنى اتيت

ولقد ابصرت قدامى طريقا فمشيت

وسابقى سائرا ان شئت هذا ام ابيت

كيف جئت ؟ كيف ابصرت طـــريقى ؟

لست ادرى ..

واعتقد انك لست فى حاجة مطلقا الى أن تعبأ بما كتبه العالم المسكين فى لوحته التى قدمها للملك المحتضر ، ولا بهـــا يقوله ايليا ابو ماضى فى هذه الطلاسم .

وانك يمكن ان تنأى بنفسك عن هـــذه المزالق ، وتحدد الهدف الذى يقتنـــع بـــه عاقل مثـــلك ، وســـعيد بايمانه مثلى ومثـــل الكثيرين من السعداء فى هـــذا الكوكب .

ان الهدف واضح ومحدد ، يبينه لنا خالق الارض والسماء، والعليم بأســـباب السعادة والشقاء ، انه يحدد الهـــدف بقوله سبحانه ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**))(١) والعبادة هنا كما تعرف تشمل العمل الصالح من غير شـــك ، كما تشـــمل القول الطيب والخلق الانسانى الرفيع ، فنحن نقرأ فى ســـورة هود توضيحا لهذا الهـــدف ، وربطا للعبـــادة بالعمل الصـــالح ((**وهو الذى خلق الســـموات والأرض فى ستة أيـــام ، وكان عرشه على المـــاء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا**))(٢) ونقرأ فى سورة الملك ((**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**))(٣)

---

(١) الآية رقم ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية رقم ٧ من سورة هود .

(٣) الآية رقم ٢ من سورة الملك .

ونقرأ فى سورة الكهف « **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا** »(٤) .

الهدف واضح اذن ، وهو أن تنجح فى امتحان عام هو حسن العمل ، بل انها مسابقة فى غاية الروعة والامتاع « **ايكم احسن عملا** » مباراة ودية عظيمة ميدانها الحيـــاة كلها ، وجمهورهـــا الكائنات جميعا ، والحكم فيها بصير لا يغفل ، عليم لا يخطىء ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يظلم ربك أحدا .

الهدف كما عرفت وكما يعرف كل من استجاب لهذه الدعوة الى السعادة ، هو فى ايجـــاز شديد : سعادة الدنيا ؛ وســـعادة الآخـــرة .

هـــذا هو الهـــدف .

واذا كان تحديد الهدف هو النقطة الأولى التى تبدأ منهـــا أول خطواتك انطلاقا الى الهدف ، فان كل جهد يبذل فى تحديد هذه النقطة ومعرفة الطريق ، انمـــا هو جهد يعصم صاحبه من أن يضل ، وزورقه من أن يتوه بين شطآن الحياة .... تتخطفه الاهوال أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

سعادة الدنيا والآخرة هى الهدف ، ولكن المحاذير كثيرة ، والاهوال خطيرة ، وأول هذه المحاذير أن تترك الهدف دون تحديد ، فتضطرب حياتك بين شتى السبل .... ولعلك تعرف أن كل السبل غير الطريق المستقيم المؤدى الى الهدف مليئة بالشقاء ، وتذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسم خطـــا مستقيما واضحا كبيرا ، ثم رسم حوله خطوطا كثيرة ملتوية متعرجـــة عن يمينه وشماله ، ثم أشار الى الخط الواضح المستقيم ، وقـــال

---

(٤) الآية رقم ٧ من سورة الكهف .

هذا صراط الله المستقيم ، ثم نبه الى ان ما حول هذا الخط عن يمين وشمال هى خطوط منحرفة ، وهى طرق الضلال وان على راس كل منها شيطانا يدعو اليها ، ثم قرأ قول الله سبحانه **« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »**(٥) .

وثانيها : ان تغفل عن هذا الهدف بعد تحديده ، وتستمر فى الغفلة او تتلكأ فى الطريق .... ولا تصل .

وثالثها : ان تسمح لشياطين الانس والجن ان يجروك الى التيه ، وان يفتحوا لك ابواب الشر ، وما اكثر هذه الابواب واشد التشابك والتداخل بينها ، كل باب منها يؤدى الى ما بعده فى سلسلة لا تنتهى الا الى الجحيم ، وهى ابواب مزخرفة مزدانه، ولكن زخرفها زيف وزينتها خداع ، ومع ذلك فهى محببه الى كثير من النفوس بحيث يصعب على من جذبتهم واحتوتهم ان يخلصوا منها نجيا ، او يخرجوا منها سالمين ، انها تحطم ارادتهم وتضعف قدرتهم على المقاومة ، فلا يستطيعون منها فكاكا ، بل انهم كلما تنبهوا الى ما وصلوا اليه من بعد عن الهدف وانحراف عن الطريق ، وهموا بالخروج مما هم فيه ، شحذ الشيطان اسلحة له جديدة ، وزين لهم سوء اعمالهم ، واستعان عليهم بما فى انفسهم من ضعف وما فى جعبته من اغراء ، حتى يجذبهم لاغراضه ، فيصبحوا بعد ذلك من جنده الخاضعين له تماما ، يتعصبون له ، ويعتنقون مبادئه ، وقد يتفوقون عليه فى الاغراء بالشر ، وهو سعيد بتفوقهم عليه ، فهذا بالضبط هو ما يريده ، . وكيف يغضب من تفوقهم وقد حققوا له اغراضه ، وصار كل منهم عدو نفسه ، وعدو الانسانية ، وهو من فرط غفلته يفخر بذلك ؟ ولعلك سمعت ما يقوله مخبول منهم :

---

(٥) الآية رقم ١٥٣ من سورة الانعام .

وكنت فتى من جنـــد ابليس فارتقى
بى الحال حتى صـــار ابليس من جندى
ولو عشت حتى مـــات احـــدث بعده
دقـــائق شر ليس يحـــدثها بعـــدى

اخى المسلم ، اختى المسلمة :

انى اراك ارجح عقـــلا وابعد نظـــرا من ان تتوهم أن فى استطاعتك الذهاب الى الجحيم والعودة فى ســـلام ، وأنت أرجـــح عقلا وابعد نظرا من ان تشغلك التوافه عن الهدف الاسمى .. فاذا عرفت هـــدفك فابدأ بلا تردد فى الطريق اليه ، لا تســـمح للمشاغل الصغيرة ان تناوشك ، أن تتجاذبك ، أن تبعد بك عن الهدف ، ان رسالتك اسمى رسالة ، ان غايتك انبل غاية ... أن تكون نافعـــا لنفســـك وللناس ، مفتاحا للخير ، مغلاقا للشـــر ، ان تكون عطـــرا فى المجـــالس ، وبلســـما للجراح ، وغوثـــا للملهوف ... ان تركز على هذا الهدف .. وان تصل .

انك فى الحياة قدوة ، لأنك تحمل أشرف الاسماء ، تحمل اسم الاسلام ، وترفع اسمى راية ، راية الاســـلام ، وتسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على على ما ينفعك ..) اياك أن يتطرق الى ذهنك لحظة ان قوله صلى الله عليه وسلم (احرص على ما ينفعك) دعوة الى الأنانية ، حاشـــا لله (احرص على ما ينفعك) لانك مؤمن ، واذا حرص المؤمـــن على ما ينفعـــه فلابـــد أن يعـــود نفعـــه على من حولـــه ، أن المؤمن ينشر عطر الايمان أينما سار ، وحيثما حل ، وكما ان النفس الأمارة بالسوء لا يتوقف اثرها على ان يشقى صاحبها نفسه ، وانما يمتد الشقاء ليشـــمل من حوله ، وقد يمتـــد اكثر واكثر ،

فكذلك المؤمن حينما يحرص على ما ينفعه ، ويسعى دائما لتحقيق هدفه ، وهو هدف نبيل بلا شك ، يمتد نفعه الى من حوله ، وقد يمتد اكثر واكثر .

فاذا قرات قول النبى صلى الله عليه وسلم (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فأعلم انها دعوة الى التركيز ، والى النجاح ، والى السعادة ، لأنك حينما تترك ما لا يعنيك سوف تركز على ما يعنيك ، ولكنها مع ذلك دعوة بعيدة كل البعد عن الأنانية ، لأن اهتمامك بمجتمعك الاسلامى هو من صميم ما يعنيك ، فأنت تعرف انه (من لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم) فامر المسلمين يعنيك قطعا ، وليس من حسن الاسلام ان تتخلى عن هذا الامر ، ولكن من حسن الاسلام ان تترك ما لا يعنيك من توافه الأمور ، ومن الفضول الذى يزعج الناس وينفرهم منك ومن فضولك ، فقد حدث مرة فى قطار ، أن كان احد المسافرين يقرأ مذكراته الخاصة ، ولاحظ ان الراكب الذى يجلس بجواره يتطلع الى ما فى مذكراته ويكاد يقرأ معه كل سطورها ، فأزعجه ذلك ، واراد أن يعطى لجاره الفضولى درسا فى الادب ، فامسك بالقلم وكتب فى هامش المذكرة (ان هذا الفضولى الذى بجانبى يمد عينيه ليقرأ مذكراتى الخاصة ، محاولا أن يكشف اسرارى ، ويتجسس على ...) فصاح الراكب الفضولى انا لم افعل ذلك ، ولم اقرأ شيئا من مذكراتك ، فلم تكتب عنى ما تكتب ؟ وابتسم صاحب المذكرات ، وقال لصاحبه : عفوا يا صديقى ، هل كتبت عنك شيئا ؟ معذرة .. وخجل الفضولى ، ولعله لا ينسى هذا الدرس العظيم .

ان هذه الآداب ليست وليدة الحضارة العصرية ، ان صاحب الرسالة الانسانية العظيمة ، محمدا صلى الله عليه وسلم

يقولها لى ولك وللنـــاس جميعا (من حسن اســـلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

وحتى ما يعتبره أكثر النـــاس جديدا فى الهيئات والشركات وفى المصانع والمصالح والادارات ، ويسمونه « التخطيط والمتابعة » للتركيز على تحقيق الانتاج المستهدف ، ومتابعة الخطة ... الى غير ذلك مما يقال ، ليس قديما مسبوقا فحسب بل أن محمدا صلى الله عليه وسلم وضـــع أساسه من الف واربعمائة سنة لا على مستوى الحكومات والهيئات فقط ، وانما على مستوى كل فرد بعينه ؛ صحيح انه لم يطلق عليـــه هـــذا الاســـم (التخطيط والمتابعة) وانما كان التطبيق عنده اهم من الاسماء والشعارات ، فاذا قال صلى الله عليه وسلم (اذا هممت بأمر فأنظر عاقبته ، فان كان رشـــدا فامضـــه ، وان كان غيا فاجتنبه) فانه بذلك يضع أساسا للتخطيط لا فى برامج الهيئـــات والمؤسسات فحسب ، ولكن فى حياة كل انسان على حده ..

ومما لاشك فيه انه طبق ذلك على نفسه ، وان المسلمين اقتدوا به ، فبلغوا ما بلغوا من الســـعادة ونشروا ما نشروا من الحضـــارة .

واذا كان من المأثورات المعروفة فى حياة المسلمين ما يحفظونه جميعا (حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوا اعمالكم قبل ان توزن عليكم) فانهم بذلك يكونون قد عرفوا المتابعة ومحاسبة النفس ، لا فى نهاية كل عام ، ولا فى ختـــام كل شهر ، بل فى نهاية كل يوم ، وقبل أن يسلم الواحد منهم نفســـه الى النوم ، كان يسأل نفسه عما فعله فى يومه ، ماذا قـــدم ، وماذا اخر ؟ ماذا أنجز وفيم قصر ؟ بل ان كثيرا منهم كان لا ينتظر المساء ليحاسب

نفسه كل مساء ، وانما كان يتابع أعماله لحظة بلحظة ، يحاسب نفسه .. فاذا وجدها قد أخطأت بادر الى اصلاح الخطأ ما استطاع ، وان لم يستطع اصلاحه لجأ الى الله يسأله المتاب ، واتبع السيئة بحسنة تمحوها ، لينام بعد ذلك قرير العين مرتاح الضمير ، انه لم يضع يومه سدى ، ولم يخسر من عمره يوما دون أن يعوضه بعلم اكتسبه ، أو خير قدمه ، او سعادة حققها لنفسه ولغيره ، فاقترب من الهدف خطوة ، او على الأقل تأكد من ثبوت قدميه على الطريق ، طريق السعادة والسعداء ... لم تزل قدمه ... ولم يضع منه الطريق .

الفصـــل العـــاشر

الحـــــرية

كم هى كثيرة تلك القيود التى يصنعها الانسان لنفسه ، او يصنعها له غيره ؟ وكم هى بغيضـــة تلك العراقيل التى يضعها الناس والابالسة فى طريق الحرية ؟ ! وكم هى ثقيلة تلك الاغلال التى يحملها الانسان الظلوم لنفسه ، الجهول بما يسعده .. ! ولعل هـــذا التيار المضاد للفطرة السليمة هو الذى جعل الشاعر العربى الكبير أحمد بن الحسين(١) يتبرم بالحياة وبالناس ويصيح فى سمع الزمـــان :

صحب النـــاس قبلنـــا ذا الزمانـــا
وعنـــاهم مـــن شـــأنه ما عنانـــا
وتولـــوا بغضـــة كلهـــم منـــه
وان ســـر بعضـــهم احيـــانا
كلمـــا انبت الزمـــان قنـــاة(٢)
ركـــب المـــرء فى القنـــاة ســـنانا

وقد يلتقى هـــذا البيت الأخير مع فلسفة شاعر آخر لا يشكو الزمان ، وانما يركز شكواه فى أهل الزمان :

نعيـــب زماننـــا والعيـــب فينـــا
ومـــا لزماننـــا عيـــب ســـوانا

---

(١) ابو الطيب المتنبى .
(٢) الطعن أخيه الانسان .

ومن تلك العيوب المتفشية فى الناس غرامهم بالقيود والاغلال يكبل بها بعضهم بعضا ، يضعون القواعد من عند انفسهم ويلزمون الناس بها كأنها تنزيل من التنزيل ، لم ينتفعوا بما درسوه عن المجتمعات البائدة ، لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم ثم يعبدونها ... !

واذكر اننى منذ سنوات التقيت بمجموعة من العاملين بالفن الاذاعى فى احدى العواصم الأوروبية ، وتحدث أحدهم عن الحرية ، فقال من بين ما قال : انه يعتقد ان القيود فى الاسلام تكبل الناس ، وتفرض على المراة بالذات نوعا قاسيا من الأغلال ، وقد حاول بعض الحاضرين أن يلفته الى وجودى ولكنه تمادى فى حديثه باسم الحرية ، انه يقول ما يعتقد ... وسألت ذلك الشقى عن ما يعنيه بالحرية ، فاحتمى بما وضعوه من تعريف أوروبى لها ... وفوجىء القوم بعربى مسلم يفند لهم التعريف الأوربى للحرية ، وصمتوا أول الأمر ، كأن على رؤوسهم الطير ، ومما لاشك فيه انك سمعت هذا التعريف ، وقد تكون متأثرا بما قاموا به من دعاية له ، فاعتبرته من المسلمات ، ولم تمعن النظر فيه ، ولم تكتشف ما فيه من ثغرات .

الحرية عندهم **أن تفعل ما تشاء** .. دون أن تتعرض لحرية الآخرين .

يا سبحان الله ! انها حضارة تبيح الانتحار ، تبيح للانسان ان يقتل نفسه قتلا أدبيا أو قتلا حقيقيا ، ما دام لا يتعرض لحرية الآخرين ، انها حضارة تبيح الفساد بحكم هذا التعريف الجامع المانع .. ولست أدرى ماذا يجمع ؟ وماذا يمنع ؟ انه

لا يمنع الخمر ما دام شاربها لا يتعرض لحرية الآخرين ، ولا يمنح العلاقات الآثمة ، ما دامت خالية من عنصر الاغتصاب ، ولا يمنع بعد الانتحار الادبى المتمثل فى هذا الفساد لمن يتمتع بهذه الحرية ، أن يضع نهاية لحياته بنفسه ، فينتحر فعلا اذا أراد ، لأنه بانتحاره لا يتعرض لحرية الآخرين .

وكان لابد بعد أن كشفت لهؤلاء الاوروبيين أن تعريفهم للحرية غير جامع ولا مانع ، وطالبتهم بأن يتحرروا من هذا التعريف للحرية ، كان لابد أن اعرض مفهوم الحرية فى الاسلام ، وقسمتها الى ثلاثة أقسام رئيسية :

اولها : تحرير الانسان من العبودية لغير الله ، فقد كانت اول صيحة للحرية الحقيقية فى هذه الارض صيحة الاسلام المدوية « لا آله الا الله » تلك هى كلمة الحرية ، وكلمة الشجاعة والبطولة ، انها كلمة التوحيد ، وكلمة الحياة .

انت حر لأنك تحررت من الخضوع لأصنام الحجر وأصنام البشر ، فليس هناك آله فى الارض ولا فى السماء الا خالق الارض والسماء ، وانت شجاع لأنه لا آلة الا الله ، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك درهما ، ولا من اجلك لحظة ، فممن تخاف ؟ أنت بطل مزود بالشجاعة الأدبية والعماية لأنك لا تخاف أحدا ولا تخاف ابدا ، وكيف تخاف ومعك الله ؟ كيف تخاف وانت لا تعصاه ؟ كيف تخاف من احد وانت مؤمن بأنه لا آله الا الله ؟ !

وثانيها : تحرير الانسان من الخضوع لأهوائه ، ونزواته، وشهواته « **ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** »(٣) .

---

(٣) الآية رقم ٥٠ من سورة القصص .

انكم تتنادون بألقاب السيادة ، وكيف يمكن أن يكون الانسان سيدا وهو عبد لاهوائه ؟ كيف يمكن ان يكون سيدا وقد استعبدته نفسه ؟ ومعروف ان من ملك نفسه عز ، ومن ملكته ذل ، ان الانسان الذى طغت عليه شهواته بحيث تقوده كيف تشاء ، خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، لأنه خسر نفسه ، انه يناصر الباطل ما دام هواه مع الباطل « **ولو اتبع الحق اهواءهم ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** »(٤) .

قل لى بربك : لم يظلم الظالم ويعتدى المعتدى ؟ انه يتبع هواه .

لم يفسد المفسد ، ويفجر الفاجر ؟ انه يتبع هواه .

لم ينقلب الكبار الى طغاة ومجرمى حرب ؟ انهم اتبعوا أهواءهم ، انهم عبيد .. عبيد للشهوات والنزوات والأهواء الطائشة « **بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم** »(٥) ظنوا انهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، وانهم يستطيعون أن يفعلوا ما تمليه عليهم أهواؤهم من أوهام السيطرة على العالم ، واستعباد اهل الأرض ، وخابوا ... لأنهم لا يهتدون بدين ولا علم « **ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس** »(٦) .

وأنتم أيها الأوربيون بلغتم من التقدم ما بلغتم « **فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا** »(٧) .

---

(٤) الآية رقم ٧١ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية رقم ٢٩ من سورة الروم .

(٦) الآية رقم ٢٣ من سورة النجم .

(٧) الآية رقم ١٣٥ من سورة النساء ، ومعناها فلا تتبعوا الهوى الذى يمنعكم أن تعدلوا .

وشعرت أن بعضهم بدأ يتعاطف مع هذه الحرية النظيفة ، فاكملت حديثى .

وثالث هـذه المفاهيم الأساسية للحرية فى الاسلام : التحرر من الخضـوع للتقاليد البالية ، والنظريات المضللة والتعريفات الناقصة التى يقدسها الناس لمجرد انها موروثة عن الآباء .. وقد كانت حملة الاسلام مركزة على هؤلاء الذين تجمدوا عندما ورثوا من التقاليد ، وتحجروا عندما عرفوا من آبائهم واجدادهم ((**واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، او لو كان آباءهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون**))(٨) ان كثيرا من الناس فى انحاء الأرض لا يزالون عبيدا لما ورثوا عن آبائهم واجدادهم من افكار منحرفة اثبت العلم بطلانها ، وهم مع ذلك يتعصبون لها ويسعون لنشرها ((**وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها ، انا وجدنا آباءنا على امة ، وانا على آثارهم مقتدون ، قال أولوا جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما ارسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين**))(٩) .

وفى ظل هذه الحريات العامة كانت حرية المرأة فى الاسلام المثل الفريد فى الحرية المنضبطة ، ولا تظنوا انه من الخلط الساذج ما يطلق على العفيفة فى العالم الاسلامى انها امرأة حرة ، انه ربط بين العفة والحرية مقصود ، له معناه ، وله مغزاه ، فان المرأة التى تتحصن بالعفة هى امرأة حرة ، تحررت من سيطرة الشهوات عليها ، هى سيدة ، سيدة نفسها ، فليست

---

(٨) الآية رقم ١٠٤ من سورة المائدة .

(٩) الآيات من ٢٢ الى ٢٥ من سورة الزخرف .

مستعبدة لهذه النفس ، انها تحررت من العبودية للاهواء الطائشة والنزوات المدمرة ، والشهوات البهيمية ، انها تمارس حريتها فى حدود العفة والادب والكمال الانسانى ، أما اذا انطلقت المرأة وراء أهوائها تفعل ما تمليه عليها نزواتها ، فذلك هو التسيب ، وليس من الحرية الاسلامية فى شىء ، وذلك هو الدمار الذى تشقى به البشرية ، وان كان لا يتعرض لحرية الآخرين(١٠) .

هل رايت يا اخى كيف يستطيع الشيطان ان يزين للناس الفساد ، ويدفعهم الى الشقاء باسم الحرية البعيدة عن الضوابط **« ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون »**(١١) .

ومع أن القرآن الكريم قد حذرنا اشد التحذير واقواه من أحابيل الشيطان ، فان كثيرا من الناس لا يزالون خاضعين لامره ، منفذين لتخطيطه ، ومن ابتعد عن الايمان فلابد ان يتلقفه الشيطان ، الا تذكر قول ابراهيم لابيه : **« يا ابت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا »**(١٢)

---

(١٠) لا ازال اذكر هذا اللقاء كأنه وقع بالامس ، واذكر ان شابا من الحاضرين اراد أن يغير موضوع الحديث فسألنى سؤالا يكشف عن ضحالة ما يعرفه الناس هناك عن الاسلام ، قال : هل ترجمتم القرآن الى اللغة العربية ؟ فأجبته فى هدوء : ومن أية لغة نترجمه الى العربية ؟ فقال : من الاصل التركى طبعا ، لقد ظن ان الدولة العثمانية هى أصل الاسلام ، وكان من السهل أن أرده الى الصواب ، وأبين له أن القرآن الكريم لا يسمى قرانا الا فى لغته العربية ، ومهما ترجمت معانيه الى أية لغة فانه لا يسمى قرانا ، وانما يسمى ترجمة لمعانى القرآن .

(١١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزخرف .

(١٢) الآية رقم ٤٥ من سورة مريم .

الا تذكر قول الحق جل جلاله « **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواءتهما ، انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون** »(١٣) ومما لاشك فيه اننا متفقون على ان الحرية من أهم عناصر السعادة ، ولكننا نختلف فى مفهوم الحرية .

ان من يرى ان الحرية تكون بلا حدود يقع فى الفخ ، ولا يتبين ذلك الا بعد ان يكون قد أصبح عبدا للشيطان، يقوده حيث يشاء ، عبدا للشهوات والاهواء ، ضحية لبعض الافكار الضالة المضلة ، اسيرا للعادات المتحكمة فى حياته .. لقد فقد حريته تماما باسم الحرية المطلقة .

اما الحرية التى يسعد بها صاحبها حقا فهى كما ذكرنا ، فى التحرر من عبادة غير الله ، وفى التحرر من سيطرة الاهواء والشهوات ، وفى التحرر من سلطان التقاليد البالية وسيطرة العادات المتحجرة .. ففى ظل التحرر من عبادة غير الله يقضى على دكتاتورية الحاكم ، وكهنوت رجال الدين ، بل انه ليس فى الاسلام ما يسمى برجال الدين ، كل مسلم من حقه ان يتصل بربه فى صلاة خاشعة ، وان يقرأ كتاب ربه فيفهم عنه ويقرر لنفسه من خلال ما فهم بنفسه ، او بالاستعانة بأهل العلم ، فعلماء الدين فى الاسلام ليس لهم سلطان على الناس ، وانما هم علماء يدعون الى الله ، ويرشدون من يلجأ اليهم ليسالهم فى امر يستطع ان يفهمه بنفسه .

وكما حرر الاسلام ابناءه مما كان يدعيه الكهنة لانفسهم

---

(١٣) الاية رقم ٢٧ من سورة الاعراف .

من وساطة بين الله وبين العباد ، حرر كل المواطنين من دكتاتورية الحاكم اذا سولت له نفسه أن ينتقص من حريتهم ، وليست قصة القبطى فى مصر وابن عمرو بن العاص التى حسمها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة ، بغائبة عن الاذهان ، فقد غضب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما تبين له ان ابن الوالى فى مصر ضرب احد ابنائها قائلا (خذها وانا ابن الاكرمين) ولا زالت صيحة ابن الخطاب تدوى فى سمع الزمان (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا) يا سبحان الله ! ليست الحرية فى الاسلام منحة يتفضل بها حاكم على شعبه ، انها حق الانسان بحكم ولادته انسانا (وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

وفى ظل التحرر من سيطرة الأهـــواء والشهوات يصـــون الانسان نفسه عما يدنسها ، ويعيش آمنا من العثرات ، ومن السقوط فى الهاويـــة .

وفى ظل التحرر من التقاليد البالية ينطـــلق الفكر دون قيد الا قيد العقل الذى يلتقى مع شرع الله فيخضـــع كل النظريات والأفكار الموروثة لسلطان العقل وميزان الدين ..

ليس الاسلام اذن هو الذى يقيد الانسان ويعوق انطلاقه ، ليس الاسلام هو الذى يكبل الانسان ويضع فى طريقه العراقيل ، بل انه جاء ليطـلق ملكات الانســان ويفك ما كانت ترســف فيـــه الانسانية من قيود ، وينص القرآن الكريم على أن محمدا صلى الله عليه وسلم ارسله ربه للنـــاس ((**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضـــع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم**))(١٤) .

---

(١٤) الآية رقم ٥٧ من سورة الاعراف .

لقد وضع الاسلام اذن عن الناس اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، ان الاسلام يكره القيود والسلاسل ويمقت الاغلال والاصفاد ، ويجعلها عقوبة لمن تهاون فى حريته وأسلم قيادة للشيطان ، اما عباد الله السعداء فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ان القيود فى الاسلام ملعونة لا تطوق الى الملاعين ، والملعون هو المطرود من رحمة الله ، ومن الكلمات التى تدور على السنة المسلمين تعرف كيف يكرهون القيود (قيد الحديد عسر ، وقيد الحرير لا ينكسر ، لعن الله القيد كله) .. كما أن هذا البيت الساخر الذى يردده طلاب العلم فى المعاهد الاسلامية تصويرا لعجز مسلوب الحرية ، كيف يكون أهلا للتكليف والمساءلة ، يبين مدى تقديس الاسلام للحرية :

القاه فى اليم مكتوفا وقال له
اياك اياك ان تبتل بالماء !

ومن المؤكد انك تعرف ان الاسلام جعل الحرية شرطا اساسيا فى التكليف والمسئولية ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (رفع عن امتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه) فالمكره فى منطق الاسلام لا يحاسب ، ولا اظن انى فى حاجة الى التأكيد بأن الاسلام يمنع الاكراه ، حتى فى اهم ما يدعو اليه ، يمنع الاكراه فى الدين **((لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى))**(١٥) انه فى دعوته للناس الى الايمان يكتفى ببيان الرشد من الغى ، وبعد هذا البيان لا يجبر احدا على اعتناق الاسلام **((بل الانسان على نفسه بصيره))**(١٦) .

---

(١٥) الآية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة .
(١٦) الآية رقم ١٤ من سورة القيامة .

وليس من حق الآباء ان يكرهوا ابناءهم على المعصية **« وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما »**(١٧) ولا من حق الاب ان يزوج ابنته لمن لا ترضاه ومعروفة قصة الفتاة التى جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول له : (ان ابى زوجنى من ابن اخيه ليرفع بى خسيسته) فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ان تجيز هذا الزواج او تبطله ، واكد لها ان اباها ليس له ان يرغمها على الزواج ممن لا ترضاه .. كما ان قصة الخنساء بنت خزام التى زوجها ابوها لرجل تكرهه فرد الرسول صلى الله عليه وسلم زواجها .. قصة معروفة ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك واضح وصريح (لا تزوج الايم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن) .

واباحة الطلاق بعد ذلك ايضا ما هى الا استجابة لنداء الحرية ، فليس الزواج فى الاسلام قيدا لا يمكن الفكاك منه مهما ثبت فشله وتأكد شقاء الزوجين به ، بل ان اسم الطلاق نفسه يدل على انه باب للحرية ، ولكنها الحرية المتوازنة التى تسد ابواب الشقاء وتفتح ابواب الحياة السعيدة **« فامساك بمعروف او تسريح باحسان »**(١٨) ان العلاقة الزوجية يحوطها المعروف والاحسان ، عند استمرار العشرة بالمعروف ، وذلك هو الأصل ، وعند الفراق بالاحسان وذلك هو الاستثناء للضرورة حينما يثبت فشل الحياة الزوجية **« وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته »**(١٩) .

وكما ان للزوج الحق فى ايقاع الطلاق اذا كان النفور من جانبه ، ورأى ان استمرار الحياة الزوجية معناه استمرار

---

(١٧)

(١٨) الآية رقم ٢٢٩ من سورة البقرة .

(١٩) الآية رقم ١٣٠ من سورة النساء .

الشقاء ، فان للزوجة ايضـــا طلب الطلاق اذا رأت ان استمرار الحياة الزوجية ينغص حياتها ويحملها ما لا تطيق .. هذا فضـــلا عن أن للزوجين المنفصلين أن يعودا للزواج مرة ومرة بعد التجربة الاولى والثانية ، انها الحرية المنضبطة اذن ، الحرية التى ترعى حقوق الزوجين والاولاد وسعادة الزوجين والاولاد .

ويتضح من هـذا كله أن الاسلام يحرر الناس من الضغوط النفسية والاجتماعية التى تشقيهم ، ويكفل الحرية الكاملة لكل من الرجل والمراة فى اختيـار شريك الحياة ، وفى استمرار العلاقـة بعد التجربة او انهائها ، كما يكفل الحـرية الكاملة للانسـان فى اختيار ما يسعده من علم ، وما يناسبه من عمل ، وما يراه موافقا له من اتجـاه فى الحياة ، وذلك كله فى حدود الاطار العام الذى يحقق للبشرية الفاضلة ان تحيا سعيدة فى دنياها ، وتلقى جزاء ذلك سعادة ابدية فى اخراها .

واستأذنك فى النهاية ان أهمس فى أذنك ان الانسان لا يكون حرا اذا كان يطلب الحرية لنفسه ويأباها لغيره .

انه ان فعل ذلك مريض يحتاج الى عـلاج .. هل تحس بالمتعة والسعادة فى قصر منيف يطل على المقابر ؟

فـلا نـزلت عـلى ولا بـأرضى
سجـائب ليس تنظيـم البـلادا

الفصل الحـــادى عشر

والأمـــل دائمـــا

اعرف كثيرا من النـــاس حققوا كل ما كانت تصـــبو اليه نفوسهم ، بل واعرف كثيرا من بلغوا اكثر مما كانت تمتد اليه آمالهم ، لأن آمالهم كانت متواضـــعة اول الأمر ، فلمـــا تحققت اعتبروها مرحلة اولى ، وامتد طموحهم الى قمم اعلى ، ولعلك تسمع عن نظرية فى الاقتصاد تقول (كلما حقق الانسان حاجـــة من حاجاته ... ظهرت له حاجة اخرى اكثر الحاحا) ولكن هذه النظرية لم تظهر فى الغرب الا فى العصر الحديث ، بينما تعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اربعة عشر قرنا كان ينبـــه الناس الى هذه الطبيعة البشرية بقوله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى ثالثا) .

وقد حدثتنى نفسى مرة ، وانا استاذ باحدى الجامعـــات فى اوروبا ، اننى بلغت منتهى آمالى ومع ذلك لا استطيع التوقف ، فسألت نفسى ما هو الهدف بعد هـــذه المرحلة ، ؟ ولمـــاذا اسعى واجـــد ولا اتوقف ؟ فاذا الجواب يأتينى واضحا وبـــلا تردد : الهدف النهـــائى هو الجنة ، هو ابتغاء مرضـــاة الله ، ونظمت فى ذلك ابياتا بدأتها بهذين البيتين :

دعـــانى طموحى للمعـــالى وعندمـــا
بلغت ذراهـــا طـــال شـــوقى لغيرها
لمـــا عتد ربى مـــن نعيـــم وجنـــة
حنينى اليهـــا ظلهـــا وعبيرهـــا

ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بلا أمل ، قد تتغير الآمال وتختلف حسب مراحل العمر وحسب البيئة والثقافة وظروف الحياة ، ولكن الطموح لا يتوقف أبدا ، وقد يحلو لبعض الزهاد ان يعتبر ذلك آفة من آفات الانسان ، ولكنا نراه طبيعة من طبائع الناس يمكن أن تنقلب عند بعضهم الى آفة مدمرة ، وطمع قاتل ، وتنقلب عند الآخرين الى رغبات خيرة ، وطموح محمود . ودافع قوى الى العلم النافع والعمل الصالح والفوز العظيم .

والنفس من خيرها في خير عافية
والنفس من شرها في مرتع وخم

فبينما يحاول الزهاد قمع آمالهم ويتغنون كثيرا بقول الشاعر :

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

ويرون الطموح آفة ، وكأن الطموح لا يكون الا ماديا بحتا ، فان طموحنا يمتد ويمتد ويرقى ويرقى ليصل الى رضوان الله ، لا تعجب لهذا الخلاف ، فسوف تقرأ في الفصل القادم ان شاء الله عن التوازن الذى يضبط هذا كله .

ولكن قل لى بربك ، هل تظن أن الانسان الذى حقق كل امالة ، لم تصادفه عقبات فى الطريق ، لم يفشل مرة فى تحقيق هدف من اهدافه ؟ أن هذا هو المحال بعينه ، فالطريق الى النجاح ملىء بالعقبات ، قد يفشل الانسان مرة ومرة ، ولكنه مع ذلك مثابر ، عينه على الهدف ، يضمد الجراح كل مرة ، ويقاوم اليأس ويدفعه الأمل من جديد .

قد يفقد الانسان ماله كله ، وحينئذ يكون قد فقد شيئا غاليا ، ولكن اذا فقد صحته فقد فقد شيئا أغلى ، اما اذا فقد الأمل فقد فقد كل شيء . بالأمل تبدأ من جديد وقد يعود اليك كل ما فقدته او اكثر .

هل تظن أن العظماء لم يفقدوا فى طريقهم الى المعالى كثيرا من الأمور الغالية ، هل تعرف كيف كان الطريق الى فتح مكة المكرمة ؟ لقد كانت هجرتان ، احداهما الى الحبشة والثانية الى المدينة ، ثم انتصر الحق فى بدر ، ولكن المسلمين ذاقوا مرارة الهزيمة فى أحد ، واختار الله منهم شهداء ، وخوضروا بعد ذلك فى غزوة الخندق ، وهموا فى العام السادس للهجرة ان يدخلوا مكة معتمرين ، ولكنهم رجعوا بصلح الحديبية دون ان يدخلوا مكة .. ولم يفقدوا الأمل ابدا ، ولم يتطرق اليأس الى نفوسهم لحظة ، وكيف ييأس المؤمن ؟ « **انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** »(١) .

وفى العام الثامن للهجرة دخلوا مكة ظافرين منتصرين ، وراوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطم الأصنام وهو يقول كما امره ربه « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** »(٢) .

ومن المؤكد انك تعرف ان التغلب على الفشل ، وتحويله الى نجاح يسبب للانسان اقصى درجات السعادة ، وان تكرار ذلك — كلما نهض الانسان من عثرته وبدا التغلب على الصعاب من جديد — هو نسيج السعادة فى هذه الحياة .

---

(١) الآية رقم ٨٧ من سورة يوسف .
(٢) الآية رقم ٨١ من سورة الاسراء .

وهل يتم التغلب على الصعاب وتحويل الفشل الى نجاح الا بالآمال العذبة تملأ نفسك ، والثقة بالله تشرح صدرك ؟

ان الأمل فى زوال الغمة يعين على السعى لازالتها ، والامل فى الانتصار على الشرور يمد صاحبه بالطاقة التى تدفعه للانتصار ، والسعادة التى يحققها الانتصار تمد الانسان بالقوة وتثير فى نفسه موجات متلاحقة من الحماس ، لها دورها فى تحقيق الأمل وتذوق السعادة من جديد ، سعادة الوصول الى الهدف .

والايمان هو العامل الحاسم فى ذلك كله ، الايمان الصادق يجعلك على ثقة دائما من التغلب على الصعاب ، ولم لا تتغلب عليها ؟ ألست تعمل ابتغاء مرضاة الله ؟ اليست هذه الصعاب من عمل الشيطان واولياء الشيطان .. ومن كانت فى الله همته ، كان حقا على الله رعايته ، فما دام الهدف نبيلا ، وما دامت الغاية التى ترجوها من جهدك وجهادك غاية يرضى الله عنها ، فلتكن واثقا من النصر « **انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد** »(٣) وعد صادق اكيد يمدك بالأمل ، ويملأ قلبك بالثقة ، ويطرد اليأس ان حاول اليأس أن يغزو قلبك أو يثبط همتك .

ان المؤمن لا يصاب بالاحباط ابدا ، وانت تعرف ان اصابة الاحباط قاتلة ، وان ضربة اليأس قاصمة ، ولكن ذلك كله يتنافى مع الايمان ، فالمؤمن يعرف أن الحياة مليئة بالمشكلات والمآزق ، وهو يوطن نفسه على ذلك ، يعرف ان المتغيرات فى الحياة امر

---

(١) الآية رقم ٥١ من سورة غافر .

ليس فى قدرة الانسان اخضاعه او السيطرة عليه ، ولذلك فهو يكيف حياته ليتخطى هـذه العقبات ، مع حرصـه الشديد على الا يسلك فى طريقه الى تحقيق اهدافه الا السلوك الصحيح ، ولا يلجـأ الا الى الوسائل المشروعة حتى لا يبعد عن الهدف ، سعادة الدنيا والآخرة .

وكلما ازداد المؤمن ايمانا ازداد ادراكه لطبيعة الحيـاة وازدادت ثقته فى الله .

وفى الحق ان الانسان يصـادف هذه المصاعب من مصدرين مختلفين ، وقد عرضنا حتى الآن للمصاعب التى تأته من خـارج نفسه ، لتلك المعوقات التى يصادفها فى العمل ، والتى يتفنن كثير من الناس فى وضعها امامه ، او تلك التى يلقى بها القدر فى طريقه، فلا يتملكه اليأس ولا يصاب بالاحباط ، وانما يمده الأمل بالسلاح القوى الذى يتغلب به على تلك الصعاب ، أما النوع الآخر ، فهو ما يتورط فيه الأنسان بنفسه ، اخطاء يقع فيها ، ذنوب يرتكبها .. واظنك لا تستنكر أن يحدث هـذا ، فقد قرأت من قبل أن كل بنى آدم خطاء ، ونضيف الآن بقية هـذا الحديث الشريف ، فليس كل الخطائين فى نظر الاسلام سواء ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل بنى مدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون) اذن هناك فى الخطائين خير ، اذن هنـاك الأمل دائما ، الأمل فى التوبـة والتطهير من جديد ، والتوبة الخالصـة النصوح تغسل النفوس وتمحو الذنوب وتجدد الآمال .

ومما لاشك فيه انك جربت التغلب على الصعاب واجتياز العقبات التى يزرعها الناس فى طريقك أو تبذرها الحياة اشواكا فى الدروب ، ولكن هل جربت أن تلجـأ الى الله اذا وقعت فى ذنب من الذنوب ، تسأله الغفران ، وتستعينه على نظافـة النفس

وطهارة القلب ؟ جرب هذه ايضا ، جرب وانت واثق من الاستجابة **« وقال ربكم ادعونى استجيب لكم »**(٤) وبلب التوبة كما تعرف مفتوح ، بالليل والنهـــار مفتوح ، باب الأمل فى التطهر والتخلص من أسباب الشقاء على مصراعيه ، وربك يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهـــار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، ومهما كانت ذنوبك من الكثرة حتى ولو كانت كزبد البحر ، فلا تيـــاس **« قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمـــة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعـــا انه هو الغفور الرحـــيم »**(٥) كما روت عائشة رضى الله عنها ان خبيث بن الحارث جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رســـول الله انى رجل اقترف الذنوب كثيرا ، قال له عليه الصلاة والسلام : تب الى الله يا خبيث، قال يا رسول الله انى اتوب ثم اعود ، قال فكلما اذنبت فتب ، قال يا رسول الله اذن تكثر ذنوبى ... قال عليه الصلاة والسلام : عفو الله أكبر من ذنوبك .

وانت ايضا يا أخى ، عفو الله اكبر من ذنوبك ، فلا تسمح للياس ابدا أن يغزو قلبك ، وتوجه الى الله بالدعاء وانت واثق من الاستجابة :

يا رب ان عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك اعظم

---

(٤) الآية رقم ٦٠ من سورة غافر .

(٥) الآية رقم ٥٣ من سورة الزمر .

الفصل الثـــانى عشر

التـــــوازن

من النظريات العلمية المعروفـــة ان كل فعل له رد فعل مساو له فى القوة مضـــاد له فى الاتجاه ، وانت تعلم ان الاسلام يحترم العلم ، كما تعلم اننا لا نعترف بدين ينكر العلم ، ولا بعلم ينكر الدين ، وبذلك نجنى فى سعادة ثمار الربط القوى بين الدين والعلم ، وثمار الاحترام المتبادل بين ما هو دين على الحقيقـــة ، وما هو علم على الحقيقة . من اجل ذلك لا نعجب اذا رأينـــا متطرفا يتعصب لجانب ويتحامل على آخر ، ونتسائل هل كان تعصبه رد فعل لتعصب وقع من الجانب الآخر بل ان العـــلم يجعلك لا تعجب اذا سمعت شاعرا كبيرا يؤيد اليوم رأيا ويفنده غدا ، ولا تعجب اذا رأيت بعض الناس يتحول فجأة من النقيض الى النقيض ، لا تعجب ... فانها دراســـات واقعية **((وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين))**(١) .

ان هؤلاء المساكين تتنازعهم الضغوط المختلفة ، وتوقعهم ردود الافعال التى يتعرضون لها فى تناقضات غريبة ، فبينمـــا نجد الواحد منهم محبا للناس دائم الاختـــلاط بهم والتحرك بينهم ، مسرفا فى ذلك الاسراف كله ، اذا هو بعد صدمة عنيفة لقيهـــا ـــ بسبب هذا الاختلاط وذلك التحرك ـــ يؤثر العزلة ويكره الناس ويسرف فى ذلك الاسراف كله .. لقد اصيب المسكين بعقدة شديدة التعقيد ، سوف تظل سببا فى شقائه الى أمد بعيد .

---

(١) الاية رقم ١٠٣ من سورة يوسف .

ولا تعجب ايضا اذا سمعت نقاشا حادا بين رأسمالى يقدم صالح الفرد على صالح المجتمع ، وشيوعى يقدم صالح المجتمع على صالح الفرد ، او خلافا شديدا بين محب للدنيا غافل عن الآخر ، ومنكب على العبادة منصرف عن الدنيا .

لا تعجب .. أن كلا منهم يفكر طبقا لما تعرض فى حياته من مشكلات ، او ما ورثه عن آبائه ومجتمعه من عادات .

ولو أن جميع هؤلاء فطنوا الى التوازن بين هذه المتناقضات لعاشوا سعداء ، وتجنبوا كل أسباب التطرف والشقاء ، والمؤمن لا يعانى من العقد النفسية ابدا ، لأن ايمانه ينأى به عن الوقوع بين الضغوط المتعارضة ، لن يقع بين ثورة اهوائه وتأنيب ضميره ، لن يقع بين التمسك بالفضائل ونداء الحرية ، ان فى يده مفتاحا لكل هذه المشكلات ، ان الايمان يقدم له المفتاح ، ويهديه الى التوازن « **ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب** »(٢). لا يهدى الى مفتاح السعادة من هو مسرف ، لأن الاسلام يأمر بالعدل ، والاسراف بعيد كل البعد عن العدل ، والاسراف فى اى مجال من مجالات الحياة خروج عن حد الاعتدال ، والاعتدال نوع من العدل ، الاسراف تضخم فى جانب على حساب الجانب الآخر دائما .

أما ان المؤمن لا يقع بين ثورة اهوائه وتأنيب ضميره ، فلأن ايمانه قد حل هذه المشكلة ، لقد وجد ايمانه بين كل ملكاته فأصبح لا يعانى من الصراع الداخلى (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) فاذا كان هواك قد ارتقى فأصبح تبعا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يصطدم بالضمير ،

---

(٢) الآية رقم ٢٨ سورة غافر .

انك اصبحت محبا للفضائل ، تفضلها حبا لها ، لا لمجرد انك مأمور بها ، كارها للرذائل تتجنبها لانك تمقتها ، لا لمجرد انك منهى عنها ·

واما انه لن يقع فى حيرة بين التمسك بالفضائل ونداء الحرية ، فلأن الحرية عنده كما بينا ليست أن يفعل ما يشاء بحيث لا يتعرض لحرية الآخرين ، ليست الحرية عنده انطلاقا بلا حدود ولا ضوابط ، وانما هى فى الاسلام حرية متوازنة منضبطة ، صحيح أن المتطرفين يخلطون بين الضبط والكبت ويقفون موقف العداء من الضبط على انه لا يختلف عندهم فى شىء عن الكبت ، ولكن ماذا تنتظر من المتطرفين الا ان يكون حكمهم متطرفا ، ولكيلا يجمح بنا القلم فى فصل يحمل عنوان التوازن ، فانى أوثر أن أضبطه فى امور ثلاثـــة :

اولها ــ التوازن فى الأمور الشخصية :

مما لا شك فيه أن النفس السوية مهيأة للسعادة اكثر من غيرها ، والنفس السوية هى المتوازنة التى استطاعت تحقيق العناية بالروح والجسد معا ، فلا تهمل الروح كل الاهمال موجهة عنايتها الى الجسد وحده ، ولا تترك العناية بالجسد والصحـــة بحجة ان الروح اولى بالرعاية ، فتهمل الناحية المـــادية اهمالا بشعا وتجرى وراء الروحانيـــات ، وتستغرق فى الشطحـــات والاوهام · السعادة الحقيقية فى التوازن بين مطالب الروح والجسد ، ومعاملتهما على انهما وجهان لعملة واحدة ، ان الاســـلام دين التوحيد ، لا يسمح ابدا بصراع بين روح الانسان وجسده ، الانسان كيان واحد متكامل موحد(٣) ·

---

(٣) اقرأ فى هذا الموضوع حول شعار التوحيد فى حياة الفرد والمجتمع كتاب « كل مسلم » للمؤلف ·

وينتج عن هـذا التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد توازن آخر بين الدين الذى هو مطلب الروح وبين الهوى الذى هو مطلب الجسـد ، وليس معنى ذلك اننا نسـوى بين الدين والهوى ، ولكن معنـاه كما مر بك ان مفتـاح السعادة فى هـذا التوازن ، ان ترقى رغباتك واهواؤك فتصبح الفضيلة معشوقتك، ورضـوان الله غايتك ، والسعادة فى الدارين جائزتك .

ولست ادرى لـماذا يحاول كثير من الكتاب ان يصـوروا التقوى على انها نقيض السعادة ؟

هل تسعد النفس الطبيعية بالانحراف حقا ؟ انى اؤكد لك ان الانسـان الذى لم ينحرفه يجد سعادته كلها فى التقوى .

ومهما يكن من شىء فان كلمة التقوى كلمة جامعة للفضائل ، ومعروف ان هنـاك تعريفـا قديما للفضيلة بانها وسط بين رذيلتين فالجبن رذيلة وكذلك التهور ، اما التوازن بينهما فهو الشجاعة ، وهى الفضيلة ، وهكذا تلتقى الفضـائل كلها مـع التوازن ، كمـا تلتقى كلهـا مع التقوى ، وعند لقاء هـذه المعـانى لابد ان تولد السـعادة .

من ذا الذى يزعم ان الانفعال المندفع يسعد صاحبـه ، او ان البرود الذى يقتل الاحسـاس يوفر لصاحبـه نوعـا من السعادة ؟ وهل انت مضطر ان تصدق هذا الشاعر الذى ضاق بفرط الحساسية وارهاف الشعور ، فكان رد الفعل عنيفا ، وكانت النتيجة هذا البيت الغريب :

ما اطيب العيش لو ان الفتى حجر
تمضى الحـوادث منه وهـو ملموم

انه يظن ان فقد الاحساس يمكن ان يجعله سعيدا .. انه يتمنى ان يكون حجرا من الاحجار لا يدرى ما يراد به ولا يشعر بما يصيبه من احداث الزمان ، ولعل له عذرا فيما وصل اليه من تطرف ، ولكنه على كل حال ينسى ان البلادة تقتل فى الانسان مشاعره ، فلا ينتفع بالتجارب التى تمر به او يمر بها « وكاين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »(٤).

من قال ان سذاجة الاطفال تغنى من يقظة الراشدين ، او ان المكر السيء والخبث الخبيث يحقق للماكرين والخبثاء السعادة ؟ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كمثل أعلى للانسان يتبرأ من هذين الطرفين ، يتبرأ من السذاجة والخبث ، ويعلن براءته منهما على الناس ، (لست بالخب ، ولكن الخب لا يخدعنى) فهو اذ يتبرأ من المكر والخبث ، يؤكد ان الخبثاء يستطيعون ان يخدعوه .

ومن ذا الذى يؤثر صمت القبور او يستمد بالضجيج العالى والصخب المستمر ، هل ترتاح لصحبة ثرثار لا يكف من الحديث او لصحبة انسان صامت جامد متخشب او متصنم ؟

من ذا الذى يستطيع ان يحيا فى ليل دائم او نهار سرمدى ؟ من ذا الذى لا يحتاج فى حياته الى النور واحيانا الى الظلمة لتهدأ اعصابه وينام ؟

ليست السعادة ابدا فى الجد الصارم الذى لا يبتسم ، ولا فى الضحك الدائم الذى لا يكف .

---

(٤) الاية رقم ١٠٥ من سورة يوسف .

لن تجد السعادة فى بهرج الزينة الفاقعة ولا فى اهمال النظافة والترتيب ، وانظر كيف استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا دخل عليه ثائر الشعر اشعث اغبر ، فقال عليه والسلام (الا يجد هذا ما يسكن به شعره ؟ !) ولم يجد ما يشبهه به غير الشيطان ، وبمناسبة هذا الشيطان نذكر تطرفا آخر شبه القرآن الكريم اصحابه بالشياطين وجعلهم اخوانهم « **ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا** »(٥) بينما تصور الآيات الكريمة الشحيح البخيل بمن يجعل يده مغلولة الى عنقه ، انه لا يستطيع ان يحركها لاخراج درهم من جيبه ، بينما الثناء كله على المعتدلين « **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (٦) .

هل يحس احد بالبهجة وهو يموت جوعا ، او يسعد وهو يعانى من التخمة ؟ (نحن قوم لا ناكل حتى نجوع ، واذا اكلنا لا نشبع) .

وهل يسعدك ان تكون خجولا يمنعك الخجل من قول الحق ودفع الباطل ؟ او ان تكون متبجحا يدعوك التبجح لانكار الحق والدفاع من الباطل ؟ !

هل يأمرنا الدين عقلا بالمحالاة فى التواضع حتى اذا ضربنا احد على الخد الأيمن نشعر بالسعادة ونحن نقدم له الخد الأيسر ؟ أو يأمرنا بالكبرياء والصلف باسم العزة والكرامة ؟ « **ولا تصعر**

---

(٥) الآية رقم ٢٧ من سورة الاسراء .
(٦) الآية رقم ٦٧ من سورة الفرقان .

خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختـال فخـور »(٧) .

هل تشعر بالسعادة وانت منصرف الى الارض وعمارتها ، دون أن تتطلع الى السماء لحظـة ، كيف تسعد وقد قطعت صلتك بخالقك ورازقك ؟ ان السعيد هو من كان قلبه معلقا بالسـماء وقدمه ثابتة فى الارض ، وقد احسن العقلاء من قوم موسى اذ قالوا لقارون « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـرة ولا تنس نصيبك من الدنيـا » (٨) .

وهل يسعد الرهبان حقـا بقتل الغريزة ؟ او ينعم المتشبهون بالفحول المتفرغون للعلاقات غير المشروعة ؟ ان الاسـلام ينهى عن التبتل (لا رهبانية فى الاسلام) ، وينهى عن الفحشاء ، ويدعو الى الزواج ، بل يدعوك الى جانب ذلك للاعتدال فى المشـاعر ، فلا تبالغ فى حب انسان الى درجة العبادة ، ولا فى كره آخر الى درجة الحقد والغيظ ، ويقول المثـل السائر (احب حبيبك هونا ما ، عسى ان يكون بغيضك يوما ، وابغض بغيضك هـونا ما ، عسى ان يكون حبيبك يوما ما) .

وليس الاعتدال مطلوبا فى حب الاشخاص فحسب ، بل فى حب الاحيـاء والاشـياء كذلك ، « لكيلا تاسـوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »(٩) انها دعـوة الى الاعتدال فى المشـاعر لا الى تبلد الاحساس ، دعوة الى التوازن لا الى التهاون .

---

(٧) الاية رقم ١٨ من سورة لقمان .

(٨) الاية رقم ٧٧ من سورة القصص .

(٩) الاية رقم ٢٣ من سورة الحديد .

وثانيها ـــ التوازن فى محيط الأسرة :

هل يمنعك حبك لاولادك من تأديبهم ؟

وهل يليق بك أن تلين معهم فى موقف يتطلب الشدة ؟

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فاذا لم تعرف كيف تشتد فى غير عنف ، وكيف تلين فى غير ضعف ، ضاع اولادك بين الشدة العنيفة واللين الضعيف ، ولعلك تعرف أن ذلك يعتبر من أكبر الآثام ((كفى بالمرء اثما ان يضيع من يعول)) كما يعتبر بابا من ابواب الشقاء لا يعرف احد مداه ، ولا الى اى حد ينتهى .

واذا كنت تحب زوجتك الحب كله ، وأرجو أن تكون كذلك ، فلا تبالغ فى اظهار الحب ؛ وحتى اذا حدث العكس والعياذ بالله ، اذا حدث انك لا تحبها ، فلابد من ضبط النفس ، وعدم اظهار الكره او ممارسة الظلم ((فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا))(١٠) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب عائشة حبا تحدثت عنه الرواة ، لدرجة ان احد الصحابة سأله مرة من احب الناس اليه فقال عائشة ، فظهرت على وجه الصحابى مسحة من الحياء ، وقال يا رسول الله ما الى هذا قصدت ، وانما اردت ان اسأل من احب الناس اليك من الرجال ، فقال ابوها ... ومع كل هذا الحب لم يمنعه ذلك من تأديبها واغضابها حينما

---

(١٠) الآية رقم ١٩ من سورة النساء .

اخرجتهـا الغيرة عما ينبغى لمثلها ، لمـا رات اهتمـامه بذكرى خديجة التى كانت قد ماتت منذ سـنين ، فقالت مستنكرة لهـذا الاهتمام (خديجـة .. خديجـة .. وهل كانت الا عجوزا عوضـك الله خيرا منها ؟) فردها عليه الصـلاة والسلام فى شىء من الشدة وقال : (لا والله ، ما رزقنى الله خيرا منها ، لقد آمنت بى حين كفر الناس ... ورزقنى الله منها الولد ولم يرزقنى من غيرها) .

فاذا احببت زوجتك كما ينبغى لك ان تحب ، فلا تسمح لهذا الحب ان ينسيك واجب الوفـاء نحو امك او ابيك ، نحو اختك او اخيك ، واذا احببت احد اولادك اكثر من اخوته فلا تفعل ما فعله يعقوب عليه السلام . ان ما حدث بين يوسف واخوته لم يكن الا بتقدير من الله لينشأ يوسف بعيدا عن البادية ... وليحدث ما حدث له فى مصر « **ان ربى لطيف لمـا يشاء** »(١١) ولكن هذه المعجزات لا تتكرر .

ان التوازن بين العقل والعاطفة فى هـذه الحالة مطلوب ، كما ان التوازن بين القسوة والتهاون فى تربيـة الأولاد وغيرهم مطلوب ، ولا تعجب من لفظ القسوة فى مجـال التربية ، انهـا القسوة الرحيمة ، واعتقد ان هذا التعبير ماخوذ من قول الشاعر :

فقسـا ليزدجروا ومن يـك حـازما

فليقس أحيـانا عـلى من يرحـم

فكان هـذا الشاعر حسب علمى أول من مزج بين كلمـة القسوة وكلمة الرحمة ، ولمـا كانت القسوة نوعا من التطرف »

---

(١١) الاية رقم ١٠٠ من سورة يوسف .

اما الرحمـــة فبعيدة كل البعد عن التطرف ، فاننا لم نرد أن نبحث عن وسط بينهما بالتوازن ، فلجانا الى هـــذا التعبير (القســـوة الرحيمـــة) .

أن التوازن ضرورى حتى فى بر الوالدين ، ان لك ان تبرهما غاية البر ، حتى لو كانا على غير دينك ، ولكن برك بهما وطاعتك لهما لا تصل الى حد أن تطيعهما فى معصية الخالق ، أن تطيعهما فى ظـــلم او جور ، ان تطيعهمـــا اذا أمـــراك أن تشرك بالله « **وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا** »(١٢) .

وتاكد ان ما تعودته فى الأسرة من وفاء يظهر فى بر الوالدين ، ومن توازن فى حب الزوجـــة ، ومن عطف وحزم فى تربية الأولاد ، سوف يكون له اثره فى توازن سلوكك فى المجتمع ، وسعادتك فى الحياة ، ولا تعبأ بما يقوله « دور كايم » من ان نظـــام الأسرة ليس نظاما فطريا ، انك لست مضطرا الى تصديق هذه النظريات غير المتوازنة ، لانك تريد ان تعيش سعيدا وان تنشر الســـعادة فى محيط أوسع . ان « دور كايم » يفكر تفكيرا عقليـــا بعيدا عن عاطفة الحب والود والسكينة النفسية ، انه غير متوازن .

ولعلك تلاحظ ان هذا الفصل من الكتـــاب يمكن ان يختلط بفصول الباب الثانى الخـــاص بسعادة المجتمع ولكننا مع ذلك حريصون على أن يظل حديثنا فيه عن سعادة الفرد فى ذات نفسه ، وعن سعادته فى أسرته ومجتمعه ، لا عن سعادة الأسرة والمجتمع ، فلذلك باب خاص يعقب هذا الفصل ان شاء الله .

---

(١٢) الآية رقم ١٥ من سورة لقمان .

ثالثها ـ التوازن فى محيط العمل والمجتمع :

لعلك قد استمعت او قرات عن عالم اليوم انه قد فقد توازنه لما اصيب به من التضخم فى عقله والضمور فى قلبه ، وهو تعبير يراد به تصوير ما احرزه العصر الحديث من تقدم فى شتى المجالات العلمية المادية ، وتاخر فى شتى المجالات الايمانية والروحية ، ولذلك فانك نادرا ما تجد من افراد هذا المجتمع من يشعر بالسعادة الحقة ، فالسعادة كما تعرف لابد لها من التوازن .

كما انه لابد للمجتمع من تحقيق التوازن ليسعد افراده جميعا ، فلا يموت بعض الناس جوعا ويموت بعضهم الآخر من التخمة ، والمجتمع الاسلامى يعرف ذلك من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما جاع فقير الا ببطنة غنى") .

هل يسعد القادرون حقا وهم يظلمون الضعفاء ويفتالون حقهم فى الحياة ؟

أن مجتمعا يتبادل فيه الناس التظالم والتباغض والاحقاد ، ان مجتمعا يتساقط فيه الظلم من الاقوياء ويتصاعد فيه الحقد من الضعفاء ، لهو مجتمع مختل البناء ، متصدع العلاقات ، يشقى فيه الاقوياء والضعفاء جميعا (اللهم انى اعوذ بك من ان اظلم او اظلم) .

ومهما تطرف الشيوعيون فى العناية بصالح المجتمع والاطاحة بسعادة الافراد وحقوق الافراد ، وتطرف الرأسماليون فى الاهتمام بصالح الفرد وتقديمه دائما على صالح المجتمع ، فان الحق الذى ينشده العقلاء دائما ، والسعادة التى نطلبها للافراد

في كل مجتمع ، هي في التوازن بين صالح الفرد وصالح المجتمع ، ولكن متى ؟ متى تثوب الانسانية الى رشدها ، وتعرف ان الشقاء يغزو قلوب الناس كلما اختل التوازن ، وان السعادة تملأ القلوب كلما اعتدل الميزان وتعمق الايمان .

صحيح ان التطرف قد يكون رد فعل لتطرف في الجانب الآخر ، وصحيح أن تاريخ الاسلام فيه أمثلة واضحة كل الوضوح لهذا النوع من التطرف ، فقد فتح الله على المسلمين الاقطار ، وكثرت الغنائم ، وزاد الترف زيادة لم تكن متوقعة ، وكان رد الفعل موجة من الزهد الذى تطرف ايضا فى اهمال الدنيا مقابل التطرف الماجن الذى انهمك في البحث عن السعادة فى الترف المادى ، واخذ يلهث وراء الشهوات والاهواء الارضية ، وحمل ابو نواس لواء الدعوة للمجون ، واضطر ابو العتاهية ان يحمل راية الزاهدين ، ولم يكن ظهور التصوف وانتشاره بعيدا عن هذه المعارك .

وليس معنى هذا اننا نوجد مبررا للتطرف ، ولكننا نشير الى بعض اسبابه ، ليسهل بعد ذلك علاجه ، واذا اردت ان تعرف المعنى الحقيقى للتطرف فلتنظر اليه فى مطبخ بيتك ... فلابد انك حاولت مرة طهى بعض الاطعمة ان كنت ممن يضطرون الى لخدمة انفسهم ، او رايت زوجتك تشعل الموقد لهذا الغرض ان كنت مثلى ممن تخدمهم زوجاتهم .

هل رايتها وهى تطفىء الموقد بمجرد نضج الطعام ؟ ان هذا هو التوازن .. لماذا لم تطفىء الموقد فى الوقت المناسب ، احترق الطعام والاناء ، وذلك هو التطرف ، انه يحرق ويدمر ، ولذلك

نستعيذ بالله منه ، وندعو لك باجتنابه ، وننبه الى خطورة نتائجه واسبابه « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » (١٣) .

وتاريخ البشرية كله موجات متلاحقة من التطرف والاعتدال ، كما انه موجات متلاحقة من الكفر والايمان ، فكم اندلعت فى جنبات الارض نيران التطـــرف « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتـــاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين اوتـــوه من بعد ما جـــاءتهم البينـــات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لمـــا اختلفوا فيه من الحـــق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(١٤) .

---

(١٣) الاية رقم ٢٤ من سورة الاحقاف .

(١٤) الاية رقم ٢١٣ من سورة البقرة .

الباب الثاني

سعادة المجتمع

سعادة المجتمع

هل جربت هذه المحاولة الصعبة ؟

هل جربت أن تعيش سعيدا في مجتمع غير سعيد ؟

ارجوك الا تفعل ، انها ليست محاولة صعبة فحسب ، ولكنها فاشلة ايضا ، الا اذا كنت قد فقدت العزم على ان تكون من اصحاب الرسالات ، وان تسعى الى تحويل هذا المجتمع الشقي الى مجتمع سعيدا .

فاذا كنت قد مررت في الباب الاول مقومات السعادة بالنسبة للافراد ، وهي المرحلة الاولى لبناء مجتمع سعيد ، فان المرحلة الثانية لا تقل اهمية عن تلك ، لان اللبنات المبعثرة ، مهما كانت قوية ومزودة بكل الطاقات ، لا تستطيع وحدها ان تقيم بناء ، لابد من الربط بينها بمواد التماسك ليقوم البناء ، وكذلك الافراد الذين اعددناهم للسعادة في الباب الاول ، ان لم يجيدوا فن العلاقات ، وترتبط بينهم المحبة والمودة والاخاء ، فلن يستطيعوا تكوين مجتمع سعيد ، لانه لابد لاقامة المجتمع السعيد المترابط من افراد سعداء اقوياء ، يكون بعضهم لبعض كالبنيان يشد بعضه بعضا ، لابد ان يكونوا كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر ، اى بالتالم له ، والسهر الى جانبه حتى تزول اسباب شكواه .

هذا هو المجتمع القوى المتماسك السعيد ، الذى تستطيع ان تسعد بالعيش فيه ، ويسعد بانتمائك اليه .

هذا هوَ المجتمع السعيد فى محيط الأسرة أو العمل ، او فى محيط الأمة والشعب ، او فى محيط الأسرة العالمية .

أما وقد سهلت لك المطلب فى الباب الأول ، وذللت لك المركب فى فصوله الاثنى عشر ، ووضعت يديك على ما يقدمه لك الاسلام من عناصر السعادة ، وحذرتك من أن تنسى انها سعادة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة ..... فلتشمر عن ساعد الجد ، ولترافقنى فى هذه الرحلة الممتعة ، ولتعيش سعيدا بين السعداء ، ولتنظر كيف يكون المجتمع السعيد ..

الفصل الأول

سعادة الأسرة

ولتكن بداية الرحلة مع النواة الأولى فى المجتمع ، مع الأسرة السعيدة ، فمن مجموع هذه الأسر السعيدة ، يتكون المجتمع السعيد ، وفى ظل هذه الأسر السعيدة ، تنشأ الحياة العاطفية والخلقية والفكرية للنبت الجديد .

ويبدأ تكوين الأسرة بالزواج ، ولعل «دوركايم» الذى اعتبر نظام الزواج مخالفا للفطرة ، لم يفطن الى السر الحقيقى للسعادة الزوجية ، لقد نظر الى الزواج على انه وسيلة لحفظ النوع الانسانى فحسب ، وفى الحق ان الزواج وسيلة لحفظ النوع الانسانى ، ولكنه قبل ذلك وسيلة لاطمئنان النفس وهدوء القلب وراحة الوجدان « **ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** »(١) من أجل ذلك نجد الاسلام — وهو كما عرفت دعوة الى السعادة — يدعو الى الزواج وتكوين الأسر ، ومن أجل ذلك نجد الأمة الاسلامية كلها تسمى حفل الزواج فرحا ، وتشجع هذا الاتجاه بكل وسيلة .

ان الاسلام حينما يحرم العلاقات الجنسية وانجاب الذرية من غير طريق الزواج ، وينهى مع ذلك عن التبتل والرهبنة ،

(١) الآية رقم ٢١ من سورة الروم .

فانه يؤكد بهذا دعوته الى الزواج وتكوين الاسر الجديدة السعيدة، ويدفع الناس الى ازالة كل العراقيل من طريق الزواج ، لاقامة الافراح وبناء المجتمعات الصغيرة السعيدة .

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هـــل تزوجت ؟ فأجاب الرجل بأن ضيق ذات اليد يمنعه ، فسأله النبى : هـــل تحفظ شيئا من القرآن ؟ قال الرجل نعم ، قال عليه الصـــلاة والسلام : تزوج بما معك من القرآن ، واذا يسر الله لك ، فعوض أهلك خيرا .

وقال لآخر : التمس ولو خاتما من حديد ..

ومعروف انه صلى الله عليه وسلم كان يقول : (من كان موسرا أن يتزوج ، ثم لم يتزوج ، فليس منى) .

وبعد أن تلبى نداء الفطرة ، وتتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبدأ فى اختيار الزوجة والايمان رفيقك فى كل خطوة لا يتخلى عنك لحظة ، لأنك انما تريد أن تعف نفسك ، فسـوف تجد كل الترحيب .. سوف تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقك الى أسرة الفتاة ، واوصاهم بك خيرا **« اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنـــه ، فى الأرض وفساد كبير)** .

ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زودك بأغـــلى نصيحة واثبت فى طريقك ، وقلب لك الامر على وجوهه كلها ، فقال لك : (تنكح المرأة لجمالها ولمالها وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك) فعرفك بكل ما يطلبه الرجل عـــادة فى زوجة المستقبل ، ثم أوصـــاك بأن تختـــار ذات الدين (!) فاذا

جمعت الفتـــاة بعد ذلك مع دينها شيئا من المـــال والجمـــال والحسب والنسب فذلك خير ، ولكن هـــذا كله يأتى فى المرتبة الثانية بعد الدين .

ومع انه عليه الصلاة والسلام حذرك من ان يكون الجمال او المـــال هما كل همـــك (لا تنكح المرأة لجمالهـــا فلعل جمالها يرديها ، ولا لمـــالها فلعل مالها يطغيها) مع ذلك كله ، فانا نؤكد لك من جديد انه ليس معنى ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم لا يقدر الجمال ولا يعرف قيمة المـــال ، وانما معناه أن الدين قبل ذلك كله ، فلك أن تهتم بجمال الفتاة وحسبها ونسبها وثقافتها ومالها وغير ذلك مما يرغبك فيهـــا ، ولكن بعد استيفاء الشرط الأول (دينهـــا) .

انه يحذرك أن تنسى هـــذا الأمر او تتغاضى عنه فى غمرة المؤهلات الأخرى ، انها بغير الدين هباء ، بل انها بغير الدين قد تكون أسبابا للشقاء (فلعل جمالها يرديها ، ولعل مالها يطغيها) اما مع الدين فان جمالها لا يرديها ومالها لا يطغيها .

فليكن هدفك الأول احصـــان نفسك ، واقامة بيت سعيد ، وتكوين أسرة تسكن اليها ، وتجد فيها راحة النفس وانشراح الصدر وتربية الذرية الصالحة وبهجة الحياة ، اما اذا كان هدفك شـــيئا آخر ، فلتفكر مليـــا ، ولتتريث حتى تقرأ هـــذا الحديث الشريف (من تزوج امراة لعزها لم يزده الله الا ذلا ، ومن تزوجها لمـــالها لم يزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوجها لم يرد بها الا أن يغض بصره ويحصـــن نفسه ، بارك الله له فيها وبارك لها فيه) .

ومن جديد اذكرك بان الاسلام لا يحذرك من أن تتزوج ذات المال والجمال والحسب والنسب ولكنه يحذرك أن تجعل هذه الأمور كل هدفك ، وان تنسى فى سبيلها الهدف الأول (دينها)

ولعلك تستطيع أن تلمح صفات الزوجة الصالحة المثالية من قوله تعالى لنساء النبى ((**عسى ربه ان طلقكن أن يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا**))(٢) لعلك تلمح أن هذه الصفات الثمانية ، منها الصفتان الأخيرتان لا صلة لهما بالمثالية ، وانما يراد بهما ان الصفات المثالية يمكن أن تتوافر فى الثيب كما يمكن ان تتوافر فى البكر ، فليس التركيز على أن تكون المراة بكرا لم تتزوج من قبل، أو ثيبا سبق لها الزواج .. المهم اذن ان تعرف الصفات الست الاولى ، وهى الاسلام الظاهر ، والايمان القلبى ، والقنوت وهو طاعة الله ، والتوبة وهى الرجوع الى الله عند كل هفوة وعدم الغفلة عن الاستغفار دائما ، والعبادة وهى صفة تطلق على من أدى فرائض الله واحسن اداءها ، ثم تقرب الى الله بالنوافل فصار عابدا ، والصفة الاخيرة من هذه الصفات الست ، هى السياحة الى الله أى الاتجاه اليه واللجوء اليه دائما ((**ففروا الى الله**))(٣) .

ومع أن القرآن الكريم وضع أمامك هذه الصورة المثالية للزوجة الصالحة فليس معنى ذلك ان يتمسك بها كل من اراد الزواج ، وأن يشترط كل منا وجودها جميعا فى زوجته ، والا فانه سوف يتعب كثيرا قبل أن يعثر عليها ، ولكنك سوف تجد هذه الشروط جميعا ان شاء الله فى حوريات الجنة غير انهن ابكار

---

(٢) الآية رقم ٥ من سورة التحريم .
(٣) الآية رقم ٥٠ من سورة الذاريات .

كلهن ... أما فى دنيانا هـــذه التى نحاول أن نجعلها جنة ، فلابد ان تصر على شرط الايمـــان ، وهذا الشرط تتبعه بقيـــة الشروط الضرورية فى الزوجة الصـــالحة « **فالصالحات قانتات حافظـات للغيب بما حفظ الله** »(٤) .

واخشى أن اســـتمر فى الحديث عن الجوانب الوضـــيئة فى الزوجـــة فيبحث المتزوجون عن هـــذه الجوانب فى زوجاتهم ، ثم يصيبهم الاحباط ، من أجل ذلك لابد أن تعرف الحقيقة ، لابد أن تعرف أن كل امراة فى العالم تتصف بالخصـــائص الأرضية ، فالى جانب قدرتها على اثبات النرجس والورد والفل والياسمين وغيرها من الزهور الجميلة التى تبدو على السطح ، ستجد فيها ايضـــا بعض الخصائص الارضية الاخرى .

ولذلك لابد ان اصارحك منذ البداية ، ان السعادة الزوجية لا يمكن الاحتفاظ بها الا بشروط معينة ، لا تخف ، انهـــا شروط ليست صعبة التحقيق ، ولكنها أيضا ليست غاية فى السهولة .. وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يصـــارحك بالحقيقة ، يصارحك فى حديث شريف يتخذه بعض المتعصبين حجة ضد المراة ، مع انه ليس كذلك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلقت المراة من ضلع اعوج ، ان ذهبت تقيمها كسرتها وان تركتها استمتعت بها على عوج) يا سبحان الله .. انه توجيه للرجـــال ، توجيه للأزواج منهم خاصـــة ، ان يوطنوا انفسهم على ما يعرفه كل مسلم من ان الكمال لله وحده ، وان الزوج ان كره من زوجته خلقا رضى منها آخر ، اما ان يطلب الكمال ، وهو يعرف انه هو نفســـه لم يصل

---

(٤) الاية رقم ٣٤ من سورة النساء .

الى الكمال ، او يصر على استعمال الشدة ليطبعها بطابعه فسوف يحطم سعادته الزوجية . وان تغاضى عن بعض الأمور التى لا تمس الدين والفضيلة ، أمكن أن يحتفظ بالسعادة الزوجية ، وأن يصل بالليين الى ما تعجز الشدة عنه ، فاذا استرشد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (استوصوا بالنساء خيرا) وعرف أن المرأة من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات ، وتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ولم ينس قول النبى صلى الله عليه وسلم (اكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله) اذا فعل ذلك ، وقابلت الزوجة هذا منه بالتقدير والعرفان ، وذكرت ما كانت تردده أم سلمة رضى الله عنها من قول خير البرية (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) فانى أبشرهما بحياة زوجية سعيدة ، وحتى اذا ظهرت بعض السحب فى سماء هذا البيت السعيد ، فان ابتسامة مشرقة وكلمة عذبة ودعابة حلوة كفيلة بتبديد السحابة ، وعودة الصفاء والحب والسعادة .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغمر بيته بالبشاشة والايناس والرفق ، وكان يقول : (ان الله عز وجل يعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق ، واذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق ، وما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا الخير كله) .

وأنت تعرف أنه صلى الله عليه وسلم كما يشعر الزوجة بالجنة اذا كان زوجها راضيا عنها ، فقد بشر الزوج كذلك اذا أحسن معاملة زوجته ، وضرب لنا مثلا بنفسه فقال (خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لاهلى) كما كان عليه الصلاة والسلام يقول (ما انفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر على اللقمة يضعها فى فم امرأته) .

كل ذلك ليسبـــعى الزوج منشرح الصبـــدر ، وينفق راضى النفس ، لأنه يعرف انه بذلك يسعى فى طريق الجنة .

الم اقل لك أن الايمـــان لا يتخـــلى عنك فى أية خطوة من خطواتك ، فها أنت ذا قد اخترت رفيقـــة حياتك ، وبدأتما حيـــاة زوجية سعيدة ، بدأتما هـــذه الحياة بفرح يعلن زواجكما للناس ، وها نحن أولاء ننتظر ما يهبه الله لكما سبحانه ((**يهب لمن يشـــاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، انه عليم قدير**))(٥) .

ولابد انك سعيد باستقبال البنين والبنات ، ولكن سعادتك تكتمل بأن تحسن تربيتهم ، ليكونوا بررة بك وبزوجك ، وليكون بعضهم لبعض ردءا وعونا ، كما كنت لأخوتك حبا وحنانا وايثارا وبـــرا .

ولكن كيف تكون لهم خير أب كما كنت لزوجك خير زوج ؟

كيف تحميهم من نفسك وأخطائك قبل أن تحميهم من غيرك ، بنفس الدرجة التى حميت بها زوجك من نفسك وأخطائك قبل أن تحميها من كل الناس أو اكثر ؟

يقول رسول الله صلى الله عليه وســـلم (من كان له ولد فليتصاب به) اى فليكن معه كما يكون الصبى مع الصبى ملاطفة ومداعبة واينانسا ، وانت تعرف ان خير الآباء للأبناء من لم يدعه الحب للتفريط فى تربيتهـــم ، حتى ولو ادى ذلك الى استخدام القسوة الرحيمة فى بعض الاحيـــان ، ولعلك لتكون قد اقترأت فى

---

(٥) الآية رقم ٥٠ من سورة الشورى

العقد الفريد لابن عبد ربه تقسيم مراحل التربية فى الاسلام ، منذ ولادة الطفل وحتى بلوغ اشده (داعبه سبعا ، وادبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه) .

فماذا احسنت تربيتهم ، وكان لزوجك نصيب فى هذم التربية بلاشك ، فانك تعينهم بذلك على البر بهـا وبك ، بل على ان يبر بعضهم بعضا ، ليكونوا مثل هـذين الاخوين اللذين سـارت بذكرهما الركبان ، فلعلك سمعت عن هـذين الاخوين : لقد كان اكبرهما متزوجا ويعول ابناءه ، وكان اصغرهما لا يزال يبحث عن الزوجة الصالحة ، وقد ترك لهما ابوهما قطعة ارض كانا يزرعانها قمحا ، وبعد الحصـاد اقتسما محصول القمح بالسوية ، ولكن الاكبر قال لزوجتـه ، ان اخى يعيش وحده ، وليس له زوجـة ولا اولاد ، ليس له من يساعده ، وقد فكرت ان احمل عشر حزم من كومتى سرا فاضعها على كومته معونة له ، وسعدت الزوجة الصالحـة بفكر زوجهـا الطيب الحنون ، وشجعتـه على تنفيذ الفكرة .

وتصادف ان فكر الصغير فى الليلة نفسها ان يحمل عشر حزم من كومتـه سرا ليضعها على كومـة اخيـه الذى يعول زوجـة واولادا .

وفى الصباح ، وجد كل منهما كومته كما هى .. وعجب ، كانه لم يحمل منها شيئا ولم يضف الى كومة اخيه شيئا .

وفى الليلة التالية قام كل منهما بما قام به البارحة ، وتعجب كل منهما فى الصباح كما تعجب فى امسه .. واستمر كل منهمـا بضع ليال يؤدى ما يراه واجب الاخوة نحو اخيه .. الى ان تصادف لقاؤهما فى جوف الليل ، فى منتصف الطريق بين الكومتين ، وكل

منهما يحمل من كومته ليضع على كومة اخيه .. والقى كل منهما حمله ، وكان بينهما عناق طويل ... وتنتهى القصـــة بعد ذلك نهايـــة مثيرة ، فقد اراد اهـــل القرية تكريم هـــذه الارض فبنوا موقها مسجدا .

وليس فى القصـــة بعد ذلك ما يحتاج الى تعليق ، فليس غريبا أن يحب الاخ اخاه كل هـــذا الحب ، ولكن الذى يستحق التقدير حقا هو موقف الزوجة ، زوجة الاخ الاكبر ، لا سيما ونحن نرى نقص الوازع الدينى يدفع بعض الازواج الى ان تبذل كل جهد للايقاع بين زوجها وذويه ... ان المراة فى الاسرة الفاسدة تحاول أن تضرب سورا بين زوجها وبين ابيه وأمه ، أن تسد كل المنفذ التى تصله بوالديه واخوته ، ليكون لها ولأولادهما وحدهم ... ان مثل هـــذه الزوجة تندفع فى طريق الشقاء ، وتدفع الاسرة كلها الى هذا الطريق ، وواجبنا الا نمين الشيطان عليها ، وأن نوجـــه اليها اشـــد التحذير واقواه ، انها بعد قليل ستزوج ابنها ونخشى أن تعاملها زوج ابنها بالمثل ، فتقطع كل حبـــال الود بينـــه وبين والديه واخوته .

أما عن بر الابناء والبنات بالآباء والامهـــات فان فضـــل الآباء والامهات على الابنـــاء والبنات يمكن انكاره ، انه يأتى فى الترتيب عقب فضـــل الله سبحانه ، ولذلك نقرأ فى القرآن الكريم « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا** »(٦) كما نقرأ فى سورة اخرى قوله تعالى : « **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا** »(٧) .

---

(٦) الاية رقم ٣٦ من سورة النساء .

(٧) الاية رقم ٢٣ من سورة الاسـراء .

ان بر الوالدين مقدم على الجهـاد ، بل هو جهاد من اثبل الجهاد ، ومعروفة قصـــة الشاب الذى ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه أن يضمه الى صفوف المجـاهدين ، فسـأله عليه الصلاة والسلام (هل لك من والديك أحد حى ؟) قـال الفتى كلاهمـا حى ، فرده عليه الصـلاة والسـلام قائلا له : (ففيهما فجاهد) وعاد الفتى ليجد أباه يبكى وينشد :

فـــانك وابتغـــاء الأجـــر بعـــدى

كبـاغى المـــاء يتبـع السرابـــا

وقد سمع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (رغم انفه .. رغم انفه .. رغم انفه .. قالوا من يا رســول الله ؟ قال من ادرك والداه عنده الكبر احدهما او كلاهما .. ثم لم يدخلاه الجنـة) .

أما أســماء بنت أبى بكر فتقول (قدمت عـلى امى وهى مشركة ، وكانت راغبة فى مـالى ، طامعة فى عطائى ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل أصلها وأتصدق عليها مع كفرها ؟ قال (نعم ، صلى امك) .

بل أن بر الوالدين أمر تدعو اليه الفطرة السليمة ، كمـا يدعو اليه الاســلام .

والآن دعنى اسالك سؤالا واحدا : هل تامن انسانا لم يكن أمينا على والديه ؟ اما انا فلا آمنه ، انه جدير بأن يخون وطنه ، ويخون أصدقاءه .... فقد خان نفسه واهله ؟

وقد كان الصحابة يبادرون الى بر الوالدين ويتفننون فيه ، فهذا احدهم لا يشـرب اللبن صباحا أو مسـاء قبـل أن يسقيهما ، فاذا ناما قبل أن يشربا فى المسـاء ، انتظر بالانـاء حتى يستيقظا فيشربا قبل أن يشرب ، وهذا آخر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقـال عليه الصـلاة والسلام (نعم ، الصلاة عليهما(٨) وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصـلة الرحم التى لا توصـل الا بهمـا ، واكرام صـديقهما) .

ان باب البر مفتوح دائما ، أن تبر والديك فى حياتهما وبعد موتهما ، وان تصـل رحمـك ، وان تغرس فى أولادك هـذه الخلال ، لتسعد بهم ، وترى من ايمانهم وصـلاحهم ويرهم بك ما رآه منك ابواك ((**ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما**)) (٩) .

(٨) والصلاه هنا بمعنى الدعاء لهما .

(٩) الآية رقم ٧٤ من سورة الفرقان .

الفصـــل الثـــانى

حتى تحـــــابوا ...

ويقبـــح من ســـــواك الفعـــل عنـــدى
وتفعـــــله فيحســـــــن منـــــك ذاكـــا

ماذا يريد هـــذا الشاعر ان يقول ؟ هل يريد أن يقول انه ليس حياديا ولا موضوعيا ؟

هل يريد ان تتهم احـــكامه بالخلل ، واستحسانه بالخطـــأ والزلل ؟

لا اظنـــن ...

انه بكل بساطة يريد ان يقول : انى احبك ، ولذا فانى ارى الجمال فى كل ما تقول وتفعل ، انى اراه جميلا غاية الجمال لأنه صادر عنك ، ولو صدر عن غيرك لكان قبيحا غاية القبح ، انه الحب يا صديقى ، يطبع الاشياء والاحياء بطـــابع الجمال ، انه الحب يا صديقى ، يجعلك ترى فيمن تحب كل جميل حتى ولو كان فى حقيقته غير ذلك ، انك لا ترى غير الجميل .

وعين الرضـــا عـــن كل عيب كليلة
كما ان عين السخط تبدى المساويا

وصلة الحب بالسعادة لا تحتاج الى ابيـــان ، كما ان صلة السخط بالتعاسة ليست خافية ، فابتسام العين ، وبشاشـــة

الوجه ، وانشراح الصـــدر ، وغير ذلك من علامات السعادة ، تظهر كأوضح ما يكون الظهور عندما ترى ما تحب أو من تحب ، بينما تظهر علامات التعاســـة من عبوس الوجه ، وضيق الصـــدر وكآبة النفس عندما ترى ما تكره أو من تكره ... فكيف لا نحب الحب ؟ !

كيف لا نحبه ولولاه ما ترابط الناس ، ولا تعاونوا ، ولا تكون مجتمع سعيد ؟ بل كيف لا نحبه وقد سمعنا أمير الشعراء لا يعترف بحياة تخلو من الحب ، فالحياة الحب ، والحب الحياة ، انه يرى أن الحياة بلا حب مستحيلة ، كما يرى إن الحياة بلا حب ليست حيـــاة .

ان الحياة بلا حب حياة راكدة قاحلة مجدبة ، ضـــاق بها أبو الطيب فى مصر أيام كافور فاستقبل العيد أبشـــع استقبال ، ورده أسوأ رد :

عيـــد بأيـــة حـــال عـــدت يا عيـــد
بمـــا مضى أم لأمـــر فيـــك تجديـــد
أمـــا الاحبـــة فالبيـــداء دونهـــم
فليت دونـــك بيـــدا دونهـــا بيـــد

ولا تعجل فتتصور احبة المتنبى فتيات فاتنات ، ان الاحبـــة عنده مجموعة من الأمانى البعيدة ، لم يأت بها العيد معه فهرب من العيد ، وفر من مصر أرض الخصـــوبة والخير والبنـــاء ، وهجا الأخشيد برائعة من روائعه .

لقد فقد أبو الطيب سعادته كلها عندما فقد الأحبة ، فأسرع يقطع الأميال بحثا عنها فى أرض جديدة ، بينما أحسن شاعر بدوى

بدافق الحب يروى قلبه ، وينعش روحه ، رغم الصحراء المجدبة ، متصور أن الحب يسرى فى نسمات الجو كله ، وينتقل بالايحـــاء الى ما حوله من ابل وشاء ، فتهلل وجهه وانطلق لسانه :

فأحبهـــا وتحـــبنى ويحب ناقتها بعـــيرى

هذا شاعر سعيد لا يشكو ولا يتوجع ، لا يهجو ولا يتفجع ، لانه يحيا حياة الحب ..

بينما نلاحظ تلك اللمحـــة اللغوية الذكية فى وصف من ماتت زوجـــه ومن مات زوجهـــا بالترمـــل ، وهى كلمة مشتقة من الرمال الجافة الجرداء ، أى أن حياة الرجل أو المرأة بلا زوج تنقلب من حياة زوجية سعيدة خصيبة مثمرة خضراء الى حياة جافـــة بغيضة قاسية جدباء .

ويرى بعض الفلاسفة أن الحب يربط بين السماء والأرض ، بين الافـــلاك والكواكب ، فهى فى انضـــباطها وتعاونهـــا تحيـــا بانتظام ، فالســـماء ذات رجع والأرض ذات صـــدع ، وحرارة الشمس تصعد بالبخـــار الى السماء ، فتســـوقه الريح الى بلد ميت ، ثم ينزل غيثا تحيا به الأرض وما عليها من النبات والحيوان ، وفى الحق أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، انه سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ، وهل التجـــاذب والحب والتعاون الا فضـــلا من افضاله ، ونعمة من نعمـــه ؟ ! سبحانه سبحانه .

وحينما احس البحترى بالسعادة فى الربيع ، واراد أن يتغنى بجماله ، ويدعوك الى استقباله ، تصوره انسانا سعيدا تنطق بالسعادة اساريره ، فقام يهلل :

اتـــاك الربيـــع الطـــلق يختـــال ضاحكا
من الحســـن حـــتى كـــاد أن يتكلما

هـــذا يحب الربيع والطبيعة والجمال ، وأبو الطيب يحب المعالى ويتغزل فى المجد ويتمنى على الله الأمانى ، وكل يغنى على ليـــلاه ..

الا تلاحظ أن القصص والافلام والمسرحيات تدور كلها حول الحب موجودا ومفقودا ؟ الا ترى أن تجـارة السـمعيات والمرئيات والأزياء وأدوات الزينة والتجميل ليس لها موضـــوع الا الحب ؟ بل الا ترى ان السعي والكسب والعلم والفلسفة والفن والنشاط الانسانى كله ينتعش بالحب ؟ حب العلم او حب النفس او حب الناس او حب الله ؟ !

الحب والبغض وراء كل نشاط ، وكل حركة ، وكل قعود ، وكل احبـــاط ، فمن النـــاس من يحب الخير ويهوى الفضـــائل ويتعشـــق المجد ويهيم بالاصـلاح ، فينطـلق في حمـاس شـديد وسعي دائب ونشاط لا يهدأ ، يقطع الأميال ويبذل الجهد الجهد وصـــولا الى معشوقه الجميـــل .. ومن الطبيعى ان تجد هـــذا الانســـان السوى يكره الشر ويقاومه فى نفســـه وفى مجتمعه .. ومن الناس من فسد طبعه واصبح مطية للشيطان .. يقوده الى الشر فينقاد على استحياء اول الأمر ، ثم تنقلب كل الموازين فى عقله وقلبـــه فيهوى الشر ويتعشـــق الايذاء ويحب الفســـاد ، والعياذ بالله ..

والناس جميعا درجات بين هـــذا وذاك ، فانظر الى اى الفريقين تنتمى ، واسمع توجيـــه القرآن الكريم الى البســـعداء « **ولكل وجهـلة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات** »(١) بان الخيرات هى معشوق السعداء ، وهم يستبقون فى حبها ، ويتنافسون فى

(١) الآية رقم ١٤٨ من سورة البقرة .

وصلها ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولمثل هـذا فليعمـل العـاملون .

من الناس من يحب بما ينفعه سـواء اكان جميـلا او غير جميل ، ويتعصب لان ينفعه سواء اكان على حق ام على باطل ، ولكن السعداء حقا يحبون كل جميل ، وكل حق وكل خير ، دون ان ينتظروا نفعا ماديا من وراء هـذا الحب ، انهم يحبون الحق والخير والجمال ، لأن النفع الحقيقى لا يمكن الا أن يكون فى الخير والحق والجمـال ، ان الحب الأفلاطونى لـه مبرراته من الائتناس المعنوى والاطمئنان النفسى والسعادة الوجدانية .

ولن ندخل فى خضم الجدل التقليدى حول ما هو الحسـن وما هو القبيح ، وهل الحسن ما استحسنه العقل او ما استحسنه الشرع ؟ لاننا لا نسمح بأن نضـع العقل فى مقابل الشرع كأنهما متعارضان ، فليس بين العقل الطبيعى الحر ، وبين الشرع الآلهى الصحيح اى تعارض . وانما يقع التعارض اذا وقع العقل تحت تأثير عرض او مرض ، اذا تجـاوز حده فضل وتاه ، ولكنه حينها يزول عنه المؤثر ، سواء اكان هذا المؤثر هوى او جهلا او قصـورا فى الدراسـة ، فسوف تلتقى دائما احكام العقل السليم والشرع الصحيح . فاذا كنت من السـعداء فعلا .. أو ممن ينشـدون السعادة الحقيقـة ، احببت ما استحسنه العقل والشرع ، وكرهت ما استقبحه العقل والشرع ، وحينئذ ستجد ان أول ما تحبـه وتسعد بحبه هو الله سبحانه ، لانه جميل يحب الجمال ، ولانه صاحب الفضـل كله ، ولانه بذاك بالانعـام فخلقك ، وتعهدك جنينا فى ظلمات ثلاث ، ثم طفلا رضيعا ، ثم صبيا وشابا تملأ الدنيا بهجة وحيوية ، تخطئ ويسترك ، وتذنب ويتجاوز عنك ، وتنساه ولا ينسى رزقـك ،

فاذا احببته كما ينبغى لك ، فقد غرست نواة الحب فى قلبك ، وضعت اساس السعادة فى حياتك ، ووجدت حلاوة الايمان فى نفسك (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله وان يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار). فاذا أحببت ربك هذا الحب ، وظهرت ثمار حبك له سبحانه فى حبك لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وفى حبك للصالحين المصلحين ، لا تحبهم الا لأنك تعرف أن الله يرضى عن هذا الحب ، واحببت نعمة الايمان كل الحب ، وتمسكت بها كل التمسك ، حتى كرهت أن تنزع منك هذه النعمة وان تعود الى الكفر ، كما تكره أن تلقى فى النار ، لأنك موقن أن الكفر يلقى بصاحبه فى النار فعلا .. اذا فعلت ذلك فقد قطعت نصف الطريق الى السعادة الكاملة ..

هل أنت مشوق لمعرفة النصف الآخر ؟

مما لا شك فيه أنك تعرف أهمية ذلك النصف ، فلئن كان النصف الاول فى غاية الأهمية لانه هو الاساس ، فان النصف الثانى فى غاية الاهمية أيضا لانه هو الموصل للثمرة ، تلك الثمرة التى ترجوها ونرجوها ونسأل الله سبحانه أن يبلغنا اياها .

ولعلك تذكر انك قرأت فى الفصل الرابع « فصل التيسير » أن بلوغك الى رضوان الله يحتاج الى جناحين قويين ، هما الايمان والعمل الصالح .. ولكننا هنا نتحدث عن الحب ، وقد قطعت نصف الطريق الى السعادة الكاملة بحبك لله ، ووجدت حلاوة الايمان بهذا الحب ، انه حب من جانبك ، وهو أساس عظيم وخطوة حاسمة تستطيع بها أن تستمع وتنتفع ، استمع ما يقوله رب العزة لنبيه ، ليدلنا على النصف الآخر فى طريق السعادة

الغامرة ، بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة « **قل ان كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله** »(٢) .

الخطوة الأولى اذن هى أن تحب الله ، والخطوة العظمى أن تتبع ما جاء به الرسول فيحبك الله ، واذا أحبك الله فقد وصلت ، ماذا ترجو بعد ذلك ؟ ان قمة السعادة ان يحبك الله ، فاذا أحبك تجاوز عن سيئاتك وضاعف حسناتك « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** »(٣) .

انه كريم ، ان أقبلت عليه شبرا اقبل عليك زراعا ، وان اقبلت عليه ذراعا اقبل عليك باعا ، وان جئته تمشى أتاك هرولة .

انه رحيم ، انه ودود ، انه يحب .. يحب المتقين ويحب المحسنين ، يحب الصابرين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ، فاذا احببت الله ثم اتبعت ما جاء به رسوله .. أحبك الله ورضى عنك ، واغدق عليك واكرمك ، وتولاك ورعاك . وعافاك وبارك لك فيما اعطاك ... واستعدك .

الخطوة الأولى اذن أن تتعلم كيف تحب ، وماذا تحب .. كيف تملأ قلبك بالحب ، وان تتوجه بهذا الحب .

الحب نعمة يمنحها الله ان يشاء من عباده فيعرف كيف يطهر قلبه من الحقد والغل والحسد ، ثم يملأه بعد ذلك بالحب ، حب الله ورسوله وعباده الصالحين ، حب الحق والخير والجمال ...

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ومعه بعض صحابته فقال لهم : يطلع عليكم من هذا الجانب رجل من أهل الجنة ، وتطلع النابس الى الجانب الذى أشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم ... واشرأبت أعناقهم ليروا من هذا الذى يبشره

(٢) الآية رقم ٣١ من سورة آل عمران .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وتوقعوا أن يروا صحابيا من كبار الصحابة ، او عابدا من مشاهير العباد ، ولكن طلع عليهم رجل عادى من الأنصـــار ... وفى المساء ذهب اليه عبد الله بن عمرو بن العاص ليرى عبادته ، ... وطرق عليه الباب ، فلمـــا استقبله الانصارى ، زعم عبد الله انه قد حدث بينه وبين أبيـــه شىء ... وأنه ضيف عند الرجل حتى يسكت الغضب عن ابيه ، فيعود اليه ، ورحب الأنصـــارى بعبد الله . ولكن عبد الله لم ينم : وانما اخذ يترقب ليرى كيف يقوم الانصارى ليله ويصوم نهاره ، فلم يجد شيئا من ذلك ، بل وجد عبادة عادية اقل من عبادته(٤) ، فقال فى نفسه لعل الرجل كان متعبا الليلة ، وترقب الليلة التالية ، ولكنه لم يجد عبادة اكثر من البارحة ، وفى الليلة الثالثة كذلك .. فاضطر عبد الله الى مصارحة الرجل ، بأنه لم يحدث بينه وبين ابيه شىء ، وانما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قال عن هذا الانصـــارى فأراد أن يعرف سر هذه البشرى ، وعجب كل العجب أن يرى عبادة الرجل أقل من عبادته ، فقال الأنصـــارى ليست لى عبادة خاصـــة ، فهذه هى عبادتى ، قال عبد الله بن عمرو : فما هو السر اذن ؟ تذكر .. فقال الرجل لا شىء . هـــذه عبادتى ، غير انى احب الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، ولا احمل حقدا لاحد .... ، قال عبد الله : هـــذه ، بهذه وصلت ، بالقلب النظيف الذى يجيد الحب ولا يعرف الحقد وصلت ، الى رضـــوان الله وصلت ، وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة .

---

(٤) وقد كانت عبادة عبد الله بن عمرو معروفة بالمغالاة حتى قال لـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم أخبر أنبك تصوم ولا تفطر ، وتصلى الليـــل ؟ فلا تفعل ... فان لعينيك حظـــا ، ولنفسك حظـــا ولأهلك حظا ، فصم وافطـــر ، وصل ونم ، وصم من كل عشـــرة أيام يوما ولك أجر تسعة) رواه البخارى ومسلم .

تعلم يا اخى كيف تحب ، كيف تطهر قلبك من البغضاء والضغينة ، من الحقد والحسد ، تعلم كيف تحب أخاك وجارك وزميلك فى العمل ، كيف تحب الخير للناس وتفرح فعلا بما يصيبهم من خير ، تعلم ، وسوف تسعد دائما بما ترى من نعم الله على عباده ، ونعم الله لا تنتهى ..

هل تعرف أن الحب هو العامل الحقيقى فى سعادة القلوب ، انك اذا احببت الناس وجدت فى صدرك سعة لأخطائهم ، لن تراها جرائم ، ستراها مجرد اخطاء صغيرة يمكن التجاوز عنها والتسامح فيها ، لن يضخمها فى نفسك الحقد عليهم والكره لهم .

هل تعرف أن ابتسامة الحب تفتح القلوب المغلقة ؟ هل نعرف أن حب النفس طبيعة البشر ، ولذلك لا تعجب اذا رأيت الانسان يحب لنفسه الخير ، أن رب العزة يعرف ذلك ((**الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**))(١) من أجل ذلك يبشر الصالحين من عباده بالخير ، لأنه يعرف انهم يحبون لانفسهم الخير ، وينذر المنحرفين بالشر لأن كل انسان يكره لنفسه الشر ، فلا تغضب لما ترى فى الناس من حب لانفسهم ، انها طبيعة يمكن أن تستثمرها بأن تقدم لهم الخير ما استطعت ، وان تبعد عنهم الشر ما استطعت ، أن تبعد شرك انت على الاقل ، فماذا وفقك الله أن تبعد عنهم شرورا أخرى فأنت من الفائزين .

هل تعرف ان حبك للعمل ، اى عمل ، يجعلك سعيدا به ، تسعد اثناء ممارسته وتسعد حينما ترى نتيجته .. ثم تتقنه كل الاتقان ، وتبدع فيه ، وتطوره لانك تحبه ؟

---

(٥) الآية رقم ١٤ من سورة الملك .

وأخيرا ، هل تعرف نعمة الصديق ، وحب الصديق ؟ ولنسأل انفسنا اولا : من هو الصديق ؟ هناك من يقول ان الصديق هو الشخص الذى يمكنك ان تثق به ، وهناك من يقول انه الشخص الذى تأنس اليه وترتاح الى وجوده معك وتحن اليه اذا غاب عنك ، ولكن أبا الطيب المتنبى وهو من اكبر الشعراء فى الأدب العربى ، أخطأ مرة فى استخدام لفظ الصديق فقال :

ومن تكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد

وما أن سمع سيبويه المصرى هذا البيت حتى قال : ان أبا الطيب لا يعرف معنى الصداقة ، كيف يكون صديقا وعدوا فى الوقت نفسه ؟ ان الصداقة مشتقة من الصدق ، من صدق المودة ، فلا يمكن أن يسمى العدو الذى تضطر الى معاملته او مشاركته فى شىء ، او العمل معه فى أمر من الأمور ، وأنت لا تحبه ولا يحبك ، لا يمكن أن يسمى هذا صديقا ، ولا أن توصف هذه العلاقة بأنها صداقة ، لانه ليس صادق الود ، وليست علاقتك به من اجل هذا الود ، ان الصديق كلمة جميلة مشتقة من الصدق كما رأيت ، كما اشتقت كلمة الخليل من تخلل محبته لشغاف القلب ولذلك يقول الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى
وبه سمى الخليل خليلا

ومما لا شك فيه انك تعرف نعمة الصديق ، وتقدر قيمة الخليل ، ان الحياة بلا صديق قاسية ، جافة ، كئيبة ، ثقيلة .. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا أراد الله بعبد خيرا

رزقة خليـــلا صالحا ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعـــانه) أى أن الصديق الصادق الود ان نسيت ما يجب الا تنساه ذكرك . ان نسيت ربك ، ان نسيت واجبك ، ان نسيت أن تبر أهلك ، ان نسيت تلك القاعدة الذهبية ، وهى أن أى عمل يقصـــد به وجه الله عبادة ، ان نسيت ذلك ، أو نسيت أن تجعل هدفك فى الحيـــاة تقييم الخير لنفسك وللناس .. ذكرك ، وان ذكرت واجبك شجعك على أدائه ، وأعانك عليه ، **هـــذا هو الحب . هذا هو الصـــدق** فى المودة ، ومن هنا كانت الصداقة نعمة ، لقد كان الصحابة عليهم الرضوان يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الحب ، حتى لقد بكى أحدهم فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ؟ قال الصحابى : يا رسول الله ، انى كلما أحببت أن أراك حضرت الى المسجد لأسعد برؤيتك ، ولكنى كلما تذكرت درجات الجنة ، وأننى لن أراك هناك ، لأنك سوف تكون فى الدرجة العليا ، ونحن ان دخلنا الجنة سنكون فى درجة أدنى وبين كل درجـــة وأخرى سبعون خريفا .. كلما تذكرت أننى فى الجنة لا أراك اشتد حزنى فبكيت ، ونزل قول الله سبحانه ((**ومن يطع الله والرســـول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهـــم من النبيين والصـــديقين والشـــهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا**))(٦) وحينئذ طمأنه رســـول الله صلى الله عليه وسلم وقال له (أنت مع من أحببت) .

وكما عرفت فان الحب يسعد صاحبه اذا أحب ما ينبغى للانسان الكريم أن يحب (والناس فيما يعشقون مذاهب) .

فهذا صحابى يعشق سورة الاخلاص ((**قل هو الله أحـــد**)) ولذلك يقرؤها فى صلواته كل ركعة ، يقرأ الفاتحة ثم الاخـــلاص،

---

(٦) الآية رقم ٦٩ من سورة النساء .

ويقرأ بعد ذلك سورة قصيرة اخرى ، او بعض آيات من سورة ، وهكذا فى كل ركعة ، وكان الرجل يصـــلى اماما بالناس ، وشكا بعضهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاكما يشكو الناس بعضهم بعضا فى هـــذا العصر ، يشكونهم لمجرد التنكيل بهم ، والتشهير بسيرتهم .. ان الصحابة لم يكونوا كذلك ، وانما كانت شكواهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرفوا هل يجوز ذلك فى الصلاة أم لا يجوز ، واستدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله عن سر قراءتها مع الفاتحة فى كل ركعة ، ما دام يحفظ غيرها ويقرأ بعدها سورة اخرى ، فبكى الرجل وقال فيما يشبه الوجد (انى احبها يا رسول الله) فربت عليه الصلاة والســـلام على كتفه وقال له (حبك اياها ادخلك الجنة) !

وآخر يعشق لغة القرآن ، وينشد فى حب صادق :

لا تلمنى فى هواهـــــا
ليس يرضينى ســـواها
لست وحـــدى افتديهـــا
كلنـــا اليـــوم فداهـــا
فيهـــــا الأم تغنـــت
وبهـــا الوالـــد فاهـــا
لغـــة الأجـــداد هـــذى
رفـــع اللـــه لواهـــا

ومن السعداء كثيرون يجعلون الكتاب خير صديق فى رحـــلة الحياة ، ومؤمن لا يسمع من الاذاعات الا اذاعة القرآن الكريم ، انـــه يحبها .. يطرب لسماعها . ويردد مع ندائها اليومى (يا أمة القرآن) بيتا من الشعر صاغه الحب ، وتغنى بـــه .

« يا امـــة القرآن » يا خير الأمم صوت من الأعماق وضاء النغم

وانت ·· ماذا تحسب ؟

ان اردت السعادة صافية لا يكدرها شيء ، فاجعل حب الله يملأ قلبك ، اجعله دينك ، غذاءك ، روحك ، حياتك ··· ثم اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحبك الله ويرضى عنك ، وينادي في الملأ الأعلى ·· انى أحب فلانا فأحبوه ، واذا أحبك الملأ الملائك ··· نادى مناد في الأرض ·· ان الله يحب فلانا فأحبوه ·· فيحبك أهل الأرض ·· وتصبح عضوا في مجتمع السعداء الذين يألفون ويؤلفون ·· وعلى هذه العضوية تتوقف سعادة الآخرة (والذي نفس بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ··) ·

الفصـــل الثـــالث

وتعـــــانـــوا

أظنك مطمئنا الى أن المجتمع المتحاب سيكون متعاونا ، وهل ينجح مجتمع ويسـعد الا اذا كان متحابا متعاونا ؟ وهل يفشـل مجتمع ويشقى الا اذا كان متباغضا متنازعا ؟ ! وسوف يبتسم علماء السماء والأنعام تسرح قطعانا فى جنبات الأرض ، وناهيك بمـا انـه غريزة ، طبيعة ، فطرة ·· الطيـور تتعاون أسرابا فى جـو السماء ، والأنعام تسرح قطعانا فى جنبات الأرض ، وناهيك بمـا يقوم بـه النمل والنحل من تنظيم للتعاون دقيق يثير الاعجاب ، ويعطى مثـلا رائعا للانسان · ونعم ، ان التعاون هو نداء الفطرة ، ولكن الا ترى معى ان هناك من الافراد والمجتمعات فى عالم الانسان بالذات من يفسـد الفطرة وينحرف عنهـا ؟ الا ترى أن كل مولود يولد على الفطرة ، ولـكن أبواه أو مدرسته أو بيئته تنحرف بـه بعيدا عن الفطرة وعن دين الفطرة ، بـل الا تـرى من المجتمعات الاسلامية نفسها ـ والمفروض أنهـا على دين الفطرة ـ مجتمعات تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟! تستبدل التباغض والتخاصم والتنازع الهدام بالتحاب والتقارب والتعاون البناء ؟! فليصحح علماء النفس نظرياتهم بناء على واقع الانسان ، وليتقبلوا شكرنا الجزيـل على ما بذلوا من جهد وقدموا من دراسات حول تعاون الطير وطبائع الحيـوان ·

وأخرى لا بـد من التنبيه اليها والتحذير من الغفلة عنهـا ، وهى أن التعاون الذى نريده للمجتمع السـعيد ليس مجرد التعاون على أى شىء ·· ليس تعاون القطعان يقودها كبش أو تيس ـ ليس تعاون الجاهلية الأولى ··· وقد كانوا كما نعرف ؛

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في الحاثات على ما قال برهانا

لقد علمنا الاسلام كيف يكون التعاون ، التعاون الانسانى الراقى ، وقدم لنـا مفهوما جديدا للمثل القديم (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) فقد سأل الصحابة ـ رضى الله عنهم وجزاهم خير الجزاء عن هـذه الاسئلة الموفقة ـ سألوا رسول اله صلى الله عليه وسلم (يارسول الله ، انصره مظلوما ، فكيف انصره ظالما ؟) .

لقد بعث الاسلام فيهم الروح الانسانى الراقى ، فلم يعودوا يستسيغون هـذا المثل الجاهلى ، ان الانسان ينصر اخاه اذا كان مظلوما ، وهذا أمر طبيعى ، واسلامى ، وانسانى ، ولكن كيف ينصر أخاه وهو ظالم ؟ ولا بـد أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قـد ابتسم لهم وفرح بهم وأسعده سؤالهم ، فقال : (تمنعه عن الظلم فذلك نصره) انك حينئذ تنصره على شيطانه ، تنصره على أهوائه ، تنصره على الجوانب الشريرة فى نفسه .. فهذا هو أرقى ما عرفت الانسانية من أنواع التعاون ، وتأتى الآية القرآنية فى ذلك حاسمة (وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (١) والبر هو التوسع فى عمل الخير ، والتقوى هى أن تفعل ما أمر الله بـه ، وتنتهى عما نهى الله عنـه ، والتقوى كلمة مركزة ، أو كلمة جامعة كما يقول السلف الصالح ، وكذلك البـر ، اى انك يمكن أن تكتب مجلدات عن التقوى ، ومجلدات عن البـر ، ولعلك سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنـه يقول عن البر (عجبت للرجل يأتيه أخوه فى حاجة ، فلا يرى نفسـه للخير أهـلا) وسمعته يقول عن التقوى (التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيـل) .

(١) من الاية رقم ٢ من سورة المائدة .

ومن المؤكد انك سمعت قبل ذلك من خبر البرية أن البر لا يبلى ، وعرفت كيف يلتقى البر بأوسع معانيه مع التقوى فى بعض معانيها وذلك فى قول الله سبحانه (**ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة،وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى الباساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** (٢) .

هذا هو البر مفصلا ، يلتقى مع الصدق والتقوى فى عقيدة المجتمع السعيد ، وفى عباداته ، وفى معاملاته .

وقد أراد أحد الشعراء أن يبين لابنه أن البر ميسر لا صعوبة فيه ، فقال فى بساطة شديدة :

بنى ان البر شىء هين وجه طليق ولسان لين

ولكن هذه البساطة ما هى الا شكل من أشكال البر ، أما البر كما ورد فى الآية الكريمة ، وكذلك التقوى .. فهما مجال التعاون فى هذه الحياة .. انشاء الشركات الكبيرة والتعاون فيها .. اذا كان لخير المجتمع فهو بر ، تعاون الشعب لانقاذ المظلوم وردع المعتدى بر ، التعاون البناء فى مجال العلوم والآداب والدراسات النافعة بر ، ولذا فانا ننصح هذا الولد العزيز الا يقف بمعنى البر عند تبسيط أبيه له ، فيعتقد أن البر محصور فى هذين الامرين (وجه طليق ولسان لين) نعم ، انهما لون من ألوان البر ، وهو بر تحتاج اليه البشرية المعذبة وتسعد به النفوس المرهقة .. ونعم ، ان البائس يحتاج الى من يبتسم له ويقول له كلمة طيبة

---

(٢) الاية رقم ١٧٧ من سورة البقرة .

يــلا شــك ، ولكنه يحتاج مع ذلك الى من يقدم لــه العون ، يحتاج الى الاخذ بيده ، وتقديم ما يحتاجه من مقومات الحياة ...

ان الخائف يحتاج الى الأمان ، والجائع يحتاج الى الطعام ، وحرام على المجتمع الانسانى وقد بلغ ما بلغ من التقدم ، أن يظــل فى الأرض جائع أو عريان .. ان ما تخرجه الأرض ومــا تنتجه المصانع يكفى أهل الارض جميعا ويفيض .

واذا كان « برنارد شــو » الأديب البريطانى الساخر ، قــد ســئل مرة عن عالم اليوم فقال (عالم اليوم كرأسى ولحيتى ، كثرة فى الانتاج وسوء فى التوزيع) (٢) فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقه بأكثــر من ألف وثلاثمائة ســنة بقوله دون ســخرية (ما جاع فقير الا ببطنة غنى) ان كل مترف ينعم بثمار التعــاون الانسانى كله .. ان السيارة التى يركبها تعاونت فى صنعها مئات الأيدى وعشرات البحوث العلمية ، وكذلك الطريق المرصوف الذى يسلكه ، والقصــر الذى يسكنه ، وكل الأدوات المنزلية والمخترعات الحديثة تعاونت فى صنعها وتوصيلها اليــه أجناس كثيرة ، فلينظر الانسان الى طعامه ، ولينظر الى فراشه ومنامه ... :
الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

بل ان التعاون الانسانى يمتد عبر العصور ، اننى أحيا سعيدا وأرى طريق النور فى ضوء ما تعاونت عليــه مجموعة من الرجال فى دار الارقم بن أبى الارقم ؛ ومجموعة من جند الله بعث بهم أمير المؤمنين (٤) الى مصر ، وأقرأ مئــات الكتب من ثمــار العقــول

---

(٣) كان « برنارد شــو » أصلع الرأس كث اللحية .

(٤) جيش الفتح الاسلامى بقيادة عمرو بن العاص ، بعث بــه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

العبقرية فى شتى العصور ، هذا فكر منذ قرون فى جرجان ، وذلك أبدع قبل سنين فى بغداد ، وثالث يكتب فى قرطبة ـ من أيام قرطبة وغرناطة واشبيلية ـ وسهر الناسخ والوراق .. ثم فكر « جو تنبرج » (٥) فى بلاد الراين ، ودارت المطابع فى بولاق والرياض ومكة والمدينة ، وأنا أقرأ فى مصر ، ويبتهج القلب وتنتعش الروح وتنفرج الأسارير ، وأشعر بالسعادة الغامرة .. فأكتب لك هذه الدعوة .. وصوت يأتى من بعيد ، ويصل الى بعيد ، يصل الى أعماق القلوب ، تسجيل القرآن الكريم بصوت مصرى مسجل فى القاهرة أو فى الرياض أو فى الدوحة أو فى ابى ظبى .. ويصل الى قلوب المؤمنين والمؤمنات فى كل أرض ، يصل الى مقر الايمان ، وينعش الروح والوجدان ، كم من الأيدى اشتركت فى التسجيل ، وفى صنع الجهاز ، وتوصيله اليك ؟ .

ولعلك تذكر تلك الحكاية الفارسية التى يرويها التاريخ عن فلاح كبير السن والتجربة . كان يزرع شجرة من أشجار الزيتون ، ومر به ملك الفرس فى حاشيته ، فعجب لهذا الشيخ الهرم يغرس شجرة بطيئة النمو بطيئة الثمر ، وكان فى منطق الملك ـ كما فى منطق غيره من الناس ـ ان الموت قريب من الشيوخ بعيد عن الشباب . فقال للرجل ان الزيتون بطىء الثمر وأنت رجل هرم ، فلم تجهد نفسك فى زراعة شجر لن يثمر فى حياتك ؟ فقال الرجل (زرع من قبلنا فأكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا) فقال الملك أحسنت ، وكانت الحاشية تعطى جائزة كبيرة لمن يقول له الملك أحسنت ، حسب تقليد كسروى قديم ، فأعطوه الجائزة الكبيرة ، فلما رآها الرجل قال للملك : « الا ترى .؟! لقد أثمرت شجرتى سريعا » فقال الملك أحسنت ، فأعطت الحاشية للرجل جائزة مماثلة للأولى ، فقال

---

(٥) مخترع الطباعة .

الرجل عجبا ، ان الشجر يثمر كل عام مرة ، وشجرتى اثمرت مرتين فى لحظة ، فقال الملك أحسنت ، فقدمت له الحاشية جائزة ثالثة ٠

ولا يعنينـا فى هذه القصة مبلغ الجائزة ، ولا سرعة انصراف الملك وحاشيته حتى لا تنفد نقودهم كمـا يقول ابو الوفاء البغـدادى ، ولكن الذى يعنينا هو قول هـذا الرجل الكبير سنا وتجربة وحكمة (زرع من قبلنا فاكلنا ، ونزرع ليأكل من بعدنا) انه يعرف بحسه الفطرى تعـاون الاجيـال المتعاقبة ، لتوفيـر السعادة للمجتمـع الانسـانى ٠

والشورى التى امـر الله بها نبيه ، ووصف بهـا مجتمـع المؤمنين ، هى نـوع من التعـاون الفكرى والعلمى والسـياسى والاجتماعى ٠

بهذه الروح الاجتماعية تحيا المجتمعات وتنهض ٠٠ وتسعد ، فما دمت فى عون أخيـك سوف تجد الله فى عونك ، واظنك تحفظ هـذا الحديث الشريف (الله فى عون العبد ، ما دام العبد فى عون اخيـه) ولنا فى هذا الحديث وقفتان :

اولاهما : هى مفهوم المخالفة ، اى اننا نسال : اذا لم يكن العبد فى عون أخيه ، فماذا يكون ؟ يتخلى اللـه عنه ٠٠٠ تصور ٠٠٠ انسـان يمشى على الأرض وقد تخلى الله عنـه ، ماذا يحدث لـه فى أرض الله ؟ تتخطفه الطير أو تهوى بـه الريح فى مكان سحيق ، تتقاذفه التيارات وتذهب بـه الزوابع وتعصف به الخطوب ٠

والثانيـة : هى كلمة (أخيه) ان الاسلام ينظر الى النـاس على أنهم اخوة (انمـا المؤمنون اخوة) ويناديهم بلفظ الأخوة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يركز على هذا المعنى (لا يبـع

أحدكم على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيــه ، حتى يدع) إنه أخوك ، أخوك فى اللــه ، فى الدين ، فى طـريق النــور ، فى مجتمع السعداء ، أخوك ...

وتصور هؤلاء الاخوة وقــد ادار كل منهم ظهــره لأخيه .. تباعدوا وتباغضوا وتخلى الله عنهم ، قد يكونون اذكياء ، وقد يكون كل منهم ناجحا فى عمله ، ولكنهم اذا فقدوا رباط الاخوة ، اذا لم يتعاونوا على البر والتقوى ، يتخلى الله عنهم ، ولا يمكن أن يسعدوا أو يســعد بهم المجتمع ..

ثم تصورهم مرة أخرى يتعاونون ، ولكنهم يتعاونون على الاثم والعدوان ، وأنت تعرف أن الآثام هى الذنوب ، وان العدوان هو تجاوز الحد الذى ينبغى التزامه ، هل يمكن أن يســعد الناس فى هذا المجتمع ، أو يسعد بمثل هؤلاء مجتمع ؟ ان المجتمع السعيد شىء آخــر .. مجتمع أفراده سعداء ، يحبون الخير ويفعلونــه ، وينهون عن المنكر ويتجنبونه ، ويسأل كل منهم نفســه ، ماذا قدمت لهذا المجتمع ؟ ماذا أضفت ؟ ويحرص كل منهم على أن يضيف شــيئا ، فلا خيــر فيمــن لا يضــيف ، يحــدث كل منهم نفســه

وكن على الدهر معوانا الذى أمل يرجو نوالك ، ان الحر معوان

مجتمع التكافل هذا السعيد ، هو مجتمع المؤمنين الصادقين ، يكثرون عند الفزع ، ويقلون عند الطمع ، يربط الحب قلوبهم ، ويرفع التعاون شأنهم .

مجتمع التكافل هذا الســعيد .. الا تفعلوه ، تكن فتنــة فى الأرض وفســاد عريض .

الفصـــــل الـرابـــع

(التـراحـــم)

هل الرحمة مشتقة من الرحم ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟

أما أصحاب الفلسـفة المادية ، وأنصـار التفسير المـادى للتاريخ ، فيؤكدون دائما أن المادى هو الاصل ، وأن الرحمة مشتقة من الرحـم ، فالأصل ان الاخوة يتراحمون لأنهم أبناء رحم واحـد ثم اتسع التراحم ليشمل أبناء الاسـرة الواحدة ، أو ما يسـمى بأولى الارحام ، ولكننا لا نأخذ بهذا التفسير ، لأننا نحترم القاعدة الأصولية المعروفة (**لا اجتهاد مع النص**) **وأمامنا نص** واضـح وقطعى ، أمامنا حديث صحيح قدسى (أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لهـا اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعهـا قطعتـه) .

كما أن العقل والمنطق لا يستسيغان أن تكون الرحمة وهى السابقة على خلق العالم كله ، مشتقة من الرحم . ان الله سبحانه خلقنا برحمته ، فلا يصدق العقل ولا يستسيغ المنطق أن تكون هذه الرحمة وهى صفة من صفات الله سبحانه ، مشتقة من الرحم .. ، فالعقل والنقل كلاهما ينكر هذا التفسير المادى للتاريخ

وليست الرحمة قاصرة على أولى الأرحام بالمعنى المادى ، فالعالم رحم بين أهله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة ، ليست رحمته قاصرة على بنى هاشم ، أو محدودة فى قريش ، أو موقوفة على العرب .

وحتى لو اعتبرنا الانسانية كلها تنتمى لرحم واحد ، وهو المبدأ الذى نؤمن بـه (**يايهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى**

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (١) فان هـذا أيضـا لا يتسع للرحمة العامة ، ولا يستوعب الرفق بالحيوان ، ولا يفسـر لنـا كيف دخلت أمرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، كما أنه لا يعطينا التفسير المقنع لاستحقاق رجل آخر الجنة ، لأنـه رأى كلبا يلهث ، يلعق الثرى من العطش ، فنزل البئر وملأ نعله بالماء وأمسـكه بفمه لانشغال يديه فى الصعود من البئر ، وسقى الكلب الظامىء ، فنظر اللـه لـه ، فغفـر لـه ٠

كل هذه وقائع ثابتة ، تؤكد أن الرحمة والرفق بالحيوان صفة السعداء أصحاب الجنة ، وان القسوة وانعدام الاحساس بالرحمة صفة الاشقياء أصحاب النار ٠

فالتفسير الذى يتفق مع العقل والنقل والوقائع وشـواهد التاريخ ، هو أن الرحمة هى الأصل وليست الرحم ، رحمة اللـه التى وسعت كل شىء هى الأصل ، وأنه سبحانه وهب مخلوقاته جزءا من رحمته فبـه يتراحمون ، وبـه ترفع الماشية ظلفهـا عن رضيعها رحمة به ، فهـل ييأس من رحمة الله عاقل ، بعـد أن علمنا أن كل الرحمة التى وهبها الله لسائر مخلوقاته ، جزء من مائـة جزء من رحمته سبحانه ؟ ٠

ومما لا شـك فيـه ان نصيب كل مخلوق من هـذه الرحمـة يختلف عن نصيب الآخر ، ومما لا شك فيـه أيضـا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان صاحب النصيب الأعظم ، ومما لا شك فيـه كذلك

---

(١) الآية رقم ١٣ من سورة الحجرات ٠

ان شاعر العروبة والاسلام (٢) رغم بلاغته وبراعته ، لم يوفه صلى الله عليه وسلم حقه حين قال فى رحمته :

فاذا رحمت فانت أم او اب هذان فى الدنيا هما الرحماء

ان حادثة زيد بن حارثة تؤكد انه صلى الله عليه وسلم كان أرحم بالانسان من ابيه وأمه (٣) .

وكما عرفت فى فصل التعاون ان الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، فلتعرف هنا ان الراحمين يرحمهم الرحمن .

---

(٢) امير الشعراء أحمد شوقى .

(٣) ضل زيد طريقه فى طفولته فخطفه جماعة من العرب وباعوه ، ثم اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ووهبته خديجة لمحمد صلى الله عليه وسلم وكان أهل زيد يبحثون عنه فى كل مكان وبعد سنوات عرفوا ان أبنهم فى مكة عند محمد بن عبد الله ، وكان ذلك قبل النبوة ، فلما رأى محمد صلى الله عليه وسلم حرارة اللقاء بين زيد وأبيه وعمه وعرض عليه الرجلان أن يدفعا ما يريد من مال ليأخذا زيدا ، قال عليه الصلاة والسلام ، لا أريد فيه مالا ، وهو بالخيار ، ان شاء مكث عندنا وان شاء ذهب معكما ، وفوجىء الرجلان بأن زيدا يرفض العودة معهما ، ويقول لهما : ما رأيت حبا ولا عطفا ولا شفقة ولا رحمة كما رأيت من هذا الرجل ، انه أرحم بى من أبى وأمى ، وعاد الرجلان دون أن يستطيعا اقناع الفتى بالعودة معهما ، ثم أعتقه محمد وتبناه ، وقصته بعد ذلك معروفة ... زواجه من زينب بنت جحش ، ثم طلاقها منه ، وزواجها من محمد صلى الله عليه وسلم بأمر من السماء ، ليعلم الناس أن زوجة الابن بالتبنى ليست مجرمة كزوجة الابن من الصلب .. بل ومنع التبنى (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ومن يومها اصبح اسمه زيد بن حارثة بعد ان كان يدعى زيد بن محمد .

ولعلك قـد سمعت من بين ما سمعت من مأثور الكلم (ارحموا من فى الأرض يرحمكمْ من فى السماء) ٠

الرحمة اذن هى سمة الانسانية الراقية ، وهى ركن ركين فى بنـاء السعادة الانسـانية وهى خلق كريم من أخلاق الأنبيـاء والصـالحين ٠ ٠ (٧)

أما الرحمة الآلهية فأمر هائـل ، ان كل الرحمة فى هـذه الأرض ، رحمةُ الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الرحماء والمحبين ، ورحمة الحكام بالمحكومين ، ورحمـة الطير بفراخـه والحيوان بصغاره ، كل ذلك جزء من مائة جزء من رحمته سبحانه ٠

كان أحد الصحابة يمشى فى طريق قريب من المدينة ، فوجد عشـا من أعشاش الطير بـه أفراخ صغيرة ، فخلع رداءه ، وأفرغ فيه كل ما فى العش ٠٠ وبعد لحظات وجد أم الفراخ تحلق فوق رأسه وتتبعه أينما سار ، فخطرت لـه فكرة ، لماذا لا يتوقف ويفتح الرداء ليرى ما تفعل الأم ، انه مطمئن ان الفراخ لا تستطيع الطيران، ونفذ فكرته ٠٠ فوقعت أم الفراخ على صغارها لا تريد أن تبرح ، فأخذها الصحابى ، وذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى لـه متعجبا مما فعلته الأم ، فابتسم عليه الصلاه والسلام ، وقال لـه افتح الرداء ، ودهش القوم حينما رأوا أم الفراخ لا تريد أن تطير ، لا تزيـد أن تفارق الأسـر وتترك صغارها ٠٠ وكانت فرصة مناسبة لدرس عظيم حيث قال عليه الصلاة والسلام لصحابته، أتعجبون من رحمة أم الفراخ بصغارها ؟ والذى نفسى بيده ، للـه أرحم بكم من هذه الأم بأفراخها ٠٠٠

هـل عرفت الآن لماذا نبـدأ أقوالنـا وأفعالنا « بسم اللـه الرحمن الرحيم » ؟ وهل عرفت لماذا اختار لنـا سبحانه وتعالى

من بين أسمائه الحسنى هذين الاسمين فى البسملة ٠٠؟«الرحمن الرحيم» وهل عرفت لماذا كان خـاتم النبيين هو الرحمة المهداة والنعمـة المسداة ، ولماذا أرسله ربـه ؟ ولماذا أجهـد محمد نفسه ونادى صحابته لانقاذ الناس من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ؟ ان اردت أن تعـرف ذلك فاقرأ وتمعن فى قول اللـه سبحانه لنبيـه (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (٤) ٠

والا ، فلماذا أرسله يجاهد ، وينذر ويبشـر ، ويوجه ويضرب للناس المثـل ، أعلى مثل وأروع مثل ؟ ! وقد استوعب الصحابة الدرس فارتقى بهم المستوى الانسانى ، فهذا عمر بن الخطاب وقـد كان جبارا فى الجاهلية ، كانت الدموع تنهمر من عينيه كالطفـل اذا رأى انسانا يتألم ٠

هل تعرف انه أراد مرة أن يعين واليا فأرسل اليه ، وبينما هم جلوس دخل صبى صغير فجلس فى حجر جده عمر ، وفوجىء المرشح للولاية بأن عمر يهش فى وجه الطفل ويقبله ويداعبه فقال : أتفعل هذا يا أمير المؤمنين ؟ والله ان لى عشرة أولاد مـا قبلت منهم أحـدا ، ولا يجرؤ أحدهم ان يدنو منى ، فأجابه عمر (وماذا تفعل اذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك ؟ انما يرحم الله من عباده الرحماء) ثم عدل عن ترشيحه للولاية وقال (انه لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟) ان مهمة الراعى أن يرحم الرعية ، ولذلك سمى راعيا ، لأنه يرعى أمورهم ، ولذلك كانت الرحمـة مقياسا لصلاحية الراعى أو عدم صلاحيته ، الرحمة سعادة ورقى ،

---

(٤) الآية رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء ٠

الرحمة مدنية وتقدم ، بينما القسوة شقاء وتخلف ، القسوة بعيدة عن الايمان ، قريبة من الفسق ، ولذلك فان المؤمنين يحذرونها ويحذرونه ، وينأون عنها ويجتنبونه ، لكى لا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ، بل يعتبرون بما حدث للأمم من قبلهم ، ممن أسبغ الله عليهم نعمة ظاهرة وباطنة ، ثم قست قلوبهم بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، انظر ، ان القسوة عقوبة تحل بالأقوام ان كفروا بأنعم الله ، ثم فكر فى صلة هذه القسوة بما يزعمون من أنهم شعب الله المختار ، ان هذا الزعم نفسه قسوة ، قسوة على غيرهم من الشعوب والاجناس، ثم أنظر الى التعبير القرآنى المعجز (**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون** بالله) (٥) أنظر ، ليست هذه كتلك ، اننا لا نغلق باب الهداية فى وجه غيرنا من الناس ، وانما نحب أن يسعد غيرنا كما نسعد ، وان يشترك الناس جميعا معنا فى هذا الخير ، ان خير أمة أخرجت للناس لا تعنى العرب ، وانما تعنى كل المسلمين ، كل من أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر وآمنوا بالله ، وباب الدخول فى هذه الأمة ـ خير أمة أخرجت للناس ـ مفتوح على مصراعيه ، لا يملك أحد أن يمنع غيره من الدخول فيه ، ولا أن يطرد أحدا بعد الدخول فيه ، انه ملك للانسانية كلها ، وليس ملكا لأحد بعينه ، ان الباب مفتوح دائما ، مفتوح لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، مفتوح يناديكم فأقبلوا ، كما ينادى كل المسلمين بالفعل أو بالاستعداد ان يتراحموا (**فهل عسيتم ان توليم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم (٦)** ٠

---

(٥) الآية رقم ١١٠ من سورة آل عمران ٠

(٦) الآية رقم ٢٢ من سورة محمد ٠

لا ، انتهينا يا ربنا انتهينـا ، وعرفنا طريق السعادة كمـا علمتنا ، عرفنا طريقنا فى الحياة ، وعرفنا أهدافنا من الحياة ٠

أهـداف كل مسـلم فى كل هـذا العـالم
ان ينشـر الفضـائلا وأن يظـل قائـلا
الـدين فى التراحـم الدين فى التراحـم

الدين فى التراحـم (٧)

---

(٧) آخر أبيات النشيد الذى كتبته ليكون نشيد الجمعية العالمية للمسلمين ٠ جمعية « كل مسلم » ٠

الفصل الخامس

أعدلوا

كان محمد شابا فى العشرين من عمره حينما سمع صوتا

من بعيد :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر

وأسرع القوم الى مصدر الصوت، الى جبل أبى قبيس، ورأى محمد القوم الى مصدر الصوت ، الى جبل أبى قبيس ، ورأى محمد جمعا جمعا من الناس يسألون المنادى : ما شأنك ؟ فقال انه جاء الى مكة تاجرا يبيع سلعته ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، وما زال يماطل فى دفع الثمن ... فقال بعض الناس لبعض : وماذا نفعل ؟ هل نستطيع أن نفعل شيئا مع العاص بن وائل ؟! .

واستغرب الغريب ، وهل يعجز هذا الجمع كله عن أخذ حقه من هذا الظالم ؟ وسمع الناس صوتا يقول تعالوا نجتمع .

وذهب الملأ من قريش الى دار عبد الله بن جدعان ، وتعاهدوا على عقد حلف أسموه بحلف الفضول ، ينتصرون فيه للمظلوم ، ويقفون صفا واحدا فى وجه الظالم ، حتى يأخذوا للمظلوم حقه .. وحضر محمد قبل بعثته هذا الحلف ، وخرجوا الى دار العاص بن وائل ، فلما رآهم ورأى التاجر بينهم فهم كل شىء .. وبادر بدفع ما عليه ، وكان هذا أول تطبيق عملى لحلف الفضول فى اليوم الذى عقد فيه .

وبقى حلف الفضول ... وبعد ما يقرب من أربعين سنة جاء ذكره بالمدينة ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم (لقد حضرت

حلفا بدار عبد الله بن جدعان ... ولو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت) أى أن مبادئه تتفق تماما مع مبادىء الاسلام : نصرة المظلوم وردع الظالم . وهل تشقى البشرية الا بالظلم ، وتعانى ما تعانى الا من الظالمين ؟ .

من أجل ذلك نقرأ فى الحديث القدسى عن الله سبحانه وتعالى (يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم حراما فلا تظالموا ...) .

أنظر ... انه سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه ، وهل يمكن غير ذلك ؟ هل يمكن أن يظلم ربك ؟! كلا ، ولا يظلم ربك أحدا ، ولا يظلم ربك أبدا ، وهل يمكن أن يحرم عليه أحد شيئا ؟ أستغفر الله ، ومن ذا الذى يحرم شيئا على الله ؟ انه سبحانه وتعالى هو الذى حرم الظلم على نفسه .

ولا يستطيع أحد أن يلزمه بشىء سبحانه هو الذى ألزم نفسه بالرحمة (**كتب ربكم على نفسه الرحمة** (١) هذان أمران تفضل الله سبحانه فألزم نفسه بهما ، **كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم** (٢) أما سنن الله الكونية ، فانها وان كانت ثابتة لا تتخلف (**ولن تجد لسنة الله تبديلا**) (٣) الا أنه سبحانه وتعالى لم يلزم نفسه بها ، ومن هنا كانت المعجزات خرقا للنواميس ، خرقا لهذه السنن ، وكانت دليلا على أنها من عند الله ، خالق النواميس ، والقادر وحده على خرقها ، القادر على أن يجعل النار لا تحرق ابراهيم ، والبحر لا يغرق موسى ...

---

(١) الآية رقم ٥٤ من سورة الانعام .
(٢) أنظر كتاب كل مسلم للمؤلف .
(٣) الآية رقم ٦٢ من سورة الاحزاب .

ومما لا شـك فيه أن حديثـا عن العدل لا يكون متكامـلا الا بحديث عن الظلم ، فما العدل الا مقاومة الظلم ، ووضع الحق فى نصابه ، ودعك من هذيان المخرفين الذين يدعون ان المسـاواة فى الظـلم عـدل • ان العـدل لا يتحقق مع وجـود الظـلم أصـلا ، ولا يجتمـع معـه مطلقا ، ان العدل هو محو الظـلم وابادته ، وابعاد شبحه البغيض وازالته ، وأنا أعرف أن المثل قد يعنى شيئا آخـر ، قد يعنى ان المساواة فى التضحيات عند التعرض للأزمات عدل ، وبذلك يكون المثـل صحيحا ، وقد فعلها عمر بن الخطـاب نفسـه فى عام الرمادة ، حينما فرض على نفسـه ان يأكل كمـا يأكل عامة المسلمين ، وامتنع عن طهى طعـامه بالسمن حتى ظهـر ذلك فى وجهه ، كما أثـر الطعام المطهى بالزيت فى معدته ، وكان يسمع بطنه تقرقر فيقول لها (قرقرى أولا تقرقرى فلن آكل السمن حتى يأكله سـائر المسلمين) وضرب بذلك أعلى مثل فى العدل •

أما ان تسـمى التضحيات ظلما ، وان تطلب المسـاواة بين الناس فى توزيع الظلم ، وأن يعتبر ذلك نوعـا من العدل ، فهـو تفكير غيـر انسانى • وقـد سبق ان عرفت صلة الظلم بالظلمات ، والحديث فى ذلك واضح وصريح (الظلم ظلمات يوم القيامة) •

ولو انك نظرت الى العدل بمعناه الواسع ، والى الظلم بمعناه الواسع ، لوجدت أمرين فى غاية الاهمية :

أولهما : ان كل ما يأمر بـه الاسلام يندرج تحت العدل بمعناه الواسع ، وأن كل ما ينهى عنـه الاسلام يتدرج تحت الظلم بمعناه الواسـع •

ثانيهما : ان كل ما يسعد بـه الانسان يتضمنه العدل بمعناه

الواسع ، وان كل ما يشقى بـه الانسان يتضمنه الظلم بمعناه الواسـع .

فأما أول الأمرين فواضح غاية الوضوح من كل ما أمر بـه الاسلام ودعا اليـه ، فالاسلام يدعو أول ما يدعو الى توحيد الله ، وهذا هو العدل بعينه ، لانه سبحانه وتعالى هو الذى خلقك ورزقك ورعاك ولا يزال يرزقك ويرعاك ، فالعدل ان تعبده شكرا على مـا أنعم ، والظلم ان تشرك بـه ما لا يخلق ولا يرزق ولا يمـلك لك من اللـه شيئا (**ان الشرك لظلم عظيم**) (٤) ولذلك يقول سبحانه وتعالى فى حديث قدسى (انى والجن والانس فى نبأ عظيم ! أخلق ويعبـد غيـرى .. ؟) .

ثم يدعوك الاسلام الى بر الوالدين، وبر الوالدين عدل .وينهاك عن عقوقهما لأن عقوقهما ظلم أى ظلم . ويدعوك ان ترعى بيتك والا تضيع من تعول (٥) ، فرعاية الزوج والأولاد عدل ، واهمالهم أو الجور فى معاملتهم ظلم أى ظلم .

بـل ان الاسلام يحذرك من ان تظلم نفسك ، وقد يختلط على بعض الناس ظلم النفس وهو ظلم حقيقى ، يختلط على بعض الناس بمعنى الايثار وهو شىء آخر ، شىء عظيم ونبيل ، وقد كان الصحابة يحبون الايثار ويتعـاملون بـه فيما بينهم (**ويؤثرون على انفسـهم ولو كان بهم خصاصة**) (٦) وقـد عجب الصحابة حينما سـمعوا رسول الله يحـذر الانسان ان يظلم نفسه ، عجبوا لأنهم يرون الظالم

---

(٤) الآية رقم ١٣ من سورة لقمان .

(٥) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كفى بالمرء انما ان يضيع من يعـول) .

(٦) الآية رقم ٩ من سورة الحشر .

يظلم الآخرين ليزيد فى ثرائه أو جاهه أو منصبه ، يظلم من أجل نفسه ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف يظلم الانسان نفسه ؟ فضرب لهم صلى الله عليه وسلم مثلا فى غاية الوضوح ، سألهم عن رجل جعل المال كل همه ، يسلك فى جمعه كل سبيل ، يجمع المال من حرام أو حلال ، لا يهتم الا بان يستكثر من جمع المال ، ومات بعد أن تحقق له ما أراد ، وورثه ابن له صالح ، فأحسن التصرف فيما ورث ، وأنفقه فى وجهه الصحيح ، كيف يكون مصير هذين الرجلين ؟ أما الابن فمصيره الى الجنة ، وأما الأب فمصيره الى النار ، من الذى ظلم هذا الأب ؟ لا أحد ، انما ظلم نفسه •

وأما الأمر الثانى وهو أن كل ما يسعد به الانسان يتضمنه العدل بمعناه الواسع ، وأن كل ما يشقى به الانسان يتضمنه الظلم بمعناه الواسع ، فهو أمر بديهى :

وليس يصح فى الاذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل

فاذا كانت هناك نفوس مريضة تسعد بالظلم وترضاه ، وتشقى بالعدل وتأباه ، فان هؤلاء فى حاجة الى علاج ، أما تركهم ينشرون الظلم ويؤيدون أهله ، ويخربون المجتمع ويفزعون أفراده ، فذلك هو الفساد الكبير ، ومعروف أن الفساد الكبير هو ان يقوى الباطل ، وان يضف الحق **(والله لا يحب الفساد)** (١) فاذا وصلت الأمور فى مجتمع الى هذا الحد ، فقد توعد منهم •

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه المجتمع بركاب سفينة ، فاذا كان من هؤلاء الركاب من يريدون خرق السفينة ، فماذا يكون موقف الآخرين ؟ •

---

(١) الآية رقم ٢٠٥ من سورة البقرة

ان تركوهم دون ان يمنعوهم ويردعوهم هلكوا ، وهلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا ٠

وقد تعود الناس ان يكون الظلم من القوى للضعيف ، من الحاكم ذى السلطان للمحكومين الذين لا يملكون سلطانا ، من المدير المستند الى منصبه لمرءوسيه الذين لا يستندون الى منصب ، من الرجل للمرأة ، من الأب للابناء الضعفاء ، ومن الابناء الاقوياء لآبائهم الذين بلغوا عندهم الكبر ٠ كل هذه انحرافات معروفة ومظالم واضحة ، ولكن النفوس السوية لا تغرها القوة ، ولا تغريها بالظلم ، بل تسخر هذه القوة لمساعدة الضعفاء وحماية المظلوم ، وتدعو الله ان يجعل قوتها فى طاعته وضعفها عن معصيته ، ومع ذلك فقد تعود الناس ان يروا ظلم القوى للضعيف ، ولم يفطنوا الى أن الضعيف كثيرا ما يظلم القوى ، فقد تخفى على كثير من الناس هذه الصورة من صور الظلم ، ظلم الضعفاء للاقوياء ، ظلم المحكومين للحاكم ، اذا كان يبذل جهده لاقامة العدل بين الرعية ، ولحماية الأمور الخمسة الأساسية ، وهى الامور التى لا يسعد فرد ولا يسعد مجتمع الا اذا حرص على حمايتها كل الحرص ، حماية الدين والنفس وحماية الأهل والعرض والمال ٠ اذا كان الحاكم يؤدى واجبه كأحسن ما يكون الاداء فى حماية هذه الامور ، ويرعى الله فى حكمه ، ثم يظلمه الناس ، فينكرون عليه جهده ، ويظنون انه يعيش فى برجه العاجى ، وأن هذه الامور تتحقق من تلقاء نفسها ، فالحاكم حينئذ يكون مظلوما مع شعبه ، وقد يرى نفسه مضطرا الى كثرة الحديث عن جهده ، وتسخير أجهزة الاعلام لهذا الحديث ، بدلا من أن يترك أعماله تتحدث عن نفسها ٠

وأوضح ما يكون تزعما لهذا النوع من الظلم ما يسمونه فى الدوائر الحكومية بالرجل الثانى ، ذلك الرجل الذى يحاول غالبا أن

ينسب لنفسه كل نجاح تحقق الهيئة ، والى رئيسه كل فشل يلحق بها ، بل انه كثيرا ما يحاول اثارة المتاعب والشغب ، ليثبت للمسئولين الكبار أن رئيسه غير قادر على ادارة الهيئة ، انه بكل صراحة طامع فى منصب رئيسه ، متطلع الى اليوم الذى يحل فيه مكانه •

ان أمثلة الظلم من أدنى الى أعلى كثيرة ، فقد يظلم الابناء عائلهم ، وتظلم الرعية راعيها ، ويظلم الخادم مخدومه ، وقد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويذكرنا كل هذا بأبيات عميقة الأثر فى نفس الكريم ، قالها أبو الطيب عن بعض هؤلاء الاعوان ، الذين كانوا على النقيض مما ينبغى لهم :

واخوان تخذتهم دروعا فكانوها ولكن للاعادى

وخلتم سهاما صائبات فكانوها ولكن فى فؤادى

فقد تنقلب الاية ، ويصبح الضعيف خائنا ، والخيانة ظلم من أبشع أنواع الظلم ، وفى الحياة الزوجية ليس حتما أن يكون الرجل دائما هو الظالم ، فقد يحدث العكس ، ان الرجل الكريم يرى أن قوامته على المرأة معناها بسط حمايته عليها ، وادخال السرور على نفسها ، وجعلها تشعر دائما ان ظلة الوارف يحميها من الهجير ، وحتى حينما يرى منها زلة لسان أو هفوة من الهفوات التى لا يخلو منها انسان ، فانها تجد من سنعة صدره ، وسماحة نفسه ما يستوعب ذلك (ولأن اكون كريما مغلوبا خير من أن اكون لئيما غالبا)

فاذا قابلت المرأة بالتقدير سماحته ، وعاشت سعيدة فى ظل حمايته لها من شرور نفسه وثورات غضبه بنفس الدرجة التى

يحميها بها من غيره ؛ فتلك أسرة سعيدة بعيدة عن الظلم بشتى صوره ، أما الاسرة التى يتبادل فيها الزوجان التظالم ، فتلك أسرة تشقى نفسها وأولادها ومن حولها من أهل وعشيرة ٠

هل رأيت كيف يتنوع الظلم ويتفرع ، كما يتنوع العدل ويتفرع ؟! ان الظلم له أصل واحد ولكن صوره متنوعة ، وكذلك العدل ٠

فالعدل مع الله ان تعبده ولا تشرك به شيئا ، والعدل مع الوالدين ان تبرهما ولا تقول لهما أف ولا تنهرهما ، والعدل مع الزوج والولد ان ترعى أسرتك وتحمى نبتها الجديد من كل الآفات . والعدل مع رئيسك الا تنكر جهوده ولا تثير من حوله الشبهات بالباطل ، ومع مرءوسك أن تقدر عمله وتعامله معاملة الأخ والصديق ، ومع المتعاملين معك ان تهش فى وجوههم وتبذل ما تستطيع لقضاء حاجاتهم ، وان تذكر دائما ان حاجة الناس اليك نعمة من الله عليك ٠

ولكننا مع ذلك لا نتجاهل ان أعلى صور العدل بعد توحيد الله وعبادته هى عدل الحاكم ، ولا نستطيع فى هذا المجال ان ننسى ان الامام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله (٨) ٠ انه أول هؤلاء السبعة لأنه أعظمهم أثرا فى حياة الناس ، وانت تعرف ان عدل الامام ينتفع به خلق كثير ، ويسعد

---

(٨) قال صلى الله عليه وسلم : (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله ، امام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى اخاف الله ، ورجل تصدق فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمناه) صدق رسول الله ٠

به خلق كثير ، وان ظلم الامام يصطلى بناره خلق كثير ، ويشقى بـه خلق كثير ، ولعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان أكثـر الحكام حساسية للعدل فقد روى أن سـعد بن الربيع دخل على مجلس عمر ، فأكرمه عمر وقربه اليـه ، وتصادف أن تجشأ عمر ، وشـكا طعاما غليظـا أكله ، فقـال سـعد : يا أميـر المؤمنيـن وكيـف تـأكل غليظ الطعام ؟! ان أولى الناس بمطعم طيب ومشـرب طيب ومركب طيب لأنت • فما كان من عمر الا أن تنـاول درته وضرب بها سـعد بن الربيع وقال لـه ما أردت بذلك الا مقاربتى ، وقـد كنت أحسب فيك خيرا • كيف ترى انى أحق الناس بأطيب الطعام والشـراب والمركب ؟! أتعرف مثلى ومثل هؤلاء ؟ ـ يقصد جماعة المسلمين ـ ان مثلى ومثلهم كمثل قـوم سافروا ، فجمعوا أموالهم وأعطوهـا لواحد منهم ليتولى الانفاق عليهم فى سفرهم ، هل لـه أن يستأثر دونهم بشىء ؟ قال سـعد : لا ، قال عمر فكذلك أنا •

كما اننـا لا نستطيع بعـد الاشارة الى عدل الامام ان ننسى عدل القاضى ، وهو من الامور الجوهرية فى حياة المجتمع ، ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحـذر أشـد التحذير وأقواه ، من ان يختل الميزان فى يد القضاء ، فيقول مبشـرا ومنذرا (قاض فى الجنـة وقاضيان فى النار ، قاض عرف الحق وحكم بـه فهو فى الجنة ، وقاض عرف الحق ولم يحكم بـه فهو فى النار ، وقاض لم يعرف الحق ولم يحكم به فهو فى النار) ان القاضى الثالث لم يبذل جهدا لمعرفة الحق وسارع بالحكم مستهينا بمصالح الناس ، ولذلك فهو أيضا فى النار •

ولعـلك تعتـرف قصـة الامـام ابى حنيفـة عندمـا عرض عليه القضاء فرفضه ، تعرف ان الخليفة أرسل اليه وعرض عليه القضاء فاذا بنا نراه رغم علمـه الغزير يدعوه ورعه وخوفه من هـذا النذير الى الاعتذار عن تولى القضاء ، والى التمسك بهذا الاعتذار ، ولـكن بماذا اعتذر الامام ؟ لقـد قال للخليفة أنا لا أصلح

للقضاء ، وضاق الخليفة بهذا الاعتذار كما ضاق بهذا التواضع ، واعتبـر ذلك من أبى حنيفة خذلانا لأمله ، ورفضا لمسئوليته كعالم وأمين ، فقال كلمة ما كان ينبغى للخليفة ان يقولها ، قال لأبى حنيفة (أنت لا تصلح ؟!٠٠٠ هذا كذب) **أما ابو حنيفة فقـد كان كل همه** أن يعتذر ، فانتهزها فرصة لتأكيد أعتذاره ، **وقال للخليفة** : وكيف يصلح كذاب للقضاء ؟ لقـد قرر الخليفة بنفسه أنى لا أصلح ٠

يا سبحان الله ! انى أعرف كثيرا من الناس ، ولعلك أيضا تعرف الكثيرين منهم ، لم يصـل علمهم الى معشـار علم أبى حنيفة وهم يسعون كل السعى الى منصب القضـاء ، يتسابقون اليـه ! وأرجوك أن تقف معى وأن تسأل الله ان يجعلهم من قضاة النـوع الأول ، من أهل الجنة ، وأن يذكروا ـ كما يذكر الامام العادل ـ قول اللـه سبحانه (**واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**) (٩) ، فان ذلك يعود علينا وعلى المجتمع كله بالنفع ، ويهيىء لنا وللمجتمع كله فرصة أكبر للاطمئنان الى عدل القضاء ، والانضمام الى مجتمع السـعداء ٠

ان منصب القضاء من أخطر المناصب واعظمها شأنـا ولذلك يجمع المصلحون فى كل عصر وفى كل قطر على ضرورة استقلال القضـاء ٠

ومما لا شك فيـه اننا اذا أردنا **للقضاة أن يحكموا بالعـدل** فلا بـد ان نساعدهم فى تخطى العقبـات الكئود ، وازالة العراقيل البغيضـة التى تسـد الطريق ، فان شهود الزور قـد بـرعوا فى تضليل العدالة ، ولا بـد من تذكيرهم ببشـاعة جرمهم ، ان شهادة الزور هى الجريمة الوحيدة التى اقترنت فى آيات القرآن الكريم بالشـرك وعبادة الأوثان ، (**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا**

---

(٩) الآية رقم ٥٨ من سورة النساء ٠

قـول الـزور) (١٠) وهى الجريمة التى جعلت رسول اللـه صلى الله عليه وسلم يغضب أشـد الغضب حتى يظهر ذلك فى وجهـه ، وحتى يتمنى الصحابة لو أنه سكت ، فقـد روى انـه صلى اللـه عليه وسلم كان متكئا ، وكان يتحدث فى هدوء ، حتى اذا جاء ذكر الزور أنفعل عليه الصلاة والسلام ، فنحن نقـرأ تصوير ذلك فيمـا نقـرأ من أحاديث ، نقرأ أنـه صلى الله عليه وسلم كان يتحـدث عن الكبائر بـل عن أكبر الكبائر فقال (هل أدلكم على أكبر الكبائر ؟ الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وكان متكئا فجلس ، وقال ألا وشهادة الزور ، الا وقول الزور ، وما زال يكررها حتى تمنينا لو أنـه سكت) .

كما ان حرص بعض المحامين على كسب القضايا كثيرا مـا يدعوهم الى الوقوف فى وجه العدل ، وينسيهم ان قدسية رسالتم تنبع من دفاعهم عن الحق ، ودأبهم على بحث أدلتـه ، وجهـادهم فى اثبات براهينه ، وبلاغتهم فى الكشف عن وجوه الحق فى ساحة القضـاء .

و لايخفى على ذكائك ما تراه فى كل مكان من باطل يتبجح ، ومن حـق يستصرخك أن تنصـره وان تقف معـه ، لا يخفى على ذكائك حق الناس فى ثمـار أعمالهم ، سواء أكانوا من صديقك أو عدوك (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقـوى (١١) هو أقرب للتقوى واجدر بالانسان الكريم والمجتمـع السعيد ، فما أفلح قوم ضـاع الحق بينهم ، حتى ولو كان صاحب الحق ليس من أوليائهم ، ليس من جنسهم ، فالانسان لا يكمل ايمانه ، ولا تكمل مروئته ، حتى يأمنه عدوه ، ولن يأمنك عدوك الا باطمئنانه الى حبك للعدل .

---

(١٠) الآية رقم ٣٠ من سورة الحج .

(١١) الآية رقم ٨ من سورة المائدة .

ان العدل يحتم عليك توحيد المقياس ، واعتدال الميزان ، ومن الظل الذى يصيب ميزان العدالة ما لاحظه احد الشعراء من خلل الميزان فى يد صديق له ، كان يندبه لكل شدة وينساه فى كل خير ، وكان لهما ثالث محظوظ يسمى (جندبا) كان يدعى دائما فى المناسبات السعيدة ، فصاح الشاعر المغيظ :

واذا تكون فجيعة أدعى لها واذا يحاس الحيس يدعى جندب !

أخى المسلم ، اختى المسلمة :

ان المجتمع السعيد القائم على العدل يسد كل هذه الثغرات ، ويحطم كل هذه العراقيل ، ويقضى على الحواجز البغيضة التى تفرق بين الانسان وأخيه الانسان ، مجتمع يلتقى فيه المؤمن بالمؤمن من أى لون ، من أى جنس، يلتقون أخوة متحابين ، وقد حطم الاسلام ما بينهم من الحواجز المصطنعة ، من قوميات ، واجناس ، وألوان ... وحد العدل بينهم فى الميزان (**هل جزاء الاحسان الا الاحسان** ((١٢) .

ايها السعداء والاشقياء : انظروا الى هاتين الصورتين لتروا بشاعة الظلم وجمال العدل متجاورين ، انظروا الى ما وصل اليه طغيان الاشقياء من بنى أمية ، وما أشرقت به شمس العدل فى عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، مع أنه من بنى أمية :

لقد كانت تعليمات خلفاء بنى أمية تقضى بأن يختم خطباء

---

(١٢) الاية رقم ٦٠ من سورة الرحمن .

المساجد خلبة الجمعة كل أسبوع بسبب أبى تراب (١٣) ، خطب الجمعة على منابر المسلمين تختم بسبب الامام على ، وانت تعرف من هو الامام على ٠

وتولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة ، ومنع هذه الدناءة،وجعلكم تسمعون فى نهاية كل خطبة فوق مئات الألوف من المنابر فى المساجد العامرة بالايمان قول الله سبحانه ، وهو القول الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لتختم به خطبة الجمعة ، والذى نختاره لنختم به هذا الفصل عن العدل ، والذى تسمعه من ملايين الخطباء على منابر الحق : **(ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون)** (١٤) ٠

---

(١٣) لقب للامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ٠

(١٤) الآية رقم ٩٠ من سورة النحل ٠

الفصـــل الســـادس

تاليـــف القلـــوب

هل تصدق ان مجتمعا يضم نسبة كبيرة من المثقفين الاذكياء المهرة ، الذين ينجح كل منهم فى حياته الخاصـــة كفرد ، وتظهـــر كفاءته ، وتبدو براعته ، ويتاكد امتيازه اذا خرج الى أى مجتمـــع فى أيـــة قارة ، ولكنهم مع ذلك يفشـــلون فى تكوين مجتمع ســـعيد فيمـــا بينهـــم ؟! ٠

أنا رأيت ذلك المجتمع ، وعشت هـــذه التجربة العجيبة ، وكنت دائم التفكير فى هـــذه المأساة ، وفى البحث عن سبب دنيوى منطقى لسوء العلاقات فى ذلك المجتمع ، أما الاسباب الاخرى التى يرددها كثير منهم كغضب الله وعدم توفيقه ، فهى أيضا تدعو الى البحـــث عن أسبابها ، فلم يغضب الله على قوم ويحرمهم التوفيق ؟ لا بـــد من أسباب (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) (١) ولما كنت واثقا من أن المجتمع المؤمن لا بد أن يكون ســـعيدا ، الا اذا تخلى عن أمور جوهرية فى ايمانه ، فقـــد عزوت فشل هذا المجتمع الى ضعف الوازع الدينى ، الى فســـاد ذات البين ، وأنت تعرف أن فساد ذات البين هى الحالقة ٠

وقد حضرت نـــدوة حول هـــذا الموضوع فاذا أحـــد الوزراء السابقين وهو أستاذ فى التربية ، يزعم ان الناس يعرفون دينهم ولكن تنقصهم التربية ٠٠٠ وفى الحق انى لا أتهم هـــذا المجتمع بالجهل

---

(١) والآية رقم ١١٧ من سورة هود ، والقرى هنا تعنى المجتمعات ٠

فى أمور الدين ، ولا أوافق السيد الوزير(٢)على أن أصول التربية وعلم النفس هى المنقذ من هذه المأساة .

ولكنى أعتقد أن المجتمع الذى فشل فى تحقيق السعادة الاجتماعية مع امتياز أفراده ، لا يجيد تأليف القلوب ، ولا يريد حسن العلاقات الأخوية ، ولست أقصد بالعلاقات تلك الدبلوماسية المستوردة التى يمثلها الناس تمثيلا ، والتى يعرف الجميع أنها تمثيل بلا روح ، وانما أقصد العلاقات الأخوية ، الملاقات النابعة من حب حقيقى للخير ، من سلامة الصدر ، من المشاركة الوجدانية الصادقة ، العلاقات الاخوية التى جعلها الاسلام شرطا للايمان ، وللسعادة بثمار الايمان (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم) .

السلام هنا ليس مجرد التحية التقليدية ، فقد تكون تحية بلا ود حقيقى ، بلا روح أخوى ، فلا تجدى فتيلا ، السلام الذى يهدى اليه الاسلام هو ما تشير اليه الآية الكريمة (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) (٣) سبل السلام هذه هى سبل السعادة ، سعادة الفرد والمجتمع ، لأنها سبل السلام مع الحياة ومع خالق الحياة ، مع من خلق من الاحياء ، وما خلق من الاشياء . والصراط المستقيم الذى يهدينا اليه هو المنهج الاسلامى القائم على الايمان والعمل الصالح والخلق الكريم . وكيف يكون مؤمنا من لا يحب

---

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد العزيز السيد .

(٣) الآيتان رقم ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

لأخيــه ما يحب لنفســه ؟ وأخوك الذى ينبغى ان تحب لــه ما تحب لنفســك هو أخوك فى الدين ، فى الانسانية ، فى بنــاء الحياة · وكيف يكون مؤمنا من يفسد علاقته بجاره (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، الذى لا يأمن جاره بوائقه) وهــل يكون مثــل هــذا الجار قــد اهتدى الى سبل السلام ؟ وهل يكون قــد أفشى السلام وهو يفزع جاره ، ويحرمه الأمن والعش الهــادىء المســتقر ؟·

ان الايمان الحقيقى هو الذى يؤلف بين القلوب ، فقــد تفشل كل الوسائل فى بلوغ هــذا الامل (**لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولــكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم**) (٤) انــه سبحانه ألف بينهم بالايمان ، وقــد كانوا فى الجاهلية أبشــع ضحايا الفرقة والنزاع والصراع والشقاء ، لقــد أشعلوا حياتهم بنيران الحقــد والحسد والضغينة والانانية والكبرياء ، وكان كل منهم يهدم ما بناه أخوه بــدلا من أن يساعده أو يكمل البنــاء ، ثم هداهم الله بالاسلام ، هداهم سبل السلام وأخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه ، وهداهم الى الصراط المستقيم ·

ولكن كيف **كان المنهج ؟ كانت تثور بينهم الخلافات** فيناديهم القرآن الكريم ، ماذا يفعل بعضكم ببعض : لقــد نسيتم أخطــر شىء فى حياتكم نسيتم الايمان (**فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين**) (٥) ويناديهم رسول اللــه صلى الله عليه وســلم (ألا أخبركم بأفضــل من درجة الصــيام والصلاة والصدقة ؟ اصلاح ذات البين) وكان الافراد يختلفون

---

(٤) الآية رقم ٦٣ من سورة الأنفال ·

(٥) الآية الأولى من سورة الأنفال ·

فيما بينهم وينأى كل منهم عن صاحبه فاذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلهم على طريق الحب (ان المسلم اذا لقى أخاه فاخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف ، وغفر لهم ولو كانت ذنوبهم مثل زبد البحر) وأتصورهم وقد هرع بعضهم الى بعض يتعانقون ! ٠

هل تعرف أول ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد بناء المسجد ؟ آخى بين المسلمين من أهل المدينة ، وكانت بين الأوس والخزرج حروب وحزازات وثأر ، ولكنه صلى الله عليه وسلم آخى بين الأوس والخزرج وسماهم باسم واحد (الانصار) ثم آخى بين هؤلاء الانصار أهل المدينة وبين المهاجرين الذين تركوا الأهل والولد والمال والبلد ، وآثروا أن يعيشوا سعداء ، سعداء فى دار الهجرة مع رسول الله ، على ان يعيشوا حياة الذل والاضطهاد فى مكة ، وأصبح لكل أنصارى أخ من المهاجرين ، يحبه حب الأخ ويعامله معاملة الأخ ، ويقاسمه ماله وداره وكل ما يمتلك ، ويريد أن يورثه لولا ان منعتهم آيات الميراث من ذلك ، وكان المهاجرون يعرفون من أدب الاسلام (ان أشكر الناس لله أشكرهم للناس) فكانوا يبادلون الانصار حبا بحب ، حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم على التواد ، وينهاهم عن أن يهجر أحدهم أخاه فوق ثلاثة أيام ٠

قد تقول ان طبيعة الحياة حين ذاك لم تكن معقدة كحياتنا ، كيف استطيع ان أرى اصدقائى كل ثلاثة أيام فى هذا العصر المليىء بالمشكلات ؟ وأقول لك أولا ان معنى هذا الحديث الا تهجر أخاك عن خصومة أكثر من ثلاثة أيام ، وليس معناه أن ترى كل أصدقائك خلال ثلاثة أيام ، وثانيا اننا نحن الذين جعلنا حياتنا العصرية

معقـدة ، وكان ينبغى للمخترعات الحديثة أن تكون عونا لتيسير الحياة لا لتعقيـد الحياة ، فالهاتف اداة اتصال جيدة تبعث الحياة فى العلاقات الودية ، ان كانت فى الهاتف نفسه حياة ! ، والخلق الكريم هو الكفيل بتقوية الروابط وحسن العلاقات ، وهل تظـن أن ما يحدث للهاتف من توقف عن أداء وظيفته ، بعيـد عن موضوع الأخلاق ؟ وهل تظن أن ما يتعللون بـه من نقص فى الامكانـات لا يشـمل النقص فى الامكانات البشرية الخلقيـة ؟ مخطىء من ظن يومـا ان الجهد البشـرى والصدق الايمـانى لا يعوض كثيرا من الامكانات الماديـة ٠

ولكننا أيضـا لا نكون منصفين ولا كراما اذا ركزنا الاتهام فى جهة من الجهات ، انها مؤسسـة كغيرها من المؤسسات ، ان الخطأ ليس فى أشخاص هيئة المواصلات ، انـه فى الافكار الشقية التى تسيرنا والمفاهيم الغريبة التى تحاصرنا ، ان سعداء العـالم وعظماء التاريخ لم يصلوا الى هذه الدرجة من السعادة الا بمقدرتهم الفذة على حب النـاس ، وحب الخير للناس ، ولذلك أحاطهم الناس بالحب ، واستطاعوا ان يجمعوا القلوب حولهم بهذه الامكانات البشرية والخلقية بجانب ما لديهم من أمكانات مادية ٠

ليس من الضرورى أن تكون أكثر الناس مالا وبـذلا لتحظى بحب الناس (انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق) وكم من السفهاء المبذرين ينفقون أموالهم ثم تكون عليهم حسـرة ، لا يحمدهم الناس بل يسخرون من سفاهتم وتبذيرهم ، رغم استغلالهم لأموالهم ٠

وعلى الجانب الآخر من ينفق من حسن خلقه وسعة صدره وصفاء نفسـه وصدق ايمانه ، **فيحبه الله ويحبه الناس ، وأنت تعرف** أن أفضل المؤمنين أحسنهم خلقـا ، لا أكثرهم مـالا ، كما عرفت فى

سعادة الاسـرة ان مال المرأة قـد يطغيها وأن جمالها قد يرديها وانه لا يعصمها من الطغيان والتردى الا ايمانها ، وكذلك الرجل ٠

نعم ان المادة وغيرها من الامكانات قد تكون عونـا فى تأليف القلوب ، ومعروف ان حديثا من الأحاديث التى وردت عن افشـاء السلام يتضمن أربعة أمور منهـا اطعام الطعام (أفشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنـة بسلام) ولكننـا مع ذلك نؤكد ان اطعام الطعام ان لم يكن عن سخاء نفس فلن يكون لـه أى أثر ايجابى ، لا بـد أن يشـعر من تدعوه الى طعامك بما وراء الدعوة من حب ، فاذا أحس انهـا دعوة كريمة من انسان كريم أسـرع الى التلبية منشـرح الصدر دون النظر الى ما تضمه المائدة من الطعـام الشهى ٠ ان المـودة والاستقبال البشوش يجعلانه شهيا ، ولذلك يقول صلى الله عليـه وسلم (اذا دعيتم الى كراع فاجيبوا) ان الأهمية الأولى هنا لمـا وراء الاشتراك فى طعـام واحـد من علاقات المودة ومـن تآلف القلوب ، ولذلك يصبح الطعام أشهى طعام وأزكى طعـام (أحب الطعام الى الله ما كثرت عليه الأيدى) ، ان اهتمام الاسلام باطعام الطعام ليس من أجل الفقراء والمساكين فحسب ، ولكن من أجـل المودة والمحبة وتآلف القلوب كذلك ، ولذا نجد لحوم الاضاحى تنقسم أقساما ثلاثة ، ثلث يعطى للفقراء ، وثلث يهدى للاصدقاء ، وثلث تأكله الأسـرة ، وأعتقد ان ذلك الحكم ليس وقفا على ذبائح يـوم النحر (اذبحوا لله فى أى شهر كان ، وبروا لله وأطعموا) كمـا انـه ليس هناك ما يمنع من التصـريح بهذا المبدأ ، ومخالفة كثير من المفسـرين فى ربط سورة الكوثر بيوم النحر ، وموافقة الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى تفسيره القرآنى للقرآن بان الصلاة هنـا مطلـة غيـر مقيدة بصلاة العيد ، وكذلك النحر ليس مقيـدا بأضحية يـوم العيد ، لأن ذلك لا يتناسب أبـدا مع العطاء العظيم الذى

رتبت السورة الأمرين عليه (ان أعطيناك الكوثـــر) فالكوثر هـــو الخير الكثير الذى يتمثل فى النبوة والاسلام ، والنهر المسمى بذلك الاسم فى الجنة ، ولا يمكن ان يكون ما يترتب على هـــذه النعمـــة العظيمة هو ركعتان اثنتان فى يوم العيد ، وهو لا يأتى الا كل عام مـــرة ، ولا ذبح أضحية يوم النحر ، وانما الأقرب الى عقولنـــا ان يكون المعنى فصـــل لربك دائما ، وانحر ما أستطعت أن تنحر من الذبائح لتطعم الطعام فى أى وقت ٠

وقد بدأت أخشى كثرة الحديث عن اطعام الطعام حتى لا يتصور أحـــد أن هذا الاطعام هو أهم وســـائل العلاقات الطيبة وحســـن المودة وتأليف القلوب ، كيف وكلنا يعرف ان حرارة اللقاء أكبـــر أثـــرا فى النفوس الكريمة من تقديم الغذاء ، ولعلك تذكر أن أول فصل فى هـــذا الكتاب كان عن تكريم الله للانسان ٠٠٠ فالشعور بالكرامة الانسانية مقدم على أى نفع مادى يشوبه الهوان ، ولذلك فان قائـــد ركب الايمان فى هـــذه الدنيا يحذرك من تضييع حق زائرك فى التكريم ، اتكالا على رتبتك أو على محبته لك أو على ما تقدمه لـــه من قرى ، ان الكلمة الطيبـــة ، والابتسامة المشـــرقة والوجـــه الطليق والمعاملة الانسانية أعمق أثـــرا فى تأليف القلوب وكسب المودة ، فاذا كنت تحب الناس من قلبك حقـــا فتأكد أن ذلك ســـوف يظهر فى كل ما تقول وتفعـــل ، ومن الخير أن تظهر ذلك ولا تكتمـــه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لصحابته (اذا أحب أحدكم أخاه فليبلغه ان يحبه) ومن الخير ان تنتفع بما يوصيك بـــه عليه الصلاة والسلام ٠

فقد استطاع ان يجعل مئـــات الملايين تحبـــه ، عبر الاجيال كلهـــا تحبه ، لقـــد كان أستاذ الدنيا فى الذوق الرفيـــع والخلق الكريم ٠ واستمع الى هـــذه اللمحات من دقة ملاحظته ورعايتـــه

لمشاعر الناس (اذ سل أحدكم سيفه لينظر اليه فاراد ان يناوله أخاه فليغمده ثم يناوله اياه) وقد تقول انـه يحذر الناس من خطورة حـد السيف ، ولا دخل لذلك برعاية المشـاعر ، فماذا تقول فى قولـه صلى الله عليه وسلم (اذا عطس أحدكم فليضـع كفه على وجهـه ، ليخفض صوته) ؟ ان الرذاذ الذى يتطاير سوف يتأذى منـه الناس بلا شـك ، فلماذا تجعلهم يتأذون منك ، ويحسون أنـك لا تعبأ بهم ؟ ان الـذى يقول لبعض صحابته انـكم قادمون على اخوانكم فاصلحوا رحالكم ، وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى الناس ، فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش) هو قائد الانسانية الى سموها ورقيهـا ، ان الله لا يحب الفحش ولا يحب التفحش ، والتفحش هو تعمـد ابقاء الثياب والرحال على قذراتها وعدم الاهتمام بتغييرها عند لقـاء الناس ، فان التفحش فى الملابس ينم عن عدم احترامك للناس ، كما أن التفحش بالنسبة للفـراش والأثاث ، وهما عند المقيمين يقابلان الرحال عند الظاعنين ، يؤكد عدم تقديرك للنظافـة فى ذاتهـا ، وأنت تعلم ان رسـول الله رأى شخصا يدخل على مجلسه رث الملابس ثائر الشعر فقال : أما يجد هـذا ما يسكن بـه رأسه ؟ أما يجـد ما يغسل بـه ثيابه ؟ ومما لا شـك فيـه ان الاسلام يوجهك الى نظافة الظـاهر والباطن معا ، ولا يكتفى عند الصلاة مثلا بانك طاهر القلب والنيـة ، وانما يطالبك بطهارة الثوب والبدن والمكان أيضا ... انهـا الطهارة الشـاملة للظاهر والباطن معـا .

ان القلب الطاهر يحب الطهـارة ويتعودها ، ويشـمئز من القذارة وينفر منهـا ، فاذا كنا قـد تحدثنا عن الطهارة الظاهرية فى الثوب والرحال والفرش والأثاث ، فلننظر الى لون من طهـارة الباطن فى حادث وقع لابى بكر الصديق رضى الله عنه مـع واحد

من الصحابة عليهم الرضوان (٦) لقـد انفعل أبو بكر ، وكانت فيـه حدة ، فقال للصحابى كلمة جارحة ، ثم عاد الى هدوئه فندم ، وأخذ يرجو الصحابى أن يقول لـه مثلهـا ليقتص منـه ، ولـكن الصحابى رفض ، فقال لـه أبو بـكر : لأستعدين عليك رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ... ويذهب أبو بكر ... ، ويجتمع رجـال من أسلم ـ قبيلة الرجل ـ فيقولون لـه : رحم الله أبا بكر ، فى أى شىء يستعدى عليك وهو الذى قال لك ما قال ؟ فقـال الرجل لابناء قبيلته : أتدرون من أبو بكر الصديق ؟ هـذا ثانى أثنين ، وذو شيبه فى الاسلام ، يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، ويغضب اللـه لغضبهما ، فأهلك وأشقى ، اليكم عنى (٧) .

ثم تتبع أبا بكر فوجده قد ذهب فعـلا الى رسول الله وأخـذ يحكى لـه ، ورفع رسول الله صلى الله عليـه وسلم بصـره فرأى ربيعة يقف غيـر بعيد ، فناداه وسأله : ياربيعة ، مالك والصديق ؟ فقال ربيعـة يا رسول الله كان كذا وكذا ، فقـال لى كلمة كرهتها ، فقـال لى قل كما قلت حتى تكون قصاصا ، فأبيت . فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ، لا تـرد عليه ، ولكن قل غفر الله لك يا أبا بـكر .

فاذا كان لنـا أن نتساءل : لماذا كان كل هذا الاهتمام من أبى بـكر بان يقتص منـه ربيعة ؟ فان الجواب يأتى سريعا ، وهو ان أبا بكر كان يقظ الضـمير ، نظيف الظاهر والباطن ، يسوءه ان

---

(٦) هو ربيعة الاسلمى .

(٧) اى ابتعدوا عنى .

يخطىء فى حق الناس ، أكثر مما يسوءه أن يخطىء الناس فى حقه . انــه لا يستطيع ان ينام قريــر العين وقد آذى مشاعر انسان ٠

وكان أبو بكر بعــد ذلك يحاول دائما ان يتجنب الوقوع فيمــا يضطره الى الاعتذار ، أو يلجئه الى أن يقف موقفا كهذا الموقف ، موقف التوسل الى انسان ليقتص منــه ٠

انــك قد تجد من الدبلوماسيين فى هــذا العصــر من يجيــد فن العلاقات ، ويكسب الاصدقاء ، ويبتعد عما يؤذى مشاعر الناس ، قــد يفعل ذلك بمقتضى وظيفته لأن طبيعة عمله تدعوه الى ذلك ، ولكننا نريــد لك ان تفعل هــذا وأفضل منــه انطلاقا من ايمانك ، وبدافع من احساسك بالناس ، ومراعاتك لمشاعرهم ، وحبك الصادق لأن تكون عامل سعادة لا عنصــر ايذاء ٠ ويمكنك أن تفكر فيما وراء هــذا الحديث الشــريف من عاطفة نبيلة وشعور انسانى (اذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، حتى تختلطوا بالناس ، فان ذلك يحزنــه) ٠

ان الاستهانة بمشــاعر الناس كبر يترفع العقلاء عنه ، وهو داء وبيل يحطم علاقات المودة ويقطع الاواصــر بين الناس ، أمــا التواضع ، وتقدير انسانية الناس فهو عبادة من أعظم العبادات(٨) كما أنه وسيلة من أنجح الوسائل لكسب ود الافاضل من الناس ٠ أما لئامهم ، أمــا الذين يستغلون تواضع الكرماء ، ويحصلون على بعض المنافع المادية بسيف الحياء ، فانهم يقلون كثيرا فى المجتمعات السعيدة ، ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاسعد

---

(٨) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنكم لتغفلون عن أعظم العبادات ... التواضع) ٠

مجتمع عرفه التاريخ (ان الله أوحى الى ان تواضعوا حتى لا يفخر أحـد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد) ان الفخور الباغى اذا أحس ان المجتمع لا يرضى عن سلوكه ولا يشجعه ، فقـد يخفف من غلوائه ، ويعرف أن شـر الناس من تركه الناس لشره ، وبذلك ينجح المجتمع فى حصار هذا الداء الوبيل ٠

ان المجتمع الذى ثبت نجاحه فى مقاومة هـذه الآفات المدمرة لهـو المجتمع الذى ينبغى الاقتداء به ، انه المثل الأعلى للمجتمـع السعيد ، ان واضع أساسه فى المدينة المنورة يقول (الا أخبركم بمن تحرم عليه النار ؟ على كل هين سهل لين قريب) ٠ وأنت تعرف انه ظل يذكر خديجة بالخير ، ويبر أهـل ودها بعد موتها ، الى أن لحق بربـه ، وهو الذى ينبـه أصحابه الى مواقع البـر وموجبات المودة فيقول (ان أبـر البر ان يصل الرجل أهل ود أبيه بعد موته) ولو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم قمـة عالية فى الخلق العظيم لما اجتمع عليه كل هؤلاء المحبين ، لقـد كانوا يحبونه حبا لم نـر مثله فى التاريخ ، يفدونه بأموالهم وأنفسهم ، ويخاطبونه بقولهم (بأبى أنت وأمى يا رسول الله !) ونحن بعـد هذه القرون الطويلة لماذا نحبـه كل هذا الحب ؟ لانـه وجهنا الى كل خير وحذرنا من كل شـر ، ولاننا نحس أنـه يحبنا حبا لا يتسع له الا قلبه صلى اللـه عليه وسلم ٠٠٠ استمع الى حنينه لرؤيتنا (وددت انى رأيت أخوانى ، الذين آمنوا بى ولم يرونى) ٠

ولقد نبهنا رب العزة الى سـر من أعظم أسـرار هذا الحب ، فقال لـه صلوات الله وسلامه عليه (ولو كنت فظـا غليظ القلب لا نفضوا من حولك (٩) ٠

---

(٩) الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران ٠

بالمرفق ، وهو صفة من صفات الانبياء والصالحين والسعداء ، بالرفق الذى يقول عنه صلى الله عليه وسلم (اذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق) بالحكمة والموعظة الحسنة ، بالامر بالمعروف حبا للناس ورغبة فى سعادتهم ، والنهى عن المنكر خوفا عليهم وشفقة بهم ، بالتغاضى عن بعض الهنات الهينات ايمانا بأن الانسان بشر ، وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه • بالرحمة بالضعفاء وكان الناس من قبل يحتقرونهم ويسخرون منهم ، بما علمنا من رعاية للانسان فى حالات ضعفه ، من تشميت العاطس وعيادة المريض وتشييع الميت •••• (١٠) •

باقامة العدل ومحو الحواجز بين الطبقات والاجناس (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) • مقياس للتفاضل جديد وهو المقياس الصحيح الوحيد • دعوة الى الاخوة والمحبة والسلام ، (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) • والسلم هنا ليس السلام كما تعارف عليه الناس من قبل ، ولا هو السلام كما يتعارف عليه الناس الآن • انه سلام مع النفس ومع البيت ومع المجتمع • انه السلام مع الكون كله ، انه سلام مع الله يثمر كل هذه الثمار الطيبة اليانعة •

هل تعرف أعز من القرآن ؟ هل تعرف أحب الى رسول الله والينا من القرآن ؟ ومع ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فاذا اختلفتم فيه ••• فقوموا !) •

---

(١٠) كنت أقرأ فى صباى عن عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الأمور ، ولا أفهم سبب هذه العناية ، حتى عرفت أخيرا أثرها فى توطيد العلاقات ، وشعور الانسان أنك معنى به •

هل تعرف لماذا يشـــتد تحذيره صلى الله عليه وسلم من الفرقة والخلاف ؟ لأن من كانوا قبلنـــا تفرقوا واختلفو فغضب الله عليهم ولعنهم (**وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (١١)** ٠ وها نحن أولاء قـــد تفرقنا واختلفنا فتداعت علينا الامم كما يتداعى الاكلة على القصعة ، وان ذلك ليس عن قلة نعانى منها ، اننا كثير ، ولكننا كما قال عليه الصلاة والسلام (غثاء كغثاء السيل) ٠

ان الدعوة الى الدخول فى السلم كافة تتضمن الدعوة الى اعداد القوة التى تحمى السلام ، القوة التى ترهب عدو الله وعدو الحق ، فمن الناس والامم من لا يكف عن العدوان الا اذا رهب ، وأقوى سلاح نرهب بـــه عدو الله هو سلاح الوحدة ، وحينئذ يخشانا المعتدون ، وندخل فى السلم كافة ، ونستطيع تأليف القلوب من موقف الاقوياء ، لا من موقف الضعفاء ، سلام السعداء لا سلام الاشقياء ٠

أخى المسلم : هل تعلم ان تأليف القلوب لـــه فى مصارف الزكاة سهم رسمى ؟ سهم من ثمانية أسهم لتأليف القلوب ٠٠٠ وأن أسلافنا يقسمون الكفار الى أصناف ، منهم صنف يأتى بالاحسان ، وقـــد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم مئات الابـــل لقوم دخلوا حديثا فى الاسلام ، منهم أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وقال (فانى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم) وفى القـــرآن الكريم (**انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليهـــا ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل**) (١٢) وهل تعرف أنهم يقولون انأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ألغى هذا السهم ، وكان رأيه ان الاسلام لم يعد فى حاجة الى

---

(١١) الآية رقم ١٤ من سورة الشورى ٠

(١٢) الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة ٠

تأليف القلوب،فقد رأى ان الاسلام أصبح من القوة بحيث يمكن الغاء هذا السهم ، وهل تعرف أن العلماء قد اختلفوا بعد ذلك فى الغائه أو ابقائه ؟ أما أنا فأرى ان ما فعله عمر لم يكن الغاء لهذا السهم ،انه يمكن أن يوقف العمـل بحكم من الاحكام ، لظـرف من الظروف ، أما ان يجتهد فيلغى حكما مع وجود نص قرآنى وسنة عملية ، فاننا جميعا نعرف ان ذلك لا يفعله عمر رضى الله عنه وأرضاه ٠

مما لا شك فيه ان الأدب الاسلامى يدعونا الى ان نحترم رأى عمـر غاية الاحترام ، بـل ان حبنا لـه ولمكانه من الأمة الاسلامية لا يسمح لنا بمناقشته ، ولكن الحرية التى يكفلهـا لنا الاسلام ، والاقتداء بعمر نفسـه فى ذلك ، يجعلنا نسأل ونراجع ، فقـد كان عمـر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعـه ، فاذا عرف ان ما يقوله رسول الله وحى من السماء ٠٠٠ خشع قلبـه ، وخشعت جوارحه ، أما اذا عرف انه رأى شخصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك لم يكن ليمنعه من السؤال والمراجعة ٠

اننا متأكدون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه لن يغضب حينما نراجعه فى اجتهاد منسـوب اليه ، لانه اجتهد مرة على المنبر ونهى عن المبالغة فى المهور فراجعته أمرأة من عامة المسلمين ، وقالت لـه : كيف تقول ذلك والله يقول (**وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ؟**) (١٣) فلم يغضب أمير المؤمنين ، ولم يقل لهـا ان صوتك عورة ، ولم يتحين فرصـة لينتقم فيهـا لنفسه ، لقـد كان أكبـر من ذلك وأتقى ٠٠٠ فقال قولته التى سجلها لـه التاريخ (أصابت أمرأة وأخطأ عمـر) ٠

ونحن بدورنا نسأل : هل من حق أحد أن يجتهد مع وجـود

---

(١٣) الآية رقم ٢٠ من سورة النساء ٠

النص القرآنى ووجود السنة العملية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم نسأل وقد عاد المسلمون الى حالة من الضعف لا تخفى على أحـد ، هل يمكن أعادة العمل بهـذا النص ، والانتفاع بهـذا السهم فى تأليف القلوب ، وأعتبار ما فعله عمر ايقافا لهذا الحكم فى ظروف معينة وليس ألغاء لـه ؟ ومعروف أن عمر نفسـه قـد أوقف العمل بحـد السـرقة فى عام الرمادة ، ولم يكن هذا الغاء للحـد ، لسبب بسيط جدا ، وهو أن عمـر كان أحرص على دينـه من أن يلغى حدا من حدود الله ، بـل اننا نستطيع ان نقول بـكل حرية انـه لا يملك ذلك ، ولا يستطيع أحـد أن يدعى أنه يمـلك ذلك ٠

هذه قضية نعرضها ولا نريـد ان نطيل فيهـا ، ولكننا نريد ان نقول أن الاسلام لم ينظر لغير المسلمين نظـرة العداء والخصومة . بـل انه يفتح الباب امامهم للدخول فيه ، ويرجو لهم الخير (الاسلام) ويعرضه عليهم ، ويستقبلهم بكل الفرحـة والترحيب ان أرادوا أعتناقه ، وان لم يريدوا ذلك فانه يترك لهم الحرية المطلقة بعد أن يبين لهم الرشـد من الغى **(لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)** (١٤) وكما يترك لهم حريـة الاختيار يترك لك حرية الاتصال بهم وانشاء علاقات طيبـة معهم اذا لم يكونوا من المحاربين للاسلام ، بـل انه يشجعك على تأليف القلوب ، ويجعل لذلك سهما فى مصارف الـزكاة ٠

من أجل ذلك كانت دعوتى للجميع ٠ لا لـكل مسلم بالفعـل فحسب ، ولكن لـكل مسـلم بالفعل أو بالاستعداد ، ولكل مسـلمة بالفعل أو بالاستعداد ، ولو كان الاسلام ينهى عن ذلك ما فعلتـه **(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من**

---

(١٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

ديباركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين) (١٥) ٠

هل هناك دعوة الى البر بهم أصدق من هـذه الدعوة ؟ هل هناك جزاء على هذا البـر أعظم من أن ـ يحبك الله ويكتبك عنده من المقسطين ؟ هل هنـاك تسامح أكثر مما تدعونا اليـه هذه الآية الكريمـة (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام اللـه ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بانهم قوم لا يعلمون) (١٦) ٠

ان حسن معاملة المسلمين لغيرهم هى أعظم دعوة للاسلام ، انهـا عرض عملى لسماحة الاسلام ، لعالمية الاسلام وانسانيته ، لم يكن برتراند راسـل اذن هو أول داع الى الاسـرة العالميـة ، وانما نشـأت هذه الدعوة أساسا من دينك ، من قرآنك ، من نبيك ، بـل ان علاقات الانسان كلها ٠٠٠ علاقاته بربه وبنفسه وبالناس جميعـا ٠٠٠ ليكون صادق الايمان بربه الكريم ، دائم التطهيـر لقلبه المؤمن ، خالص الود لأسـرته الانسانية ، كل ذلك تجده فى هذا المنهج النبوى للعلاقات الثلاث ، نجده نورا يتلألأ ، وايمانـا يتوضأ ، وخلقا جميلا ينشـر العطر فى النفوس ٠

اتق الله حيثما كنت

واتبع السيئة الحسنة تمحها

وخالق الناس بخلق حسـن ٠

---

(١٥) الآية رقم ٨ من سورة الحشـر ٠

(١٦) الآية رقم ٦ من سورة التوبة ٠

الفصـــل الســـابع

ســـد الـذرائـــع

وكما ختمنا الباب الأول بفصل عن التوازن يعصـم فصوله من الجموح ، نختم هـذا الفصل ان شاء الله بفصـل يؤمن مسيرتة من مخاوف الطريق ، فقـد علمنا المنهج الاسلامى للفوز العظيم ، ونحن نحث الخطا فى طريق السعادة أن نسد منافذ الشقاء والعناء ، علم جنـد الحق ان يسدوا على الباطل كل طريق ، وان يكونوا لـه بالرصاد ، حتى لا يكدر صفوهم ، ولا يخترق صفوفهم • علمنـا حين حرم علينـا الخبائث ، أن نقطع الجذور التى تغذى الخبائث ، علمنا ألا نحاول تطهير النهر عند مصبه ، وانما نتابع التطهير من المنبع للمصب ، فاذا حرم الله أمرا تجنبنا كل ما يؤدى اليه •

وقد يبدو لبعض الباحثين ان سد الذرائع أمر شديد الصعوبة ، لكثرة المخاطر التى تهدد المسيرة ، وكثرة الأفاعى التى تطل من الجحور ، ولكننـا عرفنا منذ البداية أن الدين يسـر ، وان سلوك الطريق المستقيم أسهل كثيرا من سلوك الطرق الملتوية ، لأنـه يتفق مـع الفطر السليمة ، فليس عسيرا على من ربى ضميره على اليقظة الدائمة ، ان يحرسه ضميره بعد ذلك ، انه لن يحتاج الى كثيـر من المبيدات لحفظ بستانه من الآفات•• ومن شب على النفور من الحرام لن يجد صعوبة فى غض البصـر ، ومن تعود احترام والديه لن يجد صعوبة فى احترام كل ذى شيبة فى الاسلام •

واذا قرأت سورة الحجرات فسوف تجد كثيرا من الآداب التى تعصم الانسان من الزلل ، وتمنع احباط العمل ، وتصون المجتمع

من الشقاء · فهى تبدأ بالنهى عن تقديم الرأى والفكر البشـــرى على حكم الشـــرع والأمـــر الالهى (**يأيها الذين آمنو لا تقدموا بين يدى الله ورســـوله**) (١) ·

ثم تحذر المؤمنين ان تخلو قلوبهم من مشاعر التوفير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتؤكد أن ذلك يفسد الأعمال ·· ان تجرد المسلم من شعور الحب والولاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعبيره عن هـــذا التجرد برفع الصوت فى حضرته ، يفســـد على المسلم كثيـــرا من مقومات الايمان الصادق ، وقـــد يحبط عمله دون أن يشـــعر · (**يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا لـــه بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمـــالكم وأنتم لا تشـــعرون**) (٢) ·

ويأتى بعـــد ذلك تحذير من الانبـــاء الكاذبة التى تثير الفتنة ، وتنشـــر البلبلة (**يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، ان تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**) (٣) . لا بـــد من دراسة لهذه الأنباء لمعرفة مدى صحتها ، فالتحذير هنا من ترديد الشائعات الكاذبـــة ، ومن التأثر بهـــا ، ومن التصرف بجهالة ··· وواضح ان ازالة الجهالة فى هذه الحالة انما يكون بالتربث لمعرفة الحقيقة ·

ثم يأتى بعد هذا التحذير تنبيه الى ثغرة خطيرة ، كفيلة بأن تكدر صـــفو المجتمع كله · وهى أن تشتبك طائفتان من المؤمنين فى قتال بينهما ، ثم يترك المسلمون هـــذا القتال يستمر ، وهذا الداء

---

(١) الآية رقم ١ من سورة الحجرات ·
(٢) الآية رقم ٢ من سورة الحجرات ·
(٣) الآية رقم من سورة الحجرات ·

يستشـــرى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهمـــا . فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمـــر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون أخوة ، فاصلحو بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) (٤) .

واذا كان المؤمنون أخوة فانـــه ينبغى حماية هـــذه الاخوة صافية من كل ما يشوبها ، بعيدة عن كل عوامل الفساد والدمار .

ومن أبشع المعاول التى تمزق أواصر المودة والمحبة والاخاء ، ان يسخر بعض الناس من بعض ، وكيف يسخر المسلم من أخيـــه المســـلم ؟ وقد يكون أخوه خيرا منـــه ! انه لا يعرف كل شىء عنه ، انه ان رأى فيه جانبا لا يعجبه فقد تكون فيه جوانب خير لا يعرفها ، قد يكون أقرب الى الله منه .

ومن المعاول التى تهدم بنيان المجتمع أن يتبادل الناس فيـــه التنابز بالألقاب ، وان يذكر كل منهم معايب غيره وينسى عيوب نفسه (طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس) وماذا يعيب المسلم من أخيه ؟ عيوبا فى خلقته ؟ لون بشرية ؟ قصر قامته ؟ وكيف يعيب ذلك وهو يعرف ان الخالق هو الله ، فمن يعيب اذن ؟!

هل يعيب فيه حسبه ونسبه وفقره ومســـتواه الاجتماعى ؟ هل يستطيع انسان ان يتحكم فى مولده من أســـرة فقيرة أو غنية ؛ ريفية أو مدنية ؟ استغفر الله ! ، ان هذا فسوق بعد ايمان (يأيهـــا الذين آمنـــو لا يســـخر قوم من قوم عسى أن يكونـــوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهم ، ولا تلمزوا أنفسكم ،

---

(٤) الآيتان رقم ٩ ، ١٠ من سورة الحجرات .

ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (٥) ٠

هـل سمعت تحذيـرا كهذا التحذير ؟ أو رأيت نذيرا كهـذا النذير ؟! هل تعرف أن ذلك فسوق بعد ايمان ؟! (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ٠

ومن الآفات التي تهاجم المجتمعات فتغتال سعادتها وأمنها ، أن ينتشـر سوء الظن بين أفرادهـا ، وان يتجسس بعضهم على بعض ، ولذلك يقوم صلى الله عليه وسلم (اياكم والظن ، فانه أكذب الحديث : ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانـا) ويقول الحق جل جلالـه **(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ٠٠٠) (٦) ٠**

أما الغيبة فقـد صورها القرآن الكريم أبشع تصوير ، حين صور المغتاب بانه يأكل لحم أخيـه ميتا ، وفى الحق انـه ينهش عرضـة ، يأكل لحمه ، يشوه صورته ، يطعنه من الخلف ، ينتهز فرصة غيابه حتى لا يدفع عن نفسه ، كالميت الذى لا يستطيع ان يـرد على من يغتابه ٠٠٠ انه ينهـال عليه بالمعاول وهو غـائب كالميت ، **(ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتـا فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان اللـه تواب رحيم)** (٦) كل هـذه جرائم لا تغسلها الا التوبـة الخالصة النصوح ، ولذلك نجد الآيـة السابقة تختم بقوله تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ونجد هذه الآية تختم بقوله سبحانه (ان الله تواب رحيم) ٠

---

(٥) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات ٠

(٦) الآية رقم ١٢ من سورة الحجرات ٠

ثم تحذرنا السورة من التمييز العنصرى ، وتؤكد ان الناس جميعا من أصل واحد ، وانما كان اختلاف ألسنتهم وألوانهم وقبائلهم وشعوبهم ، وتفاوت مواهبهم وتنوع تخصصاتهم ، ليتكاملوا ويتعارفوا ويتعاونوا ... فاذا كان لابد من تفاضل بعضهم على بعض ، فليكن المقياس هو الاستقامة على دين الله ، وحسن الخلق ، والعمل الصالح . وجماع ذلك كله هو التقوى (**يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير** (٧) .

واخيرا تحذرنا الآيات ان نغتر بديننا ، وننسى فضل الله الذى هدانا للايمان (**يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين**) (٨) .

ولا أريد ان أطيل فى حديث هذه المآثم ، كما لا أريد ان اتبع طريق أبى طالب المكى وغيره ممن أحبوا تفريع الذنوب فأضافوا الى المربقات السبع أضعافا مضاعفة ، ومعروف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حصر الكبائر فى سبعة ذنوب خطيرة . فكرت أول ما قرأت عنها ان أربط بينها وبين أبواب جهنم السبعة ، وتصوت ان كل كبيرة من هذه الكبائر باب من أبواب جهنم . ولكنى فوجئت بعالم يسأله بعض تلاميذه ، أليست الكبائر سبعا ؟ فيقول : انها الى السبعين أقرب ! ، ولا شك ان هذا القول جعلنى أتردد فى نظرية الربط بين الكبائر وأبواب الجحيم ، أما أبو طالب المكى فقد جمع منها سبعة عشر ، ورتبها حسب الجوارح فقال :

---

(٧) الآية رقم ١٣ من سورة الحجرات .

(٨) الآية رقم ١٧ من سورة الحجرات .

أربعة فى القلب : وهى الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والامن من مكر الله ، والاصرار على معصية الله .

وأربعة فى اللسان : هو شهادة الزور ، والسحر ، واليمين الغموس ، وقذف المحصنات المؤمنات .

وثلاثة فى البطن : هى أكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وشرب الخمر .

واثنان فى اليدين : هما القتل والسرقة .

واثنان فى العورة : هما الزنا ، واللواط .

وواحدة فى الجسد كله : وهى عقوق الوالدين .

وواحدة فى الرجلين : الفرار يوم الزحف .

وفى الحق ان هذه الامور جميعا مما يفسد على المرء دينة ودنياه ، وعلى المجتمع أمنه وسعادته ، كما انها جميعا من أخطر المعاصى التى يدعو اليها الشيطان ليقوض بها حياة الانسان . ونحن نتفق مع أبى طالب المكى وغيره من الصالحين فى انها ثغرات خطيرة لابد من التنبيه اليها والتحذير منها ، ولذلك أوردناها ... ولكننا مع ذلك نلتزم بالحديث الشريف الذى يحصر الكبائر فى السبع الموبقات (٩) ونرجو ان يكون ربطها بأبواب جهنم توضيحا

---

(٩) قال صلى الله عليه وسلم : (اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، والفرار يوم الزحف ، ورمى المحصنات المؤمنات) .

لبشاعتها وتحذيرا جديدا من الاقتراب منها ٠

أما ان الاجماع منعقد على ان كل ما نهى عنه الله ورسوله فهو من الشـــرور التى تغتال أمن الانسان وسعادته وتدمر بنيان المجتمع وتعوق نهضته ، فذلك أمر لا ريب فيـــه ، ولا خلاف عليه ٠

ولو انك قرأت ما فاجأ بـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من تعريف جديد **للمفلس ، لعرفت العواقب الوخيمـــة** لعدد من الشـــرور ، وان كان بعضها ليس من الكبائر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتدرون من المفلس ؟) قالوا يارسول الله ، المفلس فينـــا من لا ناقة لـــه ولا متـــاع ، فقال صلى الله عليه وسلم (المفلس من أمتى من يأتى يوم القيـــامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقـــد شتم هـــذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضـــرب هـــذا ٠٠٠ ، فيعطى هـــذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فـــان فنيت حسناته قبـــل ان يقضى ما عليـــه ، أخـــذ من خطاياهم فطرحت عليـــه ، ثم طرح فى النار) ٠

ويكفى أن تفتح جامعا من جوامع الاحاديث المرتبة ترتيبـــا أبجديـــا ، وتنظر فى كلمة (اياك) أو (اياكم) فماذا تـــرى ؟ هـــل ترى **(اياكم والحسد ، فان الحسد يأكل الحسنات كمـــا تأكل النار الحطب)** (١٠) ٠ هل تقرأ (اياكم والشح ، فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخـــل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) أم تقـــرأ (اياكم والغلو فى الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين) ؟ ماذا تريد بعد ذلك ان تعرف ؟

---

(١٠) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا) ٠

هل تريد أن تعـرف كيف كان السلف الصالح ينهـون عن الشرور وينأون عنهـا ، وكيف كان صغارهم يشبون على النفور من المآثم والتحوط منها ؟ ان أردت ان تعرف شيئا من ذلك فانظر الى هذه الواقعة التى لا تضعها المدارس ضمن مناهجها التربوية :

بعد ان استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ذهبت اليـه امرأة أبى طلحة ومعهـا ابنها الصغير (انس) وقالت يا رسـول الله هديتى اليك خويدمك أنس ، يخدمك وجـه النهـار ويعود الى آخـره ليبيت عندى ، وفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهـا تريد لابنها ان ينشأ فى البيت النبوى ، فقبل الهدية ... وعاش أنس منـذ صباه الباكر يخدم رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ، وبعد فترة قصيرة ، كانت هذه القصة :

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنس فقيـل لـه انـه يلعب مع أترابه ، فنزل عليه الصلاة والسـلام ، الى حيـث وجده ، فسلم عليه وعلى اترابه ثم انتحى بـه ناحية ، وأرسـله فى أمر من أموره عليـه الصلاة والسلام ، وذهب أنس .. ثم عاد الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وانصـرف الى أمـه ليبيت عندها ، ولكنهـا سألته : لم تأخرت الليلة يا أنس ؟ فقال بعثنى رسول اللـه صلى الله عليه وسـلم فى حاجة . قالت وما تـلك الحاجة ؟ فقال الغلام فى جد حازم : « انها سر ... ولا أبوح بسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحـد » وفرحت بـه أمه ، فرحت بان يكون ابنهـا الصغير موضع ثقة رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يأمنه على سـره ، ثم فرحت بأن يكون أهـلا لهذه الثقة فيستطيع كتمان السـر ، لقد شجعته أمه ، ولم تنهره كما تفعـل بعض الامهات ، ولم تقـل له : عنى أنا تكتم السـر ؟ انى أمك !.

وكبر أنس ، وأصبح من أكثر الناس حديثـا عن رسول الله بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ٠٠ ، ومرت سنوات ٠٠ وحضرت أنسـا الوفاة ، وجاء ابن عمه ثابت ، وها نحن أولاء نسمع ثابتا يقول : حفظت كل ما رويته عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن مسألة واحـدة تشغلنى أريـد معرفتها ، ما هى تـلك الحاجة التى بعثك فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ان تأخرت عن بيت أمـك ؟ ونسـمع أنسـا يجيب وهو فى سكرات الموت ، والله يا ثابت ، انـك لأحب الناس الى وآثرهم عنـدى ، ولو كنت قائلا سـر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد ٠٠٠٠ لقلتـه لك ٠

ومات أنس ، ولم تعرف الدنيا ما هى هـذه الحاجة ، ويقول العلماء ، لابـد انهـا حاجة خاصة من حوائج بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كانت مسألة عامـة يهم المسلمين معرفتهـا ما وسـع أنسا أن يكتمها ، وانت تعرف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربى صحابته على الفضائل ، ومنـه عرفوا ان الرجل الفاضل لا يذيع الاسـرار ، ولا يقول كل ما يعرف دون ان يميـز ما ينبغى ان يقول وما لا ينبغى ان يقول ، وكان عليه الصلاة والسـلام يوصيهم ويوصينا (اسـتعينوا على قضـاء حوائجكم بالكتمـان) ٠

ولعلك تعرف طرفا من حياة الشـاعر الهجـاء الذى عرفه التاريخ باسم الحطيئة ، وكان بذىء اللسان ، يهجو أباه ويهجو أمـه ، ويهجو زوجه ويهجو نفسـه (١١) ، وتعرف ان من أقذع ما هجا به أمه قوله لهـا :

---

(١١) كان هجاؤه لنفسـه يوم خرج ليبحث عن ضحية يهجوهـا ، وكان لسـان يـرد : =

أغربالا اذا استودعت سـرا وكانونا على المتحدثينـا

ولا نعجب كثيرا لما يقول هذا الحطيئة لامـه ، فانه لا يـزال متأثرا بالجاهلية ، وقد حبسه عمر بن الخطاب لهجائه المقذع الذى يتأذى منـه الناس ، فارسل من حبسه الى عمر يستعطفه :

ماذا تقول لافراخ بـذى سلم زغب الحواصل لا ماء ولا شجر؟

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمـة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

وأنت تعرف ان عمر كان يخلص النصح لامتـه ، ويبـذل كل جهده احماية رعيته ، وكان لابد أن يحميهم من لسـان الحطيئة وأضـراب الحطيئة ، انه من غير شـك يحفظ قول رسول اللـه صلى الله عليه وسلم (أيما وال ولى من أمـر أمتى شـيئا ، فلم ينصح لهم ويجتهـد لهم كنصيحته وجهده لنفسـه كبـه الله تعالى على وجهه يـوم القيامة فى النار) لقـد كان عليه الصلاة والسلام كما ترى مبشـرا ونذيرا ، لم يكن مبشـرا فحسب . وهذا هـو ردنـا على من يتصور ان كتابا عن السعادة لا ينبغى ان يضم فصلا كهـذا الفصل ، كله تحذير ونذير ، اننا نرى أن حديثا عن السعادة لا يكون وافيا ان لم يحذر من أحابيل الشيطان ، من أبواب الشقاء ... انهـا ان فتح منهـا باب تصاعدت منـه نيران حارقة ، أو على الاقل أدخنة خانقة ، وأبخرة تكتم الانفاس ، وتنغص الحياة ، وتقضى على السعادة والسعداء .

= أبت شفتاى اليـوم الا تكلمـا بسوء فما أدرى لمن أنا قائله

ولم يجد أحدا يصب عليه ما امتلأت بـه نفسه من رغبة فى الهجاء ، ولكنه وجد غديرا من الماء ، فذهب اليه ، واطل عليه ، ورأى وجهه فقـال :

أبت شفتاى اليـوم الا تكلمـا بسوء فما أدرى لمن أنا قائله

أرى لى وجها قبح الله شكله فقبـح من وجـه وقبح حامله

أخى المسلم : انك **باسلامك ميسـر للوصول الى رضوا** الله ، والحصول على سعادة الدنيا والآخرة ، ميسـر لاجتناب غضب الله ، والبعد عن الشقاء **فى الدنيا والآخرة** ٠

هل تعلم ان من لم يسأل الله يغضب عليـه ؟ هل تعلم ان أعجز الناس من عجز عن الدعاء ٠

اللهم اغننـا بحلالك عن حرامـك ، وبفضلك عمن سـواك **(ربنا آتنا فى الدنيـا حسنة وفى الآخـرة حسنة وقنا عـذاب النار) (١٢)** ٠

وبمناسبة هذا الدعاء القرآنى ، أظنه يسعدك أن تعـرف ما استنبطه أحـد العلماء من دعاء فى أواخر آل عمران ، فقـد قرأ فى هـذا الدعاء اتجاه المؤمنين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والارض ٠

ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار ٠

ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمينمن أنصار ٠

ربنا : اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ٠

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الابرار ٠

ربنا ، وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ٠

---

(١٢) الآية رقم ٢٠١ من سورة البقرة ٠

فاستجاب لهم ربهم ... (١٣) .

واستنبط هذا العالم الجليل المستبشر ، أن من يدعو بهذا الدعاء أو بدعاء من القلب يتوجه فيه الى الله ، ويسأله بنداء سبحانه (ربنا) ، ويشمل دعاؤه هذا النداء خمس مرات ، يستجب له ربه ، كما استجاب لهم ربهم بعد المرة الخامسة ! .

أخى المسلم ، أختى المسلمة :

أخى المسلم ، أختى المسلمة :

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)

فادعوه بكل ما فى قلوبكم من ايمان ، وتوجهوا اليه ضارعين مبتهلين ، مخلصين له الدين ، لتكونوا مع السعداء ... لتكونوا مع الاحبة ... محمدا وصحبه .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

(١٣) الآيات رقم ١٩١ الى ١٩٥ من سورة آل عمران .

خاتمـــة المطـــاف

لقـــد رأينا معا ان الدين هو روح الحياة ، وينبوع السعادة ، وعرفنا ان الاسلام يفتح كل أبواب السعادة ... ويدعو اليها ، ويغلق كل أبواب الشقاء ... ويحذر منها .

عرفنا كذلك ان سعادة الافراد والمجتمعات فى الدنيا والآخرة تنهار اذا فقد الناس دينهم ، كما ينهار الجسد اذا فارقته الروح .

واذا كان بعض الناس ينظر بمنظار أســود ، فيرى الحياة مليئـــة بالمعاناة ، فقـــد عرفنا ان الدين يجعلك تتغلب على هـــذه المعاناة ، وأنه يمدك بشحنة من الايمان ، تجعلك قويا بالله .

من أجـــل ذلك دعوت المسلمين بالفعل أو بالاســتعداد الى الحياة السعيدة الباسمة المتفائلة ، فمن استجاب فهو كالجســـد الصحيح ينتفع بالغذاء ، ويستجيب للدواء ، ويســتقبل الحياة راضيا سعيدا ، والله شاكر عليم .

ومما لا شـــك فيه انك لحظت انى لم اخترع مقومات السعادة اختراعا ، ولو كانت من اختراعى لكان من حقك ان تقبلهـــا أو ترفضها ، أن تصدقها أو تكذبها ، ولكنك ترى أنهـــا جميعا مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله ، أو من أحداث الاولين وعبر التاريخ ، وما فعلت ذلك الا لما رأيته من انصيـــراف الناس عن الانتفاع بجوهر الاسلام وعبرة التاريخ (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (١) .

---

(١) الآيتان رقم ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة آل عمران .

ومن سار فى الارض ونظر ، ثم وجد بابا من أبواب السعادة لم أتناوله فى هذا الكتاب ، أو أراد التوسع فى معرفة مقومات السعادة ووسائل اجتنباب الشقاء ، فليرجع الى المنبع الاصلى الذى يستقى منه كل السعداء **أفضل ما يعرفون**
وسوف يجد فيه تبيانا لكل شىء ، فليرجع الى القرآن الكريم **(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٢) ٠**

لقد رأيت الناس يفضلون العاجلة ، ويركزون اهتمامهم عليها ، وقليلا ما يذكرون الآخرة ، فأردت ان أثبت لهم ان تمسكهم بالدين يسعدهم فى العاجلة نفسها ، وأن الدين ليس مجرد وعود للسعادة فى الآخرة ، ان الاسلام هو الدين الوحيد الذى يربط الدنيا بالآخرة ، فسعادة الدنيا (عاجل بشرى المؤمن) والعمل الذى ليست له ثمرة فى الدنيا تعود عليك أو على الناس ، ليس له ثواب فى الآخرة ، ومن بين أسباب الاهتمام الشديد الذى وجهه الاسلام الى الفضائل ، انه يريد للانسان ان يحيا سعيدا فى هذه الدنيا ، وللمجتمع أن ينهض ويسعد بهذه الفضائل ، وهل يمكن أن يسعد الناس بالرذائل ؟ هل يمكن أن يسعدوا فى ظل الكذب والغش والخداع ؟ هل يمكن أن يسعدوا فى ظل الظلم والقسوة والتنازع والتباغض والتمزق ؟! ٠

وحقا ان العالم الاسلامى الآن يمر بمرحلة من الشقاء الذى جلبه على نفسه ، وحقا انهم بعيدون عن مواقع السعادة لبعدهم عن حدائق الايمان ، وقد سألنى عالم فاضل عن نشر الكتابة فى موضوع السعادة ، والعالم الاسلامى يمر بأزمات طاحنة ٠

---

(٢) من الآية رقم ٨٩ من سورة النحل ٠

فأجبته بانى استجيب فى ذلك لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحيتين :

أولاهما : تبشيره بفتح بلاد الفرس والروم واليمن وغيرها أثناء حفر الخندق ، والمسلمون يمرون بأقسى الازمات (**واذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر**) (٣) .

لقد كانت الظروف شديدة القسوة (**هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**) (٤) .

وفى هذا الوقت بالذات ، وكان النبى يضرب صخرة استعصت على المعاول فتطاير الشرر ، وقال عليه الصلاة والسلام (الله أكبر ، فتحت فارس) . ثم ضربة أخرى يتطاير منها الشرر ويقول صلى الله عليه وسلم (الله أكبر ، فتحت الروم) وفى المرة الثالثة يقول (الله أكبر ، فتحت صنعاء) وأنت تعرف انه قد تحقق للمسلمين ما بشرهم به النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت العصيب .

والثانية : قوله صلى الله عليه وسلم ، (بشروا ولا تنفروا ، يسروا ولا تعسروا) وأنا أؤمن ان الانسان حينما يكون متفائلا منشرح الصدر يكون أقدر على التغلب على الصعاب ، وأقرب الى النجاح فى بلوغ الغاية ، وازالة العراقيل ، بينما تنهار أعصاب اليائس وتخور قواه .

---

(٣) من الآية رقم ١٠ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية رقم ١١ من سورة الأحزاب .

وكما أن السعادة والنجاح يؤديان الى مزيد من السعادة والنجاح ، فكذلك الشقاء والفشل يؤديان الى مزيد من الشقاء والفشل ، ولذلك فانى لا أسمح للضباب الذى يغطى سماءنا ويحجب نور الاسلام عنى ، وأعيذها نظرات منك واعية ان تحسب السحاب مستمرا فى مكانه لا يريم ، كما أعيذها نظرات منك واعية ان تظن ان انسانا يصدق الله ثم لا يصدق الله ، أن مجتمعا يتحرك نحو الهدى والنور ، ثم لا يوفقه الله الى الهدى والنور ٠

لا ينبغى أن تسمح لهذه الظنون بغزو أفكارك الايمانية فمن المؤكد أنه من كان الصدق وسيلته ، صدق العقيدة ، وصدق النية ، وصدق الايمان ، كان رضوان الله جزاءه (**اعلموا ان الله يحيى الارض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون**) (٥) ٠

أما أنا فمتفائل ، اسجد لله شكرا على نعمة الاسلام ، كما أسجد لله شكرا على اتمام هذا الكتاب ، وأنت ٠٠ لو حاولت ان تبحث عن نعمة جديدة تسعد بها ، فسوف تجد الكثير الكثير ٠٠٠ ومنها قراءتك لهذا الكتاب ، ولكن الشيطان سيحاول معك . سيحاول ان ينسيك هذه النعم ، وان يصرفك عن الشكر والسجود لتكون مثله ٠٠٠ أمره ربه بالسجود فابى ٠٠٠ ولكن كلا ، ٠٠ لا تخضع له ، لا تسمح له ان يستزلك ويضلك ٠٠٠ (كلا ، لا تطعه واسجد واقترب) (٦) ٠

---

(٥) الآية رقم ١٧ من سورة والحديد

(٦) الآية الأخيرة من سورة العلق ٠

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

الثمن ١٥٠ قرشاً

Bibliotheca Alexandrina
0355183